الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية

في العصرين الفاطمي والأيوبي

الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية

في العصرين الفاطمي والأيوبي

تأليف

أحمد النجار

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية الكتاب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

سرنى أن أشارك بجهدى المتواضع ، فى خدمة الغاية الجليلة التى يعمل لها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بنشر الكتاب الأول لذوى الموهبة والاستعداد ، من الأدباء والدارسين الذين قلما تفسح لهم دور النشر طريق الظهور ، لإقبالها عادة على نشر أعمال الكتاب الذين لمعت أسماؤهم ، ورسخت أقدامهم فى الميدان .

وهذه الدراسة الأدبية التى أقدمها ، كانت إحدى دراسات خمس ، عهدت لجنة النثر بالمجلس ، إلى أستاذى الكبير « محمد خلف الله » وإلى ، فى فحصها وإبداء الرأى فيها . وقد قرأها كل منا منفرداً ، قبل أن نجتمع لتبادل الرأى فيها . ولم يكن عجيباً أن نلتقى عند رأى واحد ، اخترنا فيه هذه الدراسة من بين الدراسات الخمس ، ورشحناها لتنشر كتاباً أول لمؤلفها ، وأقرت لجنة النثر هذا الترشيح ، بعد قراءة السادة الزملاء ، أعضائها ، للكتاب .

وكنا جميعاً مغتبطين لهذه الفرصة ، نتيحها لدارس لم يسبق نشر عمل له . وكم كنا نود لو أتحنا مثلها لأكثر من واحد ، لكن الدراسات الأخرى التى تقدم بها أصحابها هذا العام ، لم تبلغ المستوى الجدير بالرعاية والتشجيع .

وأحرص على أن أسجل هنا ملحظاً جديراً بالاعتبار ، وهو أننا فى فحصنا الأعمال المقدمة لمسابقة الكتاب الأول ، نقيسها بما يصح أن يقاس به العمل الأول لمن لم يسبق له دخول ميدان التأليف. أعنى أننا ننظر إليه باعتباره خطوة أولى تستحق التشجيع ، إذا كشفت عن موهبة ودلت على سلامة الاتجاه وحسن الاستعداد ، وبهذا الاعتبار اخترنا كتاب السيد « أحمد النجار » : (الإنتاج الأدبى فى مدينة الإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى) لاطمئناننا إلى حسن استعداده لهذا النوع من الدراسة الأدبية ، وقدرته على المضى فى طريقها .

*

فدراسته ، بوجه عام ، تتسم بالجد الخالص ، وتقوم على قواعد منهجية ، من حيث أصالة المراجع ، والاتصال بالمصادر ، وأمانة النقل ، والتحرج من إرسال الأحكام والحذر من تعميمها وإطلاقها ، اللهم إلا فى مواضع قليلة نبهنا عليها فى تقرير الترشيح .

وقد حدد الدارس موضوعه فى منطقة مكانية خاصة هى الإسكندرية ، وفى فترة زمانية معينة ، هى عصرا الفاطميين والأيوبيين ، فنجا بهذا التحديد من التشتت والتوزع ، وسطحية التناول وسرعة النظر ، وهى أخطاء لا ينجو منها الذين يوسعون دائرة الموضوع ، فيعوزهم طابع التخصص ، وتبعثر طاقاتهم فى نطاق لا يحصره مكان ولا يحده زمان .

ومن الحق أن نذكر هنا ، أن السيد النجار فى اختياره لهذا الموضوع ، كان مستجيباً لدعوة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، إلى كتابة بحوث أدبية وتاريخية ، من بينها هذا البحث الذى يراد به إلقاء ضوء على فترة من تاريخ المدينة الأدبى ، لا تزال فى منطقة الظل .

وكانت استجابة السيد النجار للدعوة ، صدى وعيه لأمجاد الماضى العلمى والأدبى ، لهذه المدينة ، العريقة التى عرفها التاريخ فى قديم عصوره ، مركزاً للإشعاع الحضارى ، ومنارة للفكر الإسلامى .

*

وقد بدأ الدارس بالقاء نظرة عامة على الإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى ، ألم فيها بأحوالها التاريخية سياسية ومذهبية وفكرية وحضارية ، إلماماً كافياً مع إيجاز ووفاء ، واستطاع أن يضبط قلمه فلم يوغل فى هذه النواحى بعيداً عن موضوع بحثه ، وإنما كان همه أن يمهد للدرس الأدبى ، بالقدر الذى يجلو البيئة العامة التى تنفس فيها وعاش .

ثم فرغ لموضوعه مزوداً له باطلاع واسع على مصادر مادية ، واتصال واع بمراجعها ، مع قدرة على الانتفاع بها إلى درجة ملحوظة .

ويشهد بحثه بحسن ذوقه للنص الأدبى ، وسلامة توجيهه له بوجه عام : بما يدل على موهبة تعتمد على دقة فى الحس ، وإدراك لفنية الأدب ، ولغته سليمة ، وأسلوبه دقيق لا تثقله الصنعة اللفظية والزخرف الشكلى ، باستثناء المقدمة التى لم تخل بعض عبارات فيها من تكلف أو صنعة .

*

وآثر الدارس أن يتناول موضوعه فنوناً للشعر والنثر ، من حيث الأغراض التقليدية لكل منها : السياسة ، والمدح ، والوصف ، والغزل والخمر ، والرثاء والفخر والحكمة . .

وإذا كانت الدراسة الأدبية الجديدة قد استحدثت اعتبارات أخرى تقيم عليها النظر فى فنون القول ، فعذر الدارس أنه يقدم محاولته الأولى فى التأليف . وإذا لم يكن فى نظرته إلى أغراض الأدب التقليدية ، قد وفق إلى استخلاص قيم فنية جديدة لذلك التراث الأدبى ، فالحق أنه قدم دراسة مجدية ، ألقت ضوءاً على فترة من تاريخ الإسكندرية الأدبى ، تعتبر فى منطقة الظل ، وجمعت قدراً من تراثها ، أكثره مبعثر فى عدد من المخطوطات ، والكتب المطبوعة غير ذائعة التداول . ولاشك أن مثل هذا يعين على فهمنا لتاريخنا ، بما يقدم لنا من أساليب ذلك العصر وألفاظه ، وما يجلو من صلة الفن بالحياة .

*

وقد أوصينا فى التقرير المفصل عن الكتاب ، بأن يلحق به الدارس فهرساً جامعاً لأسماء الشعراء والكتاب ممن تناولتهم الدراسة ، مع بيان لمصادر تراثهم الأدبى ومراجع تراجمهم

ورجائى أن يكون للسيد النجار من هذا التقدير ، ما يشجعه على مواصلة الدرس والسير فى الطريق ، وأدعو له بالتوفيق .

مصر الجديدة يونية ١٩٦٢

بنت الشاطئ
أستاذة اللغة العربية وآدابها
بجامعة عين شمس

مقدمة

طبت نفساً حين أعلنت كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية عن مسابقة فى كتابة بحوث أدبية وتاريخية يتقدم إليها خريجوها وخريجو غيرها من كليات الآداب بالجامعات العربية ، وقد آنست من نفسى رشداً أن أقوم بالبحث فى أحد هذه الموضوعات المقترحة للدراسة ، واخترت أن أكتب فى هذا الموضوع « الإنتاج الأدبى فى مدينةالإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى » . وهو موضوع يتناول فترة تاريخية غامضة باعتراف كثير من رجال التاريخ من عرب وغير عرب منذ أن حالت حال مدينة الإسكندرية فى القرون الوسطى ، وصارت إلى مالم يكن فى الحسبان أن تصير إليه من إهمال ، وهى التى أشعت ، فى فترة سابقة من التاريخ ، نور العلم فى الشرق ، وكانت مقصد طلاب المعرفة من الشرق والغرب ، بفضل مدرستها الجامعة ومكتبتها الخالدة — وكانتا الحفيظتين على التراث اليونانى والهيلينى فترة طويلة من الزمان — إلى أن امتدت إليهما يد الهرم والتخريب فأحرقت المكتبة، وأزيلت معالم الجامعة من الوجود ، وأصبحتا كلتاهما أثراً بعد عين ، ولكنه الأثر الذى أشاع الحسرة فى النفوس بما نالهما من دمار وإحراق ، وهو الأثر الذى بقى ، أيضا ، شاهداً على الحضارة الراقية التى أظلت الشرق ومبعثها الإسكندرية منارة العلم والثقافة دهراً غير قصير .

وكان قميناً بجامعة الإسكندرية الحديثة أن تحمل المشعل الوهاج الذى كان بيد الجامعة القديمة بما كان لها من خاصة مميزة فى العلوم والفنون

والآداب – وبخاصة فى الفلسفة – وأن تدل على الطريق الذى يوصل إلى معرفة أصول تلك الحضارة ، وأن تحيى الموات الذى أرادته لها الأحداث واضطراب الأحوال السياسية فى فترات متلاحقة من التاريخ بحيث لم يتيسر لها السبيل أن تنهض من كبوتها وأن تعاود السير على الطريق التى كانت من قبل عليها تسير .

وكان أجدر بكلية الآداب من جامعة الإسكندرية أن تسبق فى هذا السبيل فتيسر سبل البحث عن أمجادها الأدبية ، وتدل على الموضوعات التى ينبغى أن يطرقها الباحث للكشف عما غمره الزمان بركام من النسيان ، وإبراز الشخصية السكندرية فى مجال الفنون والآداب ، فجاء الإعلان عن هذه المسابقات فطنة للدور الذى ينبغى أن تقوم به الكلية فى جلاء ميادين أدبية وتاريخية حفلت بها الإسكندرية ، وكان جديراً بها أن تفعل وفاء لحق الأخوة بين القديم والحديث ، وربطاً للصلة بينهما بما يدفع إلى التطور ويبسط شعاع النور على الطريق التى يحدو عليها جيلنا النامى الصاعد .

ورأيت أنى أحمل واجباً على أداوه نحو كليتى التى تخرجت فيها ونحو مدينتى التى أحببتها واتخذتها در إقامة ، فأقوم بدراسة هذا الموضوع ، عساى أوفى ديناً على لهما وقد امتعتانى بوجود مادى وروحى عطر حياتى وجمل فى عينى دنياى .

وبذلت جهداً ، لم يكن – علم الله – باليسير ، باحثاً فى المظان التاريخية والمراجع الأدبية عن شخوص الإسكندرية وأعلامها فى ميدان الأدب ، وعن آثارهم الدالة عليهم ، والكاشفة عن الغموض الذى ران على حياتها فى تلك الحقبة من الزمان الذى امتد فى بحثنا نحو ثلاثة قرون ، والمميزة لبيئتها فى السياسة ، ومظاهر الحضارة ، والثقافة والفنون – وكان الأدب

أبرز هذه الفنون وجوداً ووضوحا ودلالة ، فألقيت نظرة طائرة على هذه البيئة فى هذه الأحوال وتلك الظروف مما يكون عوناً للباحث أن يهتدى ، ويصل إلى نتائج يمكن أن يطمئن إليها وقد أعين على تفسير الغامض وتوجيه الحائد عن سواء السبيل .

وأمعنت النظر فى تلكم المظان والمراجع فيما طبع وفيما لم يزل مخطوطاً ، وتنقلت بين دور الكتب فى الإسكندرية والقاهرة – وقد حرمت التمتع بإجازة الصيف – وعانيت من لظى الحر فى القاهرة ومن نظام العمل فى دور الكتب ما عانيت مستطيباً هذه المعاناة جريا وراء ما أريد بلوغه وفاء لحق البحث الأدبى الدقيق .

ولست مدلاً بذلك – وقد يسر الله السبيل – وإنما هو إعلام بالجهد المبذول فى محاولة إنارة الطريق المجهول ، وفى أصالة المصدر والمرجع عاش النظر والفكر والذوق محاولاً الدرس والفهم والتذوق ، كى تتحدد معالم الشخصية للدارس ، والموضوع المدروس .

وعلى قدر مابذلت وجهدت ، رجوت من الله التوفيق .

أحمد النجار

الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية

في العصرين الفاطمي والأيوبي

الفاطميون والأيوبيون في مصر

الفاطميون والأيوبيون فى مصر

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ ، ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ

الفاطميون :

أولئك قوم أجلبوا بخيلهم ورجلهم بالمغرب ، وقضوا على دولة بنى الأغلب ، — وقد مهد السبيل إليه دعاة المذهب والمبشرون بالإمام المنتظر — فما لبثوا أن مكن لهم فى أرضه ، وأسس إمامهم عبيد الله المهدى أول دولة فاطمية ، منذ خرجوا ظاهرين ، وهتكوا أستار التقية التى ضربت عليهم ، وبدءوا حياة العمل السياسى والدينى ، وكان أن استجب لهم حيث سيطروا على العقول والقلوب ، وأورثوها حقداً وثورة على المعتدين الغاصبين من بنى أمية وبنى العباس .

ولما اطمأنت بهم الأرض ، واستقرت دعوتهم الإسماعيلية ، ودان بها من دان — طوعاً أوكرهاً — أخذوا ينشرون الدعوة ، ويبثون الدعاة بكل مكان يبتغون التسلط عليه تحقيقاً لأملهم العريض فى إنشاء امبراطورية شيعية تقضى على المناوئين وتوفى بهم على السلطان الذى داعب أحلامهم من قديم .

وكانت مصر مجالا لنشاط دعاتهم ، كما كانت (الإسكندرية) بخاصة قد سبقت إليها دعوتهم قبل أن تظهر بمصر والشام والحجاز[1] وهى فى الاعتبار « باب المغرب » كما كانوا يقولون ، ومن أجل ذلك اتجهت إليها

---

(١) اتعاظ الحنفا للقريزى ٦٢ تحقيق الدكتور الشيال نقلا عن ابن خلدون فى تاريخه جـ ٤ ص ٣١ — ٣٣

الأنظار ، وولوا وجوههم شطرها غازين مرة بعد مرة ولكنهم كانوا يردون عنها خاسرين بفضل ماكان للعباسيين يومئذ من قوة وتمكين ، ولم تنفعهم شيعتهم بمصر الذين كانوا يكاتبونهم مبشرين بالظفر إذا هم جاءوا فاتحين ، ولم يكن أمر هؤلاء المكاتبين خافياً على الوالى الذى أولاهم خسفاً وذلا وسجناً وتعذيباً ، وفيهم قال الشاعر المصرى ابن مهران :

وقد وافى حباسة فى كتام	بكل مهند وبكل خطى
وقد حشدوا لمصر ، ودون مصر	له خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلا حتى تخطى	رجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه	من اقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا	وكل فى البلاد له موطى
فقل لحباسة إن كنت عنا	مضيت فإن قتلك ليس يبطى[1]

وكانت محاولة « حباسة » ذاك هى الثانية من محاولاتهم المتكررة ووقف له « مؤنس الخادم » بالمرصاد يذوده عن مصر ، حتى انتهى به الأمر إلى القتل وهو بالمغرب على يد « الإمام المهدى » . . بعد أن منى بهزيمة من أهل الفسطاط .

ولكن محاولاتهم تتابعت ، وهزائمهم تلاحقت (ومازالت الإسكندرية وأعمالها ، بسبب ذلك ، فى اضطراب إلى أن قدمت جيوش المعز مع القائد جوهر سنة ٣٥٨ فملكتها[2] وكان نظام مصر قد انخرم بعد موت كافورولم تجر الأرزاق على الجند حتى كتب جماعة منهم إلى المعز وهو بالمغرب يطلبون منه عسكراً ليسلموا إليه مصر ، فجهز جوهراً بالجيش والسلاح ، وآرزه

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٢٧٢ (٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٢

الأسطول وسار حتى نزل (تروجة) وهى قرية بمركز أبى المطامير وأرسل إلى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان وتقرير الأملاك لهم وأجابهم جوهر إلى ما يطلبون وكتب لهم العهد ، وأبلغهم مأمنهم ولاح فى نظره الفتح القريب دون إراقة الدماء ، ولكنهم وقد اختلفوا فيما بينهم — أثاروا ضده حرباً قتل فيها من الإخشيديين خلق كثير ، وانهزم الباقون طالبين الأمان والدخول فى الطاعة ، ودخل جوهر من غده إلى مصر ، واختط موقع القاهرة وحفر أساس القصر لتوه ، ثم كتب إلى مولاه مبشراً بالفتح المبين.

وعمل على إزالة آثار السابقين فقطع الخطبة لبنى العباس ، وأمر الخطباء بلبس البياض ونبذ السواد « وانقطعت دعوة بنى العباس فى تلك السنة من مصر والحجاز واليمن والشام[1] » ه

وعلى الرغم مما أصاب مصر من وباء وحاق بها من غلاء وضعف فى الأرزاق فإن جوهراً لم يلتفت إلى ذلك وصمم على الفتح، وبلوغ غاية الأمر، وخرج المعز — « أول من تملك مصر من بنى عبيد الرافضة المدعين أنهم علويون[2] يريد مصر فى جمال موسوقةبالأموال بعد أن أقام بالمغرب من استخلفه عليه ، ودخل الإسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ وفيها تلقاه قاضى مصر أبو طاهر الذهبي والأعيان وطال بينهم الحديث ، وأعلمهم المعز بأن قصده القصد المبارك ثم نزل بالجيزة ودخل القاهرة وحل ببيت الإمارة وقد أخذت منه الفرحة كل مأخذ وهناه ابن هانىء بما فتح الله عليه قائلا من قصيدته :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر	فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر	تصاحبه البشرى ويقدمه النصر[3]

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٠

(٢) المصدر المذكور نقلا عن الذهبي . (٣) الديوان ص ٨٦

وماكان هذا النصر ميسوراً لولا ضعف مصر الذى أطمع فيها ، ونشاط الدعاة الفاطميين الذين استغلوا سوء هذه الحال فعملوا على زعزعة الأفكار السنية ، وماكان القصد إلا أن يهدموا أركان الدولة العباسية حتى بلغوا من ذلك أهدافهم الدينية والسياسية جميعاً — وقد تكونت بمصر جماعة عرفت بإخلاصها لهم والإشادة بفضلهم — وهى التى كانت تقول من قبل (إذا زال الحجر الأسود — يعنون كافورا — ملك مولانا المعز الدنيا كلها)[1] وكان المعز قبل أن يرسل جيوشه بقليل يقول : (إنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطى (ومن أجل ذلك كتب ابن خلكان يقول) إن فتح مصر كان متوقعاً لدى الخاص والعام ، وإن العساكر وكبار الموظفين كانوا على علم بذلك بل أنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه أن يرسل جيوشه لفتح هذه البلاد)[2] فلا عجب — إذن — أن يتيسر للفاتح النصر ، بعد أن تفاقم الأمر ، وقد ساءت الحال واشتد الخطب ببنى العباس حتى مكنوا للروم أن يستولوا على الشام والثغور وطرسوس وانطاكية وغيرها من الأطراف.

وتمكنت دعوة بنى عبيد فى مصر ، وضربت فى الأرض غازية رافعة رايتها ، محققة أهدافها لا يصدها صاد ، أو تقف فى طريقها عقاب شداد .

ثم جرت أمورهم بمصر على الوجوه المرادة ، ونعموا بما لم يكونوا يحلمون به ، وأصابوا خيراً وفيراً حتى أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس ، وعاشوا عيشة ترف وبذخ ، وألفوا حولهم القلوب والأفكار باسم الدين تارة وبالهبات والعطايا تارة أخرى ، وبالسيف إذا ما أعوز الإقناع .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣١

(٢) الوفيات ج ١ ص ٣٤٨

وتولى المعز بالقاهرة الأمور بيديه ، واعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى لدولته ، فهو واضع أصول الحكم التى سار عليه خلفاؤه من بعده ، وهو — أيضاً — واضع أسس لحضارة جديدة لم تشهدها مصر منذ عهد طويل .

وخلف من بعده خلف هم ورثة ملكه وعزه وسلطانه ، وباسطو ظله على مصر وغيرها ، وظلت دعوة بنى عبيد نحو قرنين من الزمان استقلت فيها مصر استقلالا حقيقياً بعد عصر منيت فيه بالغزو حيناً وبالخضوع للوالى حيناً آخر ، وتشيعت مصر أوكاد المذهب فيها أن يشيع .

ثم سارت الأمور فى مصر سيرها الحثيث إلى الغاية أو النهاية تمضغها الأحداث منذ ترك الفاطميون حياة الفطرة الساذجة التى نشئوا عليها وتربوا فى أحضانها ، والتى كانت شعارهم فى أيامهم الأولى حين كانوا بين البربر فى القيروان . ومنذ انغمسوا فى حياة الترف وأشبعوا نهم نفوسهم بكل أنواع الملذات ووكلوا الأمور إلى الخدم والبطانة — شأن بنى العباسى فى آخر عهدهم مع مواليهم — فكانت عاقبة أمرهم خسرا إذ استأثر الوزراء بالحكم ، وتدخلت النساء فى تدبير شئون الدولة ، وانزوى الخلفاء المستضعفون بين الجدران بينما نذر الخطر تعلن أفول نجمهم فى الأفق القريب.

فمنذ عهد « المستنصر » اضطربت أمور مصر وفسد الحكم فيها ، وشبت ثورات فى أماكن عدة حتى رفض أهل شمالى إفريقية عقائد المذهب الشيعى وتلا ذلك انفصال عن الخلافة الفاطمية ، وقامت حروب عنصرية بين الجنود المرتزقة من الترك والسودان .

ومنذ عهد « المستعلى » ووريث عرش سابقه تستمر هذه الأحوال وتنقسم الشيعة إلى مستعلية ونزارية ويكثر القتل والاغتيال بحيث لم ينج خليفة منه — إلا الأقلون — حتى تبلغ الأمور أقصى المدى شدة واضطراباً عندما أخذ

الصليبيون يدقون أبواب المشرق العربى ويفتحون فى حدوده وثغوره الثغرات بأقصى الشمال وصوب بيت المقدس ، هدفهم الأكبر ، حتى مكنوا لأنفسهم بما تهيأ لهم من استغلال ضعف الخلافة ، وانقسام الحكام ، وتواكل كل فريق على الآخر ، وغطت غشاوة كثيفة على أبصارهم وقلوبهم فعموا وضلوا وصموا عن سماع دعوة الانتصار للحق والحفاظ على الدين أطلقها مدوية أبطال هذه الحروب من « الأتابكة » وبنى أيوب الذين وقفوا وحدهم فى الميدان يقاتلون جيوش أوربا الغازين باسم الدين ، والثأر لكرامتهم — فيما ادعوا — ليبسطوا سلطانهم على أرض العرب والمسلمين .

وكانوا فى حاجة ملحة إلى أن يجتمع الشمل وتتحد الكلمة ، وينتصر بعضهم لبعض لمواجهة هذا الموقف العصيب ، ولكن قومنا ، هنا وهناك ، لم يستجيبوا للدعوة المخلصة المؤمنة ومضوا فى غيهم سادرين غير أبى الغارات الملك الصالح طلائع بن رزيك الذى هب لنجدتهم ، بغية تخفيف الضغط الواقع عليهم ، وجد فى ذلك حتى تعب أبو الغارات وكانت وزارته صفحة مشرقة فى تاريخ مصر قبل أن يستولى عليها صلاح الدين إذ وجه همه كله لحرب الصليبيين . وأجلاهم عن بلاد كثيرة فى فلسطين ، وكان جديراً أن يسد النقص ، وأن يوجه الأحداث ، ويغير ما خطه التاريخ ، لو لم تمتد إليه يد أثيمة فتقتله وتقضى على أمل للمسلمين عظيم .

ثم تعرضت مصر نفسها لغارات الفرنج بسبب ما أقدم عليه « شاور » من الاستعانة بهم على غريمه « ضرغام » ، فتدخلوا فى شئون مصر ، وفرضوا الجزية ، وأعملوا القتل والتعذيب واحتلوا من عاصمة البلاد مكانا إلى حين .

ومن قبل .. بدا لنور الدين أن يتدخل ، وأن يستأثر بالأمر فيها منذ وقف على قصة الصراع بين الوزيرين : ابن مصال وابن السلار أيام

« الظافر » وهو على بينة من أن مصر سند قوى له إذا تمكن منها لمغالبة العدو الرابض فى البقاع المقدسة فى وقت هو فى أشد الحاجة إلى السند المكين . .
فاستغل النزاع بين الوزيرين وقد كان نزاعاً — فى حقيقة أمره — بين مذهبين دينيين : مذهب الشيعة ويمثله ابن مصال ومذهب أهل السنة ، ويدين به ابن السلار كما كان يدين به نور الدين وصلاح الدين ، وكان « ابن السلار » أول من هيأ للمذهب السنى الرجوع إلى مصر قبل أن يتمكن من ذلك أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين .

وجرت أحداث قتل فيها الخليفة الظافر ، واغتيل الوزير ابن السلار ، وتولى الفائز الأمر وبرز فى مجرى الأحداث الملك الصالح طلائع الذى أعاد الأمر إلى نصابه بمصر من الاستقرار بفضل ما أبداه من الحزم والعزم ومقاومة الصليبيين والاستبداد بالأمر من دون الخليفة الطفل مما أضمر عليه الحقد والكيد ، فاغتيل ، وعادت الأحداث تعنف وتشتد مرة أخرى وتعود قصة الصراع بين الوزراء ابتغاء الاستئثار بالسلطة وتبرز قصة الخيانة والضعف ويبلغ الهوان بشاور أن يستعدى على خصمه العدو الدخيل مما دفع نور الدين أن يبعث بقائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فى حملات ثلاث حماية لمصر من الصليبى الدخيل ولتكون ردءاً له يحميه ، وعوناً له يسد حاجته ، وملكاً يبسط عليه — فى النهاية — سلطانه ، ويدخل صلاح الدين « الإسكندرية » والياً عليها ، ويرحب به أهلها وينتصرون له بإمداده بالرجال والسلاح والأموال ويقف واليها محمد بن مصال ، وقاضيها الأشرف بن الحباب ، وناظرها القاضى الرشيد الشاعر يشدون أزره فى وقت حوصرت فيه المدينة حتى قل الطعام ، وغلب صلاح الدين وأنصاره على أمرهم ، ودخل « شاور » المدينة وأطلق يد السلب والقتل والتعذيب حتى فر من فر ، وأسر من أسر ، وقتل من قتل ظلماً وعدواناً كالقاضى الرشيد .

وعند ما استصرخ « العاضد » الخليفة نور الدين لنصره تمكن « شيركوه »
فى ثالث مرة أن يثبت قدمه ، وأن يدخل مصر دخول القائد المظفر ، ويرى
فيه الناس البطل المنقذ ويقدر الخليفة « العاضد » صنيعه وبطولته فيخلع عليه ،
، يكل أمر الوزارة إليه .

الأيوبيون :

وقد كان الغرض من حملة شيركوه هذه القضاء على رءوس الخيانة من
أمثال « شاور » واحتلال مصر ، وتم له ما أراد إذ جز صلاح الدين رأس
« شاور » وأصبح شيركوه الأيوبى وزير البلاد والحاكم بالأمر فيها ، ولكن
المنية عاجلته بعد شهرين وخمسة أيام (ففوض العاضد الوزارة لصلاح الدين ،
فساس الأمور ، ودبر لنفسه ، فبذل الأموال ، وأضعف « العاضد »
استنفاذ ما عنده من المال ، فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان
وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمود نور الدين ، وأقطع أصحابه
البلاد ، وأبعد أهل مصر وأضعفهم واستبد بالأمور ، ومنع العاضد من التصرف
حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة إلى أن كان من واقعة العبيد فأبادهم
ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ، ولم يبق سوى إقامة ذكره فى الخطبة
فقط ، وأبطل المكوس من ديار مصر ، وهدم دار المعونة بمصر وعمرها
مدرسة للشافعية وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية وعزل قضاة مصر الشيعة
اختفى مذهب الشيعة إلى أن نسى فى مصر ، وأخذ فى غزو الفرنج ، ثم سار
إلى الإسكندرية ولم شعث سورها وعاد)[1] .

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٢ وما بعدها .

وأخذ نجمه فى الصعود ، وابتدأت عظمته الحقيقية عند ما وطد العزم
هذه الآونة على تأسيس إمبراطورية واسعة . ولكى يصل إلى هذا الهدف
الكبير خصص كل مجهوداته الحربية وأمواله ورجاله لطرد الصليبيين من سائر
البلاد التى احتلوها فشرع يرسل الحملات عليهم تغزوهم فى عقر الديار
مما أثار الهلع فى نفوسهم ، فاجتمعت كلمتهم واتحدوا لمقاومته والكيد له ،
وساروا إلى مصر بحراً ونزلوا بدمياط ، ولكن صلاح الدين كان لهم بالمرصاد
ففك الحصار الذى ضربوه عليها ، وأحرق مراكبهم ، واستولى على عدتهم
الحربية وكان قد نزل أسطول « صقلية » بالإسكندرية فى أعقاب موت نور الدين
فى عدة وعتاد لم يكن للمسلمين بمثله عهد ، ولكن الخطة الحكيمة دبرت للقضاء
عليه ، وبذل السكندريون والجنود أعظم ضروب الشجاعة حتى ألقوا به
فى البحر وأحرقوا عدته ، وقتلوا رجاله وكتب الله لهم النصر .

وقد تعقبهم صلاح الدين بكل أرض ، حتى أصبح فى نظر المسلمين —
والمصريين منهم خاصة — حامى حمى الإسلام ، ورافع راية السلام على أرض
السلام ، فانضوى تحت لوائه رجالات الدولة وعلماؤها وكتابها وشعراؤها
وصار صيته وسمو مكانته فى النفوس أنشودة ترددها الأقوال والأشعار ،
وتتجاوب أصداؤها فى كل مكان إلى أن اختاره الله لجواره فخلف من بعده
خلف من بنيه وقومه توارثوا سلطانه مدة تقرب من ثمانين عاماً وقف فيها
وارثو عرشه والشعب فى كل مكان ، فى مصر والشام ، وقفة رجل واحد
فى وجه الأعداء ، حتى تم لهم النصر بالقضاء على آخر معاقل الصليبيين
الأرض السليب .

وقفوا فيها — على الرغم من تخالفهم وتناحرهم على السلطان — والشعب
وراءهم يسندهم ويشد أزرهم ، ويقدم وقود هذه الحرب المقدسة ذلا

فى سبيل الله والعروبة كل ما يملك من نفس ونفيس ، صابراً مصابراً حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويعود الحق لأهله ، لا تقعده المحن والمجاعات الشداد التى حاقت به فى عصرين متتابعين عن أداء واجبه كاملا ، ونسى الناس أيام الترف ومواسم اللذة ، وعاشوا أعياد النصر مما صار به حديث التاريخ بطيب وتحلى به مصر فى عيون الناس جميعاً — نقول على الرغم من هذا كله لم يكن للمسلمين فى مصر وديار الشام وما جاورها من الأصقاع والبقاع هم إلا أن يزيحوا عن كاهل هاتيك الديار العدو الجاثم ، ويقضوا على آثاره ، ويطهروا الأرض من أوزاره ، وكانت وحدة مصر والشام مصدر الفزع الأكبر له ، كما كانت انتصاراته دافعة للقلوب المتنافرة أن تصفو ، وللخلافات القائمة أن تزول ، وفى جبهة واحدة وعلى قلب رجل واحد ، لقى العدو الهزيمة تتلو الهزيمة ، حتى كان عصر نجم الدين أيوب الملقب بالملك الصالح — وقد حاول الصليبيون فى عهده أن يستولوا على مصر — فإنه عند ما قبض خرج خرج الصليبيون من دمياط ونزلوا بفارسكور ، وعلم أهل القاهرة بنبأ وصولهم واشتداد حصارهم للمنصورة فخرج إلى الفرنج الطائفة التركية المعروفة بالمماليك البحرية وأزاحوهم عن موطنهم حتى طلب « الملك لويس » الأمان وأخذ أسيراً ذليلا وظل معتقلا بدار « ابن لقمان » موكولا إلى الطواشى « صبيح » أمر المحافظة عليه وإجراء الراتب اليومى له . ورحل السلطان « توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين من المنصورة إلى فارسكور » وكتب إلى نائبه فى دمشق يقول : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله . »

وانتهت الدولة الأيوبية بعد أن أبلت بلاء عظيما فى ميدان الحروب الصليبية التى كانت شغلهم الشاغل ، وأسدل الستار على هذه الحروب التى أريقت

فيها الدماء بسخاء باسم الدين ، والشرف والكرامة ، والتى شغلت بال الناس فى العصور الوسطى إذ كانت حديث القوم فى كل مكان ، كما كان هم الحكومات المتعاقبة متجهاً إليها ، فهى نصب كل عين حتى استخلصوا أهم مركز دينى (بيت المقدس) الذى كان الصليبيون قد استولوا عليه ، ونكص الصليبيون على أعقابهم خاسرين بعدأن امتدت هذه الحروب زهاء قرنين من الزمان ، وصهرت محنتها الجميع .

يهمنا فى بحثنا الأدبى هذا موضوعات ثلاثة أردنا أن نجمل القول فيها — دون استقصاء يخرج بنا عن القصد — لنقف على ما أحاط بالإنتاج الأدبى فى مصر بعامة ، وفى الإسكندرية بخاصة ، مما يمكن أن يكون قد أثر فى تياره أو أجرى من الأغراض فى مجراه ، وهذه الموضوعات هى :

١ — المذهب الدينى الذى اعتنقه كل من الفاطميين والأيوبيين

٢ — الحضارة وأسسها ومظاهرها .

٣ — الثقافة والحركة العقلية .

المذهب الدينى

الذى اعتنقه كل من الفاطميين والأيوبيين

التشيع : نشأته ، موقف أهل السنة والجماعة منه ، خصائص المذهب الأشعرى المعارض

أما التشيع فقد بدأ باعتقاد أن عليا رضى الله عنه كان أحق الناس بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبوا هذا الحق لأن النبى (صلوات الله عليه وسلامه) قد عهد له بها من بعده ، ولأنه نص على ولايته فى رواية مشهورة عند الشيعة ، عندما كان النبى فى مكة يدعو إلى الإسلام ويبلغ رسالته إلى الناس كافة — وقد كان حريصاً على اكتساب الولى والنصير والمدافع من دونه — فاجتمع حوله جمع من قريش فيهم المشرك والمؤمن يعظهم ويدعوهم إلى نصرته والإيمان به ويسألهم (من الذى يبايعنى على ماله ؟ فيجيبه إلى المبايعة من حضر من المسلمين ، ثم يسألهم (من الذى يبايعنى على روحه وهو وصى ، وولى هذا الأمر من بعدى ؟ فلم يبايعه منهم غير على فقد مد يده اليه وبايعه على ماله وروحه .

وعندما كان النبى عند غدير (خم) وقد خرج من مكة بعد حجة الوداع دعا عليا إلى الوقوف عن يمينه ، وخطب فى الناس فى يوم قائظ قائلا (لقد دعيت إلى ربى ، وأنى مجيب وأنى مغادركم من هذه الدنيا ، وأنى ، تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله ، وعشيرتى : أهل بيتى) ثم رفع يد على وصاح (من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار) ، ثم عاد

إلى خيمته، ونصب أخرى لعلى بجوارها وأمر المسلمين أن يبايعوه بالإمامة)[1] تلك حجتهم فى إمامة على ، وتذكر بجانبها نصوص من القرآن أولوها بما يتفق وعقيدتهم تلك التى تمكنت من قلوبهم ، وإذا كان قد ثبت لديهم « النص » على على فإن أهل بيته هم ورثته « بالنص » منه أيضا وكل أمام ينص على من يليه ، وعلى هذا فلا اجتهاد فى اختيار الإمام على ماذهب اليه أهل السنة والجماعة الذين أنكروا هذه النصوص عليهم ، كما أنكروا طريقتهم فى التأويل والذهاب به فى كل سبيل يؤدى إلى تقوية مذهبهم ودعمه بما لم يتفق عليه .

وهكذا ظهر « على » إماما وخليفة منذ موت النبى وإن لم يتول الأمر فعلا وظهر أن الخلفاء من قبله : أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبوا حقه ، وأن الواجب على شيعته من بعده أن يردوا الحق إلى أصحابه ، وأن يعملوا سراً وعلانية — على أن يتولى هذا الأمر أهله ، وأن ينكروا الواقع الذى جرت به الأحداث على خلاف ما اعتقدوا وما يمكن أن يكونوا ممن يعتدى على هذا الحق ، ويسلب أهله منه .

وقد ارتادت هذه الفكرة فى صورتها الأولى الساذجة رءوس بعض الصحابة كسلمان وأبى ذر بعد عهد أبى بكر وعمر ، كما دعمها عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أسلم — على دخل — بما كان ينادى به من أن لكل نبى وصيا ، وأن « عليا » وصى « النبى » (صلى الله عليه وسلم) مستندا فى هـذا إلى أحاديث نسبتها الشيعة إلى النبى مثل (أنت منى بمنزلة هارون من موسى) (أنت خليفتى ووصى من بعدى) وما كان يخلعه ابن سبأ على على من صفات غلا فيها غلوا كبيرا كالقول بنبوته وألوهيته حتى قال فيه أهل السنة (إن ابن السوداء كان على رأى اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته ليعتقدوا فيه كما اعتقد النصارى فى عيسى)[2] .

(1) حياة القلوب للمجلسى ص ٣٣٩ (2) التبصير فى الدين للاسفراينى ص ٨٥

ولكن الشيعة لم يقبلوا القول بألوهيته — إلا من غلا ومن كفر — واكتفوا بالاعتقاد فى إمامته وعصمته وأنه وارث علم رسول الله الذى لم يعلم به أحد دونه ، وأنه صاحب « الجفر » (كتاب الأسرار الذى أملاه النبى عليه) وأنه صاحب الكرامات التى تدنو من مرتبة المعجزات ، وأن العترة من أهل بيته أئمة معصومون ، برآء من ارتكاب المعاصى وأن الأرض ملك لهم ، وأنهم فيض النور المحمدى وقد روى عنهم قولهم : (انتقل النور إلى غرائزنا ، ولمع فى أئمتنا ، نحن أنوار السماء ، وأنوار الأرض ، فينا النجاة ، ومنا مكنون العلم ، وإلينا مصير الأمور ، وبمهدينا تنقطع الحجج ، خاتمة الأئمة ومصدر النور)[1] .

تلك أصول المعتقد فى صورته الساذجة الأولى ، وما لبث أمرهم فيما بعد أن تفرقوا شيعا وأحزابا يعتنق كل حزب مبادئه ، ويجرى على تعاليمه ، فكان منهم الشيعة الإمامية على اعتقاد أن الإمامة قد انتقلت إلى موسى الكاظم «الابن الرابع لجعفر الصادق » وقد ورثه من بعده بنوه حتى كان الإمام الثانى عشر (مهدى الزمان) بن الإمام الحسن العسكرى الحادى عشر ، وهو حجة الله على البشر ، بشر به القرآن على نحو ما أولوا قوله تعالى (أفمن هو قائم على على كل نفس بما كسبت) وبشر به النبى فى روايتهم : (اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى ، وألقابه المهدى ، والحجة ، والمنتظر ، وصاحب الزمان) وهو الذى انتهت به دورة الأئمة ، وبدأت من بعده دورة الوكلاء الأربعة ذوى الحقوق المتبعة ، وأهل العصمة والتقديس ، وحجج الله فى أرضه .

وكان منهم الزيدية انتساباً إلى (زيد بن على) وقد كانت طائفة أقل تشدداً ، وأسمح معتقداً ، فإن النبى قد عين إمامه على وخصة بها وصفاً لا

(١) مروج الذهب للسعودى جـ ١ ص ٥٥

نصاً كما يرون ، وهم من أجل ذلك يصححون خلافه أبى بكر وعمر ، ولا تتبرءون منها ، وإن كان على — فى نظرهم — أفضل وأولى بحمل الأمانة كما كانوا لا يقصرون الإمامة على فرع معين من بيت على ، ولم يكن الإمام عندهم معصوماً ، محيطاً بأسرار علم النبى الخفى ، فالزيدية بهذا تمثل الشيعة المعتدلة ...

وكان منهم الإسماعيلية القائلون بإمامة إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق وقد كانوا على وفاق فى الرأى مع الإمامية إلا فى عدد أئمة الدورة ، فبينما اعتقدت الإمامية أن الدورة تنتهى عند الإمام الثانى عشر ، كان الدور الأعظم للأئمة عند الإسماعيلية يقف عند الإمام السابع ، ولكنهم قالوا مثل قولهم بجواز استتار الإمام تقية من سلطان جائر ، أو بطش ذى عنت أو بأس ، وظل هؤلاء الأئمة المستورون يتوارثون الإمامة ويتولونها فى ستر وخفاء إلى أن تحين الفرصة للظهور والعمل والكفاح من أجل حقهم المغتصب ، حتى جاء « عبيدالله المهدى » مؤسس الدولة الفاطمية الذى جهر بالدعوة ، وخرج بهم من « دور الستر » إلى « دور الظهور » عندما أحس القوة ، وصدق عهده رجال بايعوه على الاستشهاد أو النصر وأعلن قيام دولة الفاطميين الإسماعيليين — بعد أن مكن لها بالمغرب — « وقد سموا الباطنية أيضاً لاعتقادهم فى الإمام المستور ، أو لذهابهم فى التأويل بأن لكل شئ ظاهراً وباطناً ولكل تنزيل تأويلا[1] .

وقد دارت فى أذهانهم صورة الفيض الأفلوطينى فقالوا بوجود سبعة مظاهر يتجلى فيها العقل الكلى على سبعة من الروحانيين ، وقد ختم النبى

(١) ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٠٨

(صلى الله عليه وسلم) دورة الأنبياء ، وبدأت الدورة الثانية به أيضاً وانتهت بالإمام السابع ، ثم انتهى دور هؤلاء السبعة ، وبدأ دور السبعة المستورين

وقد بدأ الإسماعيليون يفلسفون عقيدتهم ، وساعدهم على ذلك ما قام به بعض أتباعهم من الموالى الذين درسوا الفلسفة من الدفاع عن المذهب والوقوف من دونه بالحجة ليتمكن من العقول والقلوب فاستمدوا من الفلسفة بعض نظرياتها واستخدموا ما تناقلوه عن نظم الحكم فى فارس فيما يتفق وتعاليمهم كما ساعدهم على ذلك أيضاً ما ترجم فى عهد المأمون وبعده من العلوم الفلسفية اليونانية والمشرقية .

وقد دارت مسألة الإمام أو الخليفة فى بحوثهم حتى اعتبرت أصلا تدور عليه تعاليمهم وقد أخذوا من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة ما صبغوا به مذهبهم على نحو يوافقه ويبرز خصائصه بحيث يثبت العقيدة ، ويقوى فى مواجهة المعتقدات الأخرى مقيدين بموضوع الإمامة فيما أخذوا وفيما ألفوا محاولين بذلك إثبات إمامة « المعصوم » وإظهاره بمظهر التجلة والقداسة وكأنهم قد تأثروا — إلى حد ما — بما عرفوا عن الحياة الفكرية التى كانت فى الإسكندرية وبرزت فى بحوثهم فكرة الفيض الأفلوطينى وتأثرت بها عقيدتهم كما سلف القول ، كما أخذوا عن الديانات الفارسية ورسوم العبادة ونظرة الفرس إلى « كسرى » ما يتفق ونظرتهم هم إلى الإمام المعصوم ذى القدس الأطهر ، وقد حاول دعاتهم بذلك أن يخدموا غرضهم بما أدخلوه فى الدين من تعاليم الفلسفة الهيلينية والأفلاطونية الحديثة وبعض الإسرائيليات وغير ذلك من الآراء القديمة قاصدين إلى إسباغ الفضائل كلها على الأئمة[1] من أهل البيت ولا بأس فى أن نلم ببعض هذه الأصول التى داروا حولها لنتمثل بعض خصائص المذهب ونستنتج غايات ماذهبوا إليه : فقد كانوا يعتقدون « أن الإمام له صلة روحية

بالله كصلة الأنبياء والرسل به (سبحانه) وأن الأئمة فى الأرض هم أركانها ودعائمها حتى لا تمتد بأهلها ، وهم حجة الله البالغة ، وأن أعمال الناس ستعرض يوم القيامة على النبى (صلى الله عليه وسلم) والأئمة تأويلا لقوله تعالى : (فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (اذ المؤمنون — فى رأيهم هم الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا شيئاً أعلمهم الله اياه ، وهم يعملون علم ما يكون ، وأنه لا تخفى عليهم خافية فى الأرض ولا فى السماء ، والملائكة يدخلون عليهم بيوتهم ، وتأتيهم بالأخبار وأن الأرض كلها للإمام ، وله من الغنيمة نصف الخمس .

فهم بهذه الأصول يسبغون على الإمام نوعاً من التقديس مادام يتلقى علمه من طريق الوحى من الله الذى يعده إعداده خاصاً من حين كان نطفه ، وما يزال يرعاه ، يعصمه من الذنوب ، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين ويطلعه على ما كان وما سيكون ، والاعتقاد بهذه الأصول جزء من الإيمان يفرق بين المسلم والكافر ...

وعلى الجملة فقد دارت بحوثهم وأصولهم حول مسائل أربع هى العصمة والمهدية ، والتقية ، والرجعة ، وليس بحثنا هذا مجالا لتفصيل القول فيها ومناقشتها ، وبحسبنا ما قدمنا ...

على أن القدعدة فى التأويل عندهم هى تطبيق ما يسموه « الأمثال والممثولات » فالله خلق أمثالا وممثولات ، فجسم الإنسان[2] مثل ، ونفسه ممثول ، والدنيا مثل والآخرة ممثول ، وأن هذه الأعلام التى خلقها الله تعالى ، وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل ، وأن قواها الباطنية التى تؤثر فى المصنوعات هى ممثول تلك الأمثال .

(١) انظر فى ذلك ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢١٩ فى تفصيل طويل .

(٢) المجالس المؤيدية : المجلس الثامن من المائة الثانية وعددها ثمانمائة مجلس كان يلقيها المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

وعلى هذا فظاهر القرآن مثل ، وباطنه ممثول ، والظاهر هو هذه المعانى التى يعرفها العامة وينطق بها المفسرون من علماء أهل السنة ، والباطن هو هذه المعانى التى يستخلصها الوصى والأئمة من أهل البيت خاصة دون سواهم .

وهذه النظرية – على الرغم من صبغتها الإسلامية والاستشهاد عليها من القرآن الكريم بضرب من التأويل – هى عند دارسى الفلسفة نظرية المثل الأفلاطونية المشهورة أدخلوها فى عقيدتهم بعد أن غيروا فيها تغييراً يتفق وتعاليمهم وعقيدتهم ذات الصبغة الإسلامية ..

وتقتضى نظرية (المثل والممثول) السابقة أن يكون العالم الأرضى ذا شقين أحدهما جسمانى ظاهر ، والآخر روحانى باطن يماثله . وكل خصائص (العقل الأول) الذى يتجلى على الإمام جعلت له فيثبت للإمام ما ثبت للعقل الأول . وإذا كان الله سبحانه فى نظر الإسماعيلية منزها عن الصفات والأسماء فإن هذه الصفات والأسماء المعروفة هى « للعقل الأول » وعليه فهى صفات وأسماء الإمام أيضاً ، وفى ضوء هذا التفسير نستطيع أن نفهم ما اتهموا فيه بالمغالاه ، أو الكفر – وما هو كذلك – فى مثل قول ابن هانىء يمدح المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ومن المعلوم أن ابن هانىء كان مطلعاً على تعاليمهم ، وعالماً بأصولهم ، وداعية لهم ..

وقد ظهر أثر الفلسفة واضحاً فى التشيع كما نرى ذلك فى العهدين الفاطمى والبويهى حيث كانت حركة فلسفة المذهب فى نشاطها الواسع ، وكان طبيعياً أن يستجيب كثير منهم لهذا المزج تأييداً لمذهبهم ، ورداً على المخالفين والمناوئين ،

وإقناعاً للمنكرين والمتشككين ، ورأينا من المصريين من قبل هذه الأفكار وتأثر بها ، وخاصة فى الشعر الذى مدحوا به سواء فى ذلك من مدحهم متعرضاً لبيان هذه الأصول ومشيدا بالأئمة المصطفين الأخيار ، وشارحاً مذهبهم مستعملا مصطلحاتهم عن عقيدة وإيمان بما كان يقول كالشاعر الشيرازى ومن مدحهم راغباً أن يعظم حظه من النوال كما نرى ذلك واضحاً فى شعر عمارة اليمنى وظافر الحداد الإسكندرى وغيرهما ممن جروا على سنتهما لبلوغ الهدف المادى . . ثم كان من المصريين من ناصبهم العداء وأعلنها حرباً كلامية عليهم كما قال بعضهم منكراً عليهم نسبهم إلى على ، فكتب على بطاقة هذين البيتين :

إنا سمعنا نسبا منكرا   يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا   فاذكر أبا بعد الأب الرابع

وجعلها على المنبر ليقرأها الخليفة العزيز بالله . .

وكما قال الآخر فى الحاكم أو فى العزيز

بالظلم والجور قد رضينا   وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيب   فقل لنا كاتب البطاقه

وقد شجع على ذلك ما أسرفوا فيه القول ، وما أتيح للناس فى عهدهم من حرية الاعتقاد فى بعض الأحيان ، كما أن المذهب السنى كان قوى الجذور فى قلوب الناس فبقى ثابتا ناميا إلى أن أتيحت له الفرصة منذ عصر الخلفاء المستضعفين منهم فأعلن عن نفسه وأثبت وجوده بتشييد بعض المدارس كما فعل الوزير ابن السلار عندما أنشأ مدرسته السنية فى الإسكندرية وجعل عليها الإمام السنى الشهير الحافظ السلفى .

وعندما قضى صلاح الدين على الدعوة الفاطمية عمل على أن يحل المذهب السنى محلها مستخدماً فى ذلك القمع كلما أعوز الأمر ، والطرق السلمية بانشاء المدارس السنية التى لم يكن لمصر الإسلامية بها عهد من قبل وأحال مدارسهم الشيعية إلى مدارس تقوم على أصول المذهب السنى ناهجاً فى ذلك نهج نور الدين الذى سبق إلى بناء مدارس للحديث فى دمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن الكبيرة بالشام وكانت كلها تعلم المذهب الشافعى ومذهب أبى حنيفة فى الفقه ومذهب الأشعرى فى أصول الدين . وقد كان الأيوبيون أول من أحدث المدارس بالفسطاط [1] ، وكانت المساجد هى المدارس فى عهد الفاطميين . وكان صلاح الدين بهذه الخطة السلمية الحكيمة يقاوم سلطان المذهب الشيعى وينتزعه من النفوس عن طريق الفهم والاقناع والتنشئة على حب المذهب السنى ، والاقتناع به ، والدفاع عنه .

فكما كانت المكتبات والمجامع العلمية ودور العلم والحكمة وغيرها جزءا من الخطة التى دبرها الفاطميون لتشييع مصر أصبحت المدارس الأيوبية جزءا هاماً من الخطة التى وضعها صلاح الدين وقصد بها تعليم المذهب السنى ومحاربة العقائد الفاطمية وإثارة الحماسة الدينية ضد الفرنج فى الحروب الصليبية .:

وقد كان صلاح الدين — وخلفاؤه من بعده — على المذهب الذى دعا إليه « أبو الحسن الأشعرى » فى القرن الرابع ورد به على المعتزلة والمشبهة والرافضة وعنى فيه بالرجوع إلى الإيمان المطلق عن طريق القلب لا العقل وتنزيه الخالق سبحانه — عن التشبيه والتجسيم ، وإنكار القول بخلق القرآن وإثبات أن القراءة فقط هى المخلوقة ، وإمكان رؤية الله تعالى فى الدار الآخر وحدها ،

(1) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٦

كما خالف المعتزلة فى الوعد والوعيد ، والسمع والعقل ، وأن الله — سبحانه لا يجب عليه شئ إلا ما كتبه على نفسه وأنه — عز وجل — لا يتصور منه ظلم ألبتة ... وأن الواجبات كلها ورد بها الشرع ومصدرها السمع فلا يوجب العقل شيئاً ، وأن بعث الرسل جائز وليس بواجب ولا مستحيل ، وأن كرامة الأولياء حق ، وأن معاوية وعمر وبن العاص بغياً على الإمام الحق (« على بن ابى طالب » فقاتلهم دون هذا الحق.. .. الخ .

ولكن مذهبه لم يلق تشجيعاً فى أول الأمر حتى جاء (نظام الملك) الوزير الشهير فوقف نفسه لنصرة الأشاعرة وبنى « المدرسة النظامية » ببغداد لنشر هذا المذهب ، ووكل إلى « الغزالى » إلقاء المحاضرات فيها تأييداً له ورداً على المخالفين من المعتزلة والمتفلسفة ، وغيرهم ممن انتصروا لحرية الفكر فى مناقشة أصول الدين وتفسيرها تفسيراً عقلياً بحتاً على خلاف ما رآه الأشعرى من قبل ، وما ذهب إليه الغزالى أخيراً من الرجوع بالدين إلى الطريقة السمحة اليسيرة ، تعمر به القلوب ، ويصفو الوجدان ، ويخشى الناس الله أن يكون له شبيه أو أن يتحكم فى تصوره العقل ذو السلطان الأكبر عند المعتزلة فى بحث وسائل كثيرة عرضوا لها فى بحث أصول الدين والعقائد ...

ومنذ انتشر مذهب الأشاعرة بالعراق اتخذ طريقه إلى الشام ، فلما قيض الله لصلاح الدين فتح مصر ثم اتسعت رقعة مملكته فشملت ديار الشام كان هو وقاضيه « عبد الملك بن عيسى » على هذا المذهب ، نشأ عليه منذ كانا فى خدمة نور الدين بدمشق وامتد اعتقاد الناس عليه إلى ما بعد القرن السابع وبعد أن ظهرت العقيدة السلفية فى صورتها الأخيرة التى يمثلها تقى الدين بن تيمية المولود بحران سنة ٦٦١ هـ والتى كان يهدف من ورائها إلى غاية مزدوجة هى : رد عادية أعداء الإسلام بالسيف ، والعودة بالمسلمين إلى عقيدة التوحيد فى

صورتها السامية النقية والانتصار للسنة المحضة ومهاجمة المتفلسفين والأشاعرة على الخصوص .

وقد كان لمذهب الأشاعرة الذى انتصر له صلاح الدين وورثته من بعده أثره فى الحياة الفكرية بصفة عامة فوجدنا غلبة العلوم النقلية ، وسيطرة التصوف على الاتجاهات الدينية ، فاهتم به الأيوبيون وأظهروا العناية بالتصوف ورجاله ، وبنوا لهم الخوانق والربط والزوايا ووفروا لهم فيها كل أسباب الراحة ، وتركوهم للعلم والعبادة حتى كادت حركة بناء الخوانق تشبه حركة بناء المدارس فى أهدافها للقضاء على المذهب الشيعى وإثارة العواصف ضد الغزاة الصليبيين ، لعلمهم أن الشعب المصرى متدين بطبعة ، وأن للدين سلطاناً قوياً على النفوس[1] .

وقد عرف من المتصوفة فى مصر — فى العهد الفاطمى ابن الكيزانى الفقية الواعظ المذكر الذى قال عنه العماد « كان حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة ، مشهود له بألسنة القبول ...الخ[2] وهوأهم شاعر صوفى ظهر بمصر قبل الشاعر المتصوف الاشهر (ابن الفارض) وكانت الطائفة الكيزانية بمصر ذات اثر فعال فى الحياة السياسية وكان بعض الأئمة من الفاطميين يتوددون اليها ويرعون أمورها ...

ثم توالى ظهور المتصوفة والصالحين والزهاد بالديار المصرية إلى أن كان عهد الأيوبيين فشجعوا هذه الحركة ، وأقاموا للمتصوفة منشآت دينية متعددة ، واشتهر منهم فى العصر الأيوبى فى الإسكندرية — أبو الحسن الشاذلى

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والملوكى ص ٩٣ وما بعدها للدكتور عبداللطيف حمزة

(٢) جريدة العصر جـ ٢ قسم شعراء مصر ص ١٨

وتلميذه أبو العباس المرسى اللذان وفدا على الاسكندرية من تونس سنة ٦٤٢ واشتهرا بتعاليمها فى « الطريق » وقد كانت لهما شهرة ، وذكر حسن ، وأثر بالغ فى القلوب .

تلك خلاصة موجزة للمذاهب أو الاتجاهات الدينية التى سادت العصرين ومنها نرى هذا الصراع الذى تجلى بوضوح بين المذهبين الفاطمى والسنى الذى يعتبر فى أصله صراعاً سياسياً واتخذ الدين وسيلة لتحقيق أهداف معتنقيه فى السياسة والحكم ..

الحضارة فى عصرى الفاطميين والأيوبيين
أسسها ومظاهرها

شهدت مصر فى عهد الفاطميين حضارة راقية ، متعدده المظاهر ، قوية الأساس وافرة الحظ من الفخامة والضخامة والجمال ،وكانت وفرة خيرها وعظم ثروتها من أقوى البواعث على تشييدها على أصول من العلم والفن ، والتسامى بها إلى مرتبة تفوق حضارة العباسيين ببغداد أو تكون منها بمنزلة سواء ، حتى غدت مصر عنواناً على المدينة العربية والإسلامية المزدهرة فى هذا العهد ، ورمزا للاستقلال التام ، مرهوبة الجانب لفترة طويلة — من مبتدأ أمرها — بفضل ما كانت تملك من مال ورجال وسلاح وحسن إدارة وتنظيم .

ففى الإدارة أسس الفاطميون حضارتهم على دعامات من النظم الإدارية المحكمة الشاملة لكل ركن من أركان الدولة — وإن آثر « جوهر » فى أول الأمر أن يبقى على النظام الذى كان قائماً من قبل حتى يظهر له بالتجربة ما يراه صالحاً محققاً لأغراض الدولة الشيعية ، وأن ينهض بشئون البلاد أبناؤها إلى حين—ثم عمل على أن يشرك مع كل موظف مصرى آخر مغربياً للتدريب على أعمال الدولة ولتنتقل إليهم السلطة فيما بعد اطمئناناً اليهم وثقة فيهم خشية الانتقاض عليهم ، أو مناوأتهم . وقد اصابت هذه الخطة نجاحاً وتوفيقاً فى جذب كثير من الموظفين السنيين وغيرهم إلى المذهب الإسماعيلى طمعاً فى السلطة والحصول على الجاه ، وضماناً للعيش ، كما هو شأن الموظفين فى كل عصر وجيل .

ووضع الفاطميون نظاماً دقيقاً لحكم الولايات بحيث يقوم عليه أنصارهم المخلصون وشيعتهم المقربون ، وقد كان اهتمامهم بحكم الولايات أكثر من اهتمامهم بالحكم المركزى حرصاً منهم على توفير الأمن لهم ، وللناس وجلب الأموال من مصادرها بكل طريق .

وكانت مصر — فى عهدهم — تنقسم إلى أربع ولايات كبيرة أو أربعة أقاليم وإلى أكثر من عشرين كورة ، وكانت « الإسكندرية » مضافة إليها « البحيرة » الإقليم الرابع ، وكانت تلك الأقاليم مستقلة ولكنها تتصل اتصالا مباشراً بالحاكم المقيم فى القاهرة على رأس الحكومة المركزية على نظام شبيه بالحكم المحلى بعهدنا القائم .

وفى ترتيب هذه الولايات من حيث الأهمية تظهر مكانة الإسكندرية عندهم فهى الإقليم « الرابع » لولا أنها ثغر من أعظم الثغور ، فقد كانت الأولى (قوص) « فالشرقية » « فالغربية » وكان على القاهرة ما يشبه المحافظ اليوم ، كما كان على الفسطاط وال آخر لاتساع العمران وإبراز العناية بشئون العاصمة مقر الخلافة ومركز السلطان، ومهبط الوافدين والقاصدين من شتى الأقاليم والجهات .

وقد كانت مصر على حظ وافر من الخير بفضل هذا النهر الخالد المبارك الغدوات والروحات وهو الذى يعتبر — بحق — من أقوى عوامل النهضة وعناصرها البناءة فعمت به الخيرات وأخصبت الأرض وأينعت وأثمرت أطيب الثمرات . وجرت الأموال سائلة فى أيديهم ، ماثلة فى خزائنهم ينفقون منها ويبلغون حد الإسراف فى الإنفاق ، للظهور بمظهر الفخامة والجلالة والجمال فأعدوا الجيوش القوية ، وأجروا الأرزاق الوفيرة على الجند ليطمئن جانبهم من ثورة الأعداء ومناهضة المخالفين ، وليحققوا آمالهم الواسعة ، فى بسط نفوذهم على الشرق وتكوين امبراطورية فاطمية رفيعة المكانة مرهوبة الجانب عظيمة السلطان . فكثر عدد الجند حتى بلغ مائة الف أو يزيد ، من أجناس متعددة تؤلف بينها العقيدة الفاطمية والرغبة فى الحصول على مورد رزق لهم فكان منهم طائفة من المغاربة ، وهم الكثرة الغالبة ، ومنهم الفرق السودانية ، وجماعة

الصقالبة : أولئك الأرقاء الذين كانوا يشترون بالمال من بلاد الخزر وبعض بلاد آسيا الصغرى والبلقان ، وطائفة الأتراك ، والأخشيدية ، وطوائف أخرى متعددة الأجناس والألوان — ولكل طائفة قائدها الخاص .

ولعل فى تعدد اجناسها ما كان مصدر خطر على الدولة والقائمين على شئون الحكم فيها كما وقع فى ايام الخليفة « المستنصر » من فتن واضطرابات بين هؤلاء ، وآذن بزوال الدولة إلى جانب عوامل الفساد والضعف والانقسام وشهوة السلطان .

وأنفقوا من الأموال على الأساطيل أموالا طائلة حتى استطاع المعز — مثلا أن يجعل غربى البحر المتوسط بحيرة فاطمية ، تقف فى وجه الصليبيين والمتقصين أطراف دولته فيما يليهم من الجزر والأقاليم ولاعجب أن نراه ينتصر على أساطيل عبد الرحمن الناصر فى الأندلس ، وينتصر على الروم حلفاء الأمويين لذلك الحين بل إنه كثيراً ما هجم بأسطوله على بعض الأقاليم جنوبى إيطاليا عندما هب لمساعدة مسلمى جزيزة « كريت » ..

وبلغت عناية الفاطميين بالأسطول مبلغاً عظيما منذ برزت دولتهم إلى الوجود بالمغرب ، ثم ازدادت هذه العناية بمصر وقد توافر لديهم المال الكثير ، والإمكانيات الوفيرة ، فاتخذ المعز بعض المدن المصرية دوراً لصناعة السفن فأنشأ فى (المقس) دارا ضخمة لصناعة السفن كما أقام بالإسكندرية ودمياط دوراً أخرى لتزويد الأسطول بكل ما يحتاج إليه .

وقد وصف المقريزى عنايتهم بالاسطول قائلا « وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه

و كان لهم اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول ، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر ودمياط[1] .

وقد كانت الأسكندرية من أهم الموانى الفاطمية فى البحر المتوسط مما وفر العناية بها ، وتحصينها بكل وسائل القوة والتحصين .

ولاعجب أن يكون لمصر فى ذلك العهد هذا الجيش الكثيف ، وهذا الأسطول القوى فقد ساعد عليهما ماحفلت به خزائنهم من أموال ، وما غمرت به مصر من خيرات ، وما كانت تتمتع به من رخاء ، بفضل ماكان يقوم بها من تجارة نشيطة فى الداخل والخارج ، وزراعة باذلة كل خير بفضل نيلها العظيم ، وقد كان لمصر شهرتها الزراعية منذ أقدم العصور ، كما كانت الصناعة مصدر رزق واسع لجماعة كبيرة من الصناع والحرفين ، فنهضت صناعة غزل القطن ونسجه ، وهى الصناعة التى اشتهر بها المصريون فى الشرق الاسلامى ، ونحن لانزال على ذكر بقباطى مصر ومناديلها الذائعة الصيت .

وقد برع الفاطميون فى وسائل الدعاية لهم ولمذهبهم ، فأشعروا الناس بعظمة الحاكم وكرمه حتى يندفعوا إلى أكباره واجلاله ، والخضوع المطلق لسلطانه ، فكان أن ابتدعوا المواسم والأعياد وملئوها بكل مايمتع ويسر ويضفى عليها البهجة والجمال بما يفعله الخلفاء من مشاركة فى الاحتفاء بها وخروجهم فى مواكبهم الرائعة ، واتخذوا لذلك « المنظرة » يشرفون منها على هذه الاحتفالات ، وقد زادت عنايتهم بهذه المواسم والأعياد ، وأكثروا منها ، وافتنوا فى مظاهرها ومباهجها بما يخرج عن حد الاعتدال إذ اطلقوا فيها الحريات ، حتى كانت النساء يشاهدن سكرى متهتكات محمولات فى قفاف الحمالين مجتمعات مع الرجال[2] .

---

(١) الخطط جـ ٥ ص ١١٣ (٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٦٥

كما أنشأ الفاطميون كثيرا من المتنزهات البديعة كمتنزه (الهودج) فى جزيرة الفسطاط « الروضة » وهو الذى بناه الخليفة الآمر « لمحبوبته البدوية » « وبركة الحبش » التى افتن فى وصفها الشعراء .

وقد كان هذا تطورا ملحوظا فى حياة المصريين اعان عليه ما كان الخلفاء فيه من نعيم ، وما جرى عليه الوزراء من تقليد للخلفاء فى الظهور بمظهر الفخامة والجلال إذ اتخذوا الحاشية مثلهم واقتنوا الذهب والفضة ، والآثار الحسان ، وأدوات الترف ، ونفائس التحف مما عد من مآثر نعمتهم وفواصل متعتهم ، ودلائل على رقى الحضارة وعظمة الجاه والسلطان مما كان حديث الاجيال :

فقد روى المقرى صاحب نفح الطيب قصة من قصص هذا النعيم ، قال :

« وكان بالإسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن الحسن بن حديد ، له مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء» فيه أمداح كثيرة ، ومدحه ظافر الحداد ، وأمية أبو الصلت وغيرهما ، وكان له بستان يتفرج فيه ، به جرن كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماءفيبقىكالبركة من كبره وكان يرى فى نفسه زيادةعلى أهل التنعم والمباهاة فى عصر ه، فوشى به للبدوية محبوبة « الآمر » فسألت «الآمر فى حمل الجرن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد فى إحضار الجرن ، فلم يجد بدا من حمله من البستان ، فلما صار إلى« الآمر » أمريجعله فى (الهودج (. فقلق ابن حديد ، وصارت فى قلبه حزازة من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية وجميع من ياوذ بها بانواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة ، حتى قالت البـدوية : هـذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا

(٣) المصدر السابق ص ٤٨٧

قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا ، فلما قيل له عنها هذا القول ، قال : مالى حاجة — بعد الدعاء لله — بحفظ مكانها ، وطول حياتها غيررد السَّقية (الفسقية) التى قلعت من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمتهم ، ترد إلى مكانها ، فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : قد حصلت فى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك إلى قطعة حجر ،فقال : أنا أعرف بنفسى ، ما كان لها أمل سوى ألاتغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلغها الله تعالى أملها .

«وكان هذا المكين متولى قضاء الإسكندرية ونظرها فى أيام « الآمر ». وبلغ من علو همته وعظيم مروئته أن سلطان الملوك « حيدره » أخا الوزير المأمون بن البطائحى ، لما قلده الآمر ولاية ثغرالأسكندرية سنة ٥١٧ ه وأضاف اليها الأعمال البحرية ، ووصل إلى الثغر ، وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضى المذكور فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضى إلى داره لإحضار دهن الشمع ، فما كان أكثر من مسافة الطريق الا وقد أحضر حقا مختوما ففك عنه ، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف باور[1] فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر ، بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شئ مصنوع لوقته ، فعندما احضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك ، بالغ فى شكر إنعامه ، وحلف بالحرام أن عاد إلى مكانه، وكان من جواب « المؤتمن » وقد قبلته منك لا لحاجة اليه ، ولانظ. فى قيمته ، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها ، وذكران قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة «دينار» ،ويعلق المقرى على تلك القصة بقوله « فانظر — رحمك

(١) وعاء يخلط به أنواع الطيب

الله — إلى من يكون دهن الشمع عنده فى أناء قيمته خمسائة دينار ، ودهن الشمع لايكاد أكثر الناس يحتاج اليه ، فإذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش وغير ذلك من التجملات ، وهذا إنما هو حال قاضى الإسكندرية ، ومن قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ، وما نسبة أعيان الدولة — وان عظمت أحوالهم — إلى أمر الخلافة وأبهتها الا يسير حقير .

وهى تدل على مبلغ ماوصل اليه الولاة والقضاة فى الأسكندرية وغيرها من ثراء ورفاهية تجارى حال الخلفاء والوزراء مباهاة منهم ، وإدلالا بالنعمة وإعلانا عما وصلوا اليه من رقى وحضارة واحساس باللذة فى اقتناء التحف والطرف ، واعجاب بكل أثر فنى جميل ، وهى تشير إلى حال الإسكندرية ومبلغ حظها من الترف واليسر ، ولاعجب أن تكون كذلك ، إذ كانت سوقا رائجة بشتى أنواع المصنوعات ، وكان أهلها تجارا ذوى يسار وبسطة فى العيش ، وبنيانها قصور ذات بهجة وبساتينها أنيقة مختلفة الاشجار والثمار ، ومتحصلها من البحر وفير يفيض عليها الخير والنعيم ، ويجعلها على مستوى يليق بمكانتها من قديم . . . حدث ابن جبير — وقد زارها فى مطلع رحلته الأولى — قال إنا ماشاهدنا بلدا اوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقها فى نهاية الاحتفال أيضا ، ومن العجيب فى وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام وألواح كثيرة علوا واتساعا وحسنا مالايتخيل بالوهم .

ثم قال عن أهل المدينة : وأما أهل بلده ففى نهاية من الترف واتساع الأحوال ، لايلزمهم وظيفة ألبته ، ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسه المعينة من قبله بهذه الوجوه (وجوه التعليم والإنفاق على المعلمين والغرباء

(١) نفح الطيب جـ ٣ ص ٦٠ طبعة محيي الدين .

وإقامة المدارس والمحابس (وجزية من اليهود والنصارى) ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة[١] .

وكتب عنها القلقشندى نقلا عن ابن الاثير فى « عجائب المخلوقات » يقول : « وبها القماش الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وهى فرضة[٢] بلاد المغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام ، ويشرب أهلها من النيل من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلى داخلها ، واستعمال الماء لعامة الأمر من آبارها ، وبجنبات تلك الآبار والصهاريج بالوعات تصرف بها مياه الأمطار ونحوها ، وبها البساتين الأنيقة والمتنزهات الفائقة ولهم بها القصور والحواشن[٣] الدقيقة البناء المحكمة الجدر والأبواب ، وبها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حسنا مع رخص فى الثمن وليس بها مزارع ، ولا لها عمل واسع ، وإن كان متحصلها يعدل أعمالا من واصل البحر وغيره ، وهى اجمل ثغور الديار المصرية ، لايزال أهلها على يقظة من أمور البحر والاحتراز من العدو الطارق »[٤] .

ومن هذا تبدو حال مدينة الإسكندرية فى عمرانها المتسع ، واقتصادها القوى ، ورخائها العظيم وحضارتها المتعددة المظاهر والمفاتن مما يعد دليلا على مدى التقدم والتحضر حتى ليحسب القارئ أن هذه الاوصاف للمدينة فى عصرها الحاضر الزاهر ، بفضل ماكانوا ينعمون به ويحصلون عليه ، وبفضل موقعها الممتاز ، ومكانتها السامية السابقة .

(١) رحلة ابن جبير ص ٩ و ١٠
(٢) ميناء .
(٣) القصور
(٤) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٠٨

وهو يدل على مبلغ عناية القوم بها بحيث كانت على هذه الحال وهو
شاهد صدق على صحة ماتناقله المؤرخون عن النهضة العمرانية الواسعة التى كلف
بها القوم حيث بقيت آثارهم دليلا على فرط عنايتهم بالاخذ بأسباب الحضارة
والرقى فشادوا القصور الدقيقة الصنع المحكمة البناء البديعة النقوش . ولاعجب
فى ذلك فقد وثبت العمارة الاسلامية فى عهد الفاطميين وثبة قوية لان خلفاءهم
كانوا يتبارون فى انشاء المساجد والحصون والقصور والبساتين والمناظر ، وقد
عنوا بزخرفة وجهات المساجد وحليت بأدق الزخارف متأثرين بالفن الأندلسى
المعمارى وقد بقيت بعض هذه الآثار إلى اليوم دليلا على نهضة عمرانية أصيلة
أعان عليها ماكانوا فيه من رخاء ونعيم .

ولكن يد التعصب والتعنت المذهبى والسياسى قد امتدت إلى كثير من
هذه المنشآت المعمارية بمعول الهدم فأزالتها من الوجود .

وانتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر زهاء قرنين ، وخلفت
آثارها الحسان ذات الثروة الفنية الضخمة ، وبعد أن ضعفت الخلافة فيها
باستيلاء الوزراء على السلطة وتناحرهم فى سبيلها ثمانين عاما حاول فيها
صلاح الدين وخلفاؤه من بعده أن يقضوا على المذهب الشيعى وأن يزيلوا
آثاره ، وقد كان هذا هدفهم الكبير ، وكان طبيعياً ألا يغضوا الطرف
عن هذه المظاهر والآثار الدالة عليهم فأبطلوا كثيراً من أعيادهم ، وحولوا
مدلول بعضها الآخر وأبقوا على الباقى مما فيه منفعة عامة وخدمة ظاهرة تؤلف
من حولهم القلوب فى وقت هم فيه إلى وحدة الصفوف محتاجين ، ولم الشمل
وصفاء القلوب أشد احتياجاً إذ لايزال العدو المغتصب يرزح فوق أرضهم
ويمرح هنا وهناك محققا بعض الانتصارا ت فكان ان اتجهوا إلى تحقيق غرضهم
الأسمى : القضاء على الصليبين الذين أخذوا يهددون الشرق كله بالاستيلاء

عليه والقضاء على الإسلام ، والتحكم فى الأرض وثرواتها ، ومن أجل أن
يبلغ الأيوبيون هذا الهدف شغلوا بالحروب عن الأعياد والمواسم وإنشاء
القصور والمتنزهات واقتصدوا كثيراً من هذه المظاهر لتنفق الأموال كلها
فى الأعداد لهذه الحروب وتسليح الجيوش وإقامة المنشآت العسكرية كدور
السلاح والترسانات البحرية وتهيئة الشعب كله وإعداده إعداداً مادياً
وروحيا للوقوف صفاً واحداً تجاه العدو الذى يهدد البلاد . وقد أفادوا
مما رأوا عليه هولاء الأعداء من عدة وعتاد فقلدوا وابتكروا ، وانتصروا
عليهم أعظم انتصار :

وقد كان هذا شاغلا لهم عن الاهتمام بما أفرط فيه الخلفاء الفاطميون ،
وحسبهم أنهم أبعدوا عن البلاد الإسلامية والعربية خطراً داهماً كاد يقضى
على تاريخ أمة ذات حضارة عريقة ، وملك واسع ، ودين قيم .

فاذا لم ينشئوا قصوراً فقد أنشئوا مدارس تعلم المذهب ، وخوانق وربطاً
وزوايا تطيب بها القلوب العباد والزهاد والمتصوفة — وماكان أكثرهم
وما كان أعظم تأثيرهم فى النفوس وقيادتهم للجماهير — وإذا لم يحتفلوا بأعياد
كتلك الأعياد الفاطمية فأنهم قد احتفلوا — أو ربما كانوا قد احتفلوا —
بأعياد وطنية وحربية تخلد انتصاراتهم وتمجد البطولة ، على أنهم قد عنوا
بالأسمطة السلطانية ولم يغفلوا أمرها رعاية لجانب الفقراء ، وتأليفاً للقلوب .

وفى المدارس والخوانق والربط والزوايا ظهرت آثار معمارية تدل على
تقدم الحضارة فى هذا المضمار على مستوى لايقل روعة ، وازدهاراً
لما كانت عليه الحضارة المعمارية الفاطمية بتأثراتها المغربية والأندلسية ،
وزادوا هنا اهتماماً بصناعة الأخشاب ونقوش النحاس ، وصناعة الجص .

والزجاج الملون الذى زينوا به النوافذ ، واستخدموا الفسيفساء المذهبة فى تزيين المحاريب وشاع استعمال الرخام فى المبانى والتحف .

ولم ينس الأيوبيون الإسكندرية فقد أفاض عليها صلاح الدين من فضل رعايته وسجل التاريخ بعض مظاهر هذه الرعاية كالعناية بالأسطول ، فقد عمل على إنشاء أسطول ضخم قال عنه صاحب الروضتين نقلا عن ابن طى (ولما نوى السلطان المقام بالأسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ، فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليها ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه خير أصحابه ، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً ، وديواناً مفرداً ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول (قول) صاحب الأسطول ، وألا يمنع من أخذ رجاله ، وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر)[1] .

ومن مظاهر الرعاية أيضاً عنايته الفائقة وحدبه على الغرباء الوافدين وأهل العلم بالإسكندرية ، فقد أمر بتعهد أمورهم من حيث المسكن والمطعم والمداواة ، وأجرى عليهم الأرزاق الدائمة ، وأنفق خمسة أثمان موارده منها على هذه الوجوه وعلى إقامة المدارس والمجالس كما يقول ابن جبير الذى شهد الإسكندرية فى القرن السادس ووصف بعض ما رأى مشيداً بمآثر صلاح الدين

(1) الروضتين جـ ١ ص ٢٦٩ — رحلة ابن جبير ص ١١

قائلا : « وهذا السلطان الذى سن هذه السفن المحمودة ، ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدلها فى المدة البعيدة هو هذه السفن المحمودة ، ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدلها فى المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب — وصل الله صلاحه وتوفيقه — فمآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ومقامه الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة [1] .

وقد كثر الوافدون على الإسكندرية من الأندلس وشمالى أفريقيا ، وكانت لهم منزلة سامية فى نفوس أهلها لا تدانيها منزلة لأنهم كانوا يرون فيهم ما يرونه فى المجاهدين فى سبيل الله . وكانوا يعتبرونهم من أبطال المسلمين لأنهم قد صاروا إذ ذاك على مثل الحال التى كانوا عليها من تربص الأعداء بهم وتحينهم الفرصة للاستيلاء على ديارهم فجمعتهم وحدة الشعور والمصير ، ومن أجل ذلك كان أهل الأسكندرية أنصار هؤلاء المهاجرين ، وكانت الأسكندرية دار هجرة لهم فأووا منها إلى جنة ذات قرار مكين ، ونصرة وعلم ورزق كريم ، إلى جانب من وفدوا عليها متاجرين أو حاجين .

وعلى الرغم من قصر مدة حكم الأيوبين — وقد طالت الحروب من قبلهم ومن بعدهم حتى بلغت ما يقرب من قرنين — وعلى الرغم من توجيه هممهم وصرف كل طاقاتهم لمقاومة الغزو الصليبى فلن يغض من مكانتهم فى مضمار الحضارة أنهم لم يتساموا إلى المدى الذى بلغه الفاطميون .

ومهما يكن من شىء فلن نستطيع أن نغفل ما بذله الشعب من دمه وماله وراحته فى سبيل تشييد هذه النهضة العظيمة وإقامه صروحها بعرق جبينه

(1) الروضتين جـ ١ ص ٢٦٩ — رحلة ابن جبير ص ١١

وفواصل خيراته ، حتى مكن للفاطميين أن يستمتعوا بكل ما اشتهته أنفسهم وقرت به أعينهم ، وحتى مكن للأيوبيين من القوة والمنعة ، حيث أعانهم على تكوين جيش عظيم صمد فى معركة الشرف والدين وثبت لمقاومة الصليبيين حتى نسخ ظلهم الكثيف من الشرق ، على الرغم مما تعرض له من محن وخطوب ومجاعات وسنى قحط أكلت لحمه ودقت عظامه ، وهو صابر مثابر . فانه فى سبيل الله ما لقى ، وفى سبيل الله ما ضحى :

الثقافة والحركة العقلية

فى عصرى الفاطميين والأيوبيين

بسطت الدولة الفاطمية سلطانها الواسع على مصر ، وكان الرخاء والترف الذى نعموا به سبباً فى رقى العلوم والفنون ، والأخذ بأسباب نشاطها ، وإمدادها بالوقود الذى أشعل جذوتها الخالدة ، فكان أن انبثقت هذه النهضة العلمية والفنية وقامت على أصول ثابتة من ثقافة أصيلة منوعة تلقفت آثار الأولين ، وتمثلت أو هضمت ما بلغت به من غذاء فكرى ورد إليها من الشرق والغرب منافسين بذلك بغداد ، وعاملين على أن تكون مصر القاهرة صنو بغداد العباسية . فتفجرت لذلك ينابيع الثقافة فى العلوم العربية والإسلامية والمذهبية ، وغمرت الأرض الطيبة بشتى ألوان المعرفة نبت النبت الصالح وأزهر وأثمر فى العلوم والفنون والآداب بفضل ما لقيه من تعهد الخلفاء له بالرعاية والعناية والتشجيع كما فعل المعز والعزيز والحاكم الذين عملوا على مساماة الرشيد والمأمون وسيف الدولة ، ومساماة الدولة العباسية بدولتهم الفاطمية فكانت عنايتهم واهتمامهم بفربوع المعرفة ، وكان أن شادوا دور العلم والحكمة ومجالس العلماء ، وعمروا المساجد بأساتذة العلوم والطلاب الذين يفدون إليهم من كل سبيل ، وجعلوا القصور مجامع علمية تدور فيها المناقشات ، والمطارحات ويحتد الجدل أحياناً ، وينشط للبحث العلماء .

وكانت نهضتنا العلمية شاملة ألوان المعرفة السائدة فى ذلك العصر من علوم عربية كاللغة والنحو ، وإسلامية كالفقه والعقائد ومذهبية من شيعية وسنية وقد نهض بالفقه الشيعى علماء المذهب المتخصصون الذين عملوا على الإشادة به وتركيزه ومقاومة الفقه السنى به كما نهض السنيون يدافعون أحياناً ويهاجمون

أحياناً أخرى فى حرية أتيحت لهم – ما استساغ الأئمة إباحتها فى حدود رسموها – كما نهض رجال بالتاريخ والعلوم العقلية : كالفلسفة ، والجبر ، والطب والكيمياء ، ونبغ منهم من طبقت شهرته الآفاق كالمسبحى ، والقضاعى ، والتميمى ، وابن سلان ، وابن سليمان ، وابن الهيثم ، وأبى الصلت أمية الأندلسى الوافد على مصر فى ذلك العهد ، وابن النحاس وابن بابشاذ ، ومحمد بن عبد الله (حافى رأسه) الإسكندرانى .

وكان معتقدهم الدينى سبباً فى إذكاء جذوة الخلاف والجدل العلمى فنشطت العقول للبحث والتأليف ، وكان هذا النشاط العقلى الكبير باعثاً على إقامة دور العلم ، ومجالس الدعاة فى القصور والمساجد وبيوت الوزراء والكبراء .

وكان الفاطميون يذهبون فى تأييد معتقدهم الدينى مذهب المعتزلة فى الدفاع عن الدين الإسلامى يستعينون على ذلك بالفلسفة والعلوم العقلية التى تبرز الدليل وتوضح البرهان ، وترسخ العقيدة وتدفع الشكوك والتهم ، وكان هذا سبباً فى تشجيعهم لدراسة الفلسفة ، كما كانت الفلسفة سبباً فى ظهورهم بمظهر الذين يتيحون للحرية الفكرية أن تنمو وتتجه حيثما تشاء ، فرأينا تسامحهم الدينى مع اليهود والنصارى ، ومخالفيهم من أهل السنة ، حتى بدوا غير متعصبين لجنس أو دين ، إلا إذا أحسوا غضبة الشعب لإيثارهم اليهود أو النصارى فى شغل منصب يمكن أن يقوم به سواهم .

ولم يضطهدوا أهل السنة إلا فى عهد الحاكم لاضطراب حبل الأمور بيديه بسبب اضطراب فى عقله ، وخلل فى وجدانه ، والحق أن الفاطميين – على الرغم من ذلك كله – قد نشروا دعوتهم وعملوا على تركيزها فى القلوب والعقول بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، وبالتشكيك فى المذهب السنى ربما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وبالتمكين لأوليائهم فى العقيدة وأحقيتهم أن

يحكموا ويتولوا أسمى المناصب ، وقد كان من الناس من آمن بما جاءوا به ، ومنهم من صد عنه ، حتى حان الوقت الذى خفت فيها حدة الدعوة للمذهب منذ عصر المستنصر سنة ٤٢٧ هـ . فقد عادت للناس حريتهم فى اعتناق العقيدة التى يرتضونها لأنفسهم ، والمذهب الذى ألفوه وقاموا عليه منذ حل الإسلام ببلادهم ديناً يملأ قلوبهم وعقولهم أمناً وعدلا وحقاً ، ولعل هذا الفتور فى الدعوة والانصراف عنها ، وإقامة الناس على مذهبهم العتيد ، لعل ذلك كله قد مهد السبيل لصلاح الدين أن يقوض أركان الدولة التى أخذ السوس ينخر عظامها بعد أن صار أمر الخليفة إلى ضعف ، والحكام فى اختلاف ، وبعد أن شاعت الفتنة واضطرب حبل الأمن أصبح الناس – ذات يوم أو ذات ليلة ، وقد شهدوا غروب دولة وشروق أخرى تنزع بهم منزعاً آخر فى السياسة وأساليب الحكم وتنتهج مسلكاً آخر فى الدين : فتدين بمذهب أهل السنة وتحبذ مذهب الشافعى وتعتنق آراء الأشعرى ، وتنهض بالأمور فى قوة وسداد نظر وحكمة ، وتنهض بالعلم وتشجع العلماء وتشيد المدارس – لأول عهد مصر بها – وتقيم المجامع العلمية ودور الكتب على النهج الذى جرى عليه الفاطميون فى نشر الدعوة الفاطمية وأصبحت المدارس « الصلاحية » عنصراً أصلياً فى مقاومة هذه الدعوة والتمكين للمذهب السنى ، فنشطت الحركة العلمية وإن كانت فى الغالب تتجه إلى المنقول ، وجد صلاح الدين ومن جاء بعده من خلفاء فى تقوية هذا الاتجاه ، والاعتماد على رجال الدين فى توجيه قوى الشعب إلى الهدف الأسمى إلى مقاومة الصليبى ، وتكتيل الجموع ، وحشد الجهود لرده على أعقابه خاسئاً خاسراً ذليلا ، وكان سلطانهم قوياً على نفوس الجماهير .

وكان عمل صلاح الدين لبناء المدارس فى القرن السادس يعتبر فتحاً جديداً فى نظام المدارس وطريقة الانتفاع بها لتؤدى دورها التعليمى والاجتماعى

مقلداً فى ذلك السلاجقة والأتابكة الذين أخذوا منذ حين يدافعون عن المذهب السنى والأخذ بيده لمقاومة المذهب الشيعى ، وبهذا أصبح صلاح الدين مبتدعاً فى نظام التعليم الذى بعد — بحق — الموسس الحقيقى له فى مصر . على الرغم من أنه قد تأثرت مصر — وبخاصة الأسكندرية — بحركة ترمى إلى الرجوع إلى المذهب السنى منذ أسس وزير من وزراء مصر فى عهد الخليفة « الحافظ » مدرسة شافعية بالإسكندرية سميت بالمدرسة الحافظية عام ٥٣٢ هـ ، وبعد هذا بأربع عشرة سنة أى فى عام ٥٤٦ هـ أسست فى المدرسة نفسها مدرسة أخرى على يد وزير فاطمى هو ابن السلار فى « عهد الظافر » مما يعتبر تمهيداً لعودة المذهب السنى وابتداء لما نهض به صلاح الدين فيما بعد .

وذهب هباء أثر ما شيده الفاطميون ، وما أتقنه دعاتهم من وسائل الدعاية المذهبية من إقامة المساجد ودور الكتب وندوات القصور — وكانت المساجد مدارسهم ومجالس قضائهم والمكان الذى تذاع منه الأخبار الهامة ، وكانت القصور منتدياتهم العلمية ومجالس البحث والمناظرة ، وعاد الأزهر ليؤدى مهمته — لا فى نشر الدعوة الفاطمية — بل فى المشاركة فى النشاط العلمى الذى أخذت تنهض به الدور العلمية الأخرى فى تحقيق أهداف صلاح الدين والعودة بالناس إلى مذهبهم القديم مذهب أهل السنة أو الجماعة .

وعلى الرغم مما حفلت به دور الكتب وخزائن القصور التى وصفها المقريزى (١) . وصفاً دقيقاً شمل كل ماكانت تحويه من كتب فى اللغة والفقه الأمامى والعلوم القديمة فان هذا كله قد امتدت إليه الأيدى الباغية بالسرقة والسلب والإحراق ، وذهبت مع الريح السموم التى عصفت بها حتى لم تبق منه ولم تذر .

(١) الخطط ج ١ ص ٤٧١

والحق أن ما حدثنا عنه التاريخ من عدد الكتب التى كانت تحتويها « دار الحكمة » والتى كانت فى قصر الحاكم إلى غيرها من الدور والقصور والخزائن ليدل على عظم الاهتمام بناحية لها كان الأثر القوى فى الثقافة والبحث العلمى فى ذلك العصر مما راح فى زوايا الإهمال ، أو عبثت به أيدى الجهال ، أو سلب ونهب استرداداً لحقوق مهضومة .

ولكن الدور الذى قام به صلاح الدين — وكان شديد الكلف مثلهم فى العناية بالعلم واثابة العلماء — هون من أمر هذه الخسارة العلمية ، فقد روى عنه أنه كان ذواقة للأدب ، بصيراً بثقافة العصر ، حريصا على شهود مجلس العلماء من أمثال السلفى وابن عوف فقد حدث العماد قال : وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر احمد بن محمد السلفى ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام - وكان يصطحب أبناءه متنقلا بين مصر والاسكندرية ، ليغتنم على حد قوله — حياة الإمام السلفى أو حياة غيره من الأئمة المعروفين كالشيخ أبى طاهر بن عوف الذى سمع عليه موطأ مالك براوية الطرطوشى — . ومات صلاح الدين وخلف ابنه العزيز عثمان فعرفت عنه أنه سمع بالاسكندرية الحديث عن الحافظ السلفى ، والفقه عن ابن عوف — ، وكانت عناية بعض سلاطين بنى أيوب بالفقه أتم لأنهم كانوا يكلفون أنفسهم الجلوس فى مجلس القضاء - أحيانا — كما كان يفعل كبيرهم صلاح الدين . وتلا ذلك عنايتهم بالحديث ، ثم كانت العناية أيضا بالعلوم المتصلة بالدين كالتفسير والفرائض والقراءات والأصول وغيرها من مواد الثقافة الإسلامية الخالصة وكان النحو والبلاغة

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٦٨
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٢٤
(٣) شفا القلوب ص ٨٠

عنصرين مهمين لهذه الثقافة وكذلك كان الأدب ، لأنه يعين على فهم الدين ، ويساعد على تكوين ذوق لغوى يعين على تذوق أساليب القرآن والوقوف على وجوه البلاغة والإعجاز ، وأسرار الأحكام فيه ، ونبغ فى ذلك رجال مثل « ابن دقيق العيد » فى قوص و« ابن المنير » فى الإسكندرية .

وقامت بمصر نهضة علمية فى بيئات ثلاث كانت الإسكندرية إحداها .

بيئة الإسكندرية

كانت الإسكندرية ثالثة ثلاث مدن اشتهرت بالحركة العلمية والأدبية هى : القاهرة ، وقوص ، والإسكندرية .

وقد زارها ابن جبير ورأى معالم هذه النهضة العلمية وحيا القائمين عليها ، وامتدح صنيعهم فقال عن الاسكندرية بعد أن أعجب بحسن موقعها ، واتساع مبانيها ، واحتفال أسواقها وعجيب منارتها : (ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحابس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، واجراء يقوم به فى جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم « مارستانا » لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ... الخ .—

ثم قال : « وهى أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقل ، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقل ما دون ذلك .

ونقل القلشقندى فى صبح الأعشى عن ابن الأثير فى « عجائب المخلوقات » قوله : (ويقال إن مساجدها أحصيت فى وقت من الأوقات فكانت عشرين

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٠

(٢) المصدر السابق .

ألف مسجد ، وبها الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والربطة والزاويا والحمامات والديار الجليلة . . . الخ . .

وقد سبق أن ذكرنا أن حركة صلاح الدين التعليمية فى تشييد المدارس قد سبقت بقيام مدرسة سنية أنشأها ابن السلار فى خلافة الظافر وهى التى كان يذهب اليها صلاح الدين وأولاده لسماع الحديث من امامها الحافظ السلفى ومن أجل ذلك نرجح أن بيئة الإسكندرية لم تكن بحاجة - كغيرها من البيئات المصرية الأخرى - إلى بذل مجهود كبير لتتحول إلى المذهب السنى وتترك المذهب الشيعى - على الرغم مما ذكره المقريزى من أن « المذهب الشيعى ظهر بها قبل أن يظهر فى سائر البلاد الشرقية - .

ولعله من أجل هذا التحول السابق ، ومن أجل الكراهية الأصيلة للصليبيين رحبت الاسكندرية بصلاح الدين غازيا مع عمه أسد الدين شيركوه : وأعانته بالأموال والعتاد والرجال حين ضيق عليه الحصار وهو فيها يحارب الصليبيين « وشاورا » ويبعدهم عنها - دون جدوى - فقد غلبوه على أمره وكان ذلك أثناء الحملة الأولى على مصر حتى لقد يئس صلاح الدين نفسه من دخول هذه البلاد وآلى على نفسه إذا هو عاد إلى دمشق ألا يعود اليها ، ومع ذلك فقد اضطر إلى أن يصحب عمه شيركوه فى حملته الأخيرة عليها . وكان من أمره ما كان من بلوغه مرتبة الوزارة فى عهد العاضد الفاطمى ، ثم ما قام به من إزالة دولة الفاطميين واقامة الدولة الأيوبية على أنقاضها .

---

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨

(٤) اتعاظ الحنفا للمقريزى ص ٦٢ تحقيق الشيال نقلا عن ابن خلدون فى تاريخه ج ٤ ص ٣١ - ٣٣ ، ٣٨ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١

وكانت الحركة الدينية فى المدينة أبرز مظاهر الحياة العقلية فيها ، فحركة بناء المساجد التى بدأت منذ الفتح العربى فى الاسكندرية حتى بلغت هذا العدد الضخم فى عهد الفاطميين والأيوبيين كانت مظهراً للاهتمام بدور العبادة لتؤدى وظيفتها الثقافية والاجتماعية ، ففى دائرة المعارف الإسلامية أنه : (قد كان بها مصلى كالموجود بالفسطاط إلا أنه آل إلى السقوط بعد الفتح بعدة قرون ومسجد ينسب إلى عمرو بن العاص يشك فى أنه يقوم نفس المكان الذى يقوم عليه الآن مسجد عمرو ، والمسجد الغربى أو المسجد السبعينى ويعرف أيضا بمسجد الف عمود وعمود وقد كان ديراً . . ويظهر أنه حول مسجداً فيما بعد ، وهناك مسجد كبير شيده بدر الجمالى عام ٤٧٧ هـ . وقد يكون هذا المسجد هو المسجد المعروف الآن بمسجد العطارين [1] .

وهناك من يقول : (إن هذا المسجد من أقدم مساجد الاسكندرية - وكان قائما فى سوق العطارين فعرف به غير أن عوادى الزمن اعتدت عليه فخربته ، وقد زار بدر الجمالى وزير المستنصر مدينة الاسكندرية فرأى هذا الجامع خربا فأمر بتجديده وأشار إلى ذلك فى لوحة تاريخية لم يسبق سواها من المسجد القديم ، ولما كان هذا المسجد حرما كبيراً لمدينة الاسكندرية ومن أكبر مساجدها فقد نقل صلاح الدين الخطبة لمنه إلى مسجده الذى أنشأه بالاسكندرية سنة ٥٧٧ عملا بخطته فى مكافحة الفاطميين [2] .

وقد كان هذا الجامع مركزاً ثقافياً عرف بالجامع الجيوشى (نسبة إلى أمير الجيوش الذى جدده) وبجامع العطارين ، وقام بالتدريس فيه علماء أجلاء ومتصوفة مشهورون كأبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى نزيل الإسكندرية عام ٦٤٢ هـ ؟

---

(١) ص ١٣٢ المجلد الثانى .

(٢) تاريخ المساجد الأثرية لحسن عبد الوهاب ص ٦٧

وقد شيد فى عهد ابن طولون — من قبل — مسجد على جزيرة فاروس
اما المساجد القديمة فهى : مسجد موسى القريب من المنارة ، ومسجد سليمان
والخضر ودانيال الذى لا يزال قائماً إلى الآن ، ويظن انه فاطمى لشواهد فنية
تنبه إلى عهدهم — ومسجد ذى القرنين أو الإسكندر ، ومسجد الرحمة وهو
فى المكان الذى أوقف فيه عمرو بن العاص القتال عند دخوله الإسكندرية
للمرة الثانية[1] .

هذا ، وقد أحصى السيوطى فى «حسن المحاضرة»[2] عدد من كان بها من
علماء الحديث والفقة وزهاد الصوفية وأئمة النحو واللغة وأرباب المعقولات
وعلوم الأوائل والحكماء والأطباء ، والمنجمين ممن عاصروا الدولتين الفاطمية
والأيوبية مما يدل على نشاط الحركة الفكرية فيها على اختلاف فروع العلم
وألوان الثقافة — وان كان الاتجاه الدينى هو الغالب .

ومن علماء الحديث — بل رأس الحفاظ فى العصر — المحدث السلفى : وهو
أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى من أهالى أصبهان وكان يلقب بصدر الدين
وكان إماماً حافظاً متقناً ناقداً ثبتاً ، ديناً خيراً ، انتهى إليه علو الإسناد ، وكان
أوحد زمانه فى علم الحديث ، غزير العلم ، شافعى المذهب ، رحل إلى بلاد
كثيرة وطاف الافاق ، ودخل ثغر الإسكندرية سنة ٥١١ هو كان قدومه اليها
من البحر قادماً من مدينة صور بالإسكندرية وقصده الناس من الأماكن
البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ، والتقى بابى حامد الغزالى بها وتناقشا فى
مسائل عديدة وقد روى صاحب طبقات الشافعية أنه لم يخرج من الإسكندرية

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، وكتاب الأشارات الى معرفة الزيارات للهروى (أبي بكر) ص ٤٧ فى الحاشية .

(٢) حسن المحاضرة ص ١٤٨

التى أقام بها أربعاً وستين سنة إلا مرة واحدة سنة ٥١٧هـ إلى مصر فسمع من أبى
صادق المدينى والموجود بها وعاد[1] . وفى سنة ٥٤٦ بنى له العادل على بن إسحق
ابن السلار وزير الظافر مدرسة بالإسكندرية وفوضها إليه ، وكان ابن السلار
سنياً شافعى المذهب أيضاً وسميت المدرسة باسمه (المدرسة العادلية) .

وكان السلفى عامة دهره ملازماً هذه المدرسة ، دائم الاطلاع ، آمراً
بالمعروف ناهياً عن المنكر مغرماً بجمع الكتب وقد من تزوج من الإسكندرية
امرأة غنية فأصاب النعيم بعد الفقر ، وصارله بالإسكندرية وجاهة وذكر ،
أما كتبه وأماليه فكثيرة لعل من أشهرها معجمه الذى لايزال مصوراً عن
مخطوط (وقد وقفت عليه ونقلت عنه أخباراً واشعاراً سأذكرها فى مكانها
من هذا البحث وكانت للسلفى بعض مقطعات من الشعر الذى ينسب إلى العلماء
ومن ذلك قوله وقد كبرت سنه

أنا إن بان شبابى ومضى ... فلربى الحمد ، ذهنى حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمى ... كبرا ، غصن علومى ناضر

وكانت وفاة السلفى بثغر الإسكندرية فى الخامس من ربيع الآخر سنة
٥٧٦ هـ ودفن فى مقبرة عند الباب الأخضر فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشى
وغيره بعد أن عمر طويلا — رحمه الله — .

ومن رجال الحديث ذكر السيوطى عدداً كأبى الحسن على بن المفضل ،
وأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الديباجى ، وابن موقا ، وابى عبدالله الرازى
وعبد الرحمن الرومى بن باقا ، وعبد الرحمن بن عبد الجبار العثمانى الإسكندرانى
التاجر المحدث عن السلفى ، والقاضى الشريف الديباجى المعروف بابن أبى

(١) طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٥

العباس ، وكان واسع الباع فى علم الحديث كثير الرواية ، قيما بالأدب متصرفاً فى النظم والنثر على ما ذكر العماد فى خريدته(1) .

وذكر السيوطى من أئمة الفقه على المذهب المالكى الذى غلب على أهل الإسكندرية تأثيراً بالوافدين من المغرب — أبابكر الطرطوشى : وهو محمدبن الوليد الفهرى الأندلسى نزيل الإسكندرية وأحد الأئمة الكبار رحل وسمع ببغداد وكان إماماً عالماً زاهداً ورعاً متقشفاً له تصانيف كثيرة منها « سراج الملوك » وسنتعرض له بالحديث فى موضعه من الأدب التهذيبي الذى شاع فى هذا العصر وكتب فيه الكتب جمع من العلماء فى مصر والشام . كما سنتعرض للطرطوشى كأديب له شعر مأثور .

والطرطوشى أندلسى من «طرطوشة» على مائة ميل من بلنسيه الشهيرة .

ومنهم سند بن عفان تلميذ الطرطوشى ، وصدر الإسلام أبو الطاهر إسماعيل ابن مكى الإسكندرانى الذى قصده صلاح الدين وسمع منه الموطأ ، فقد [اشتهر أن صلاح الدين رحل فى طلب الفقه والحديث، روى صاحب الروضتين عن العماد قوله (وتوجه السلطان بعد شهر رمضان سنة ٥٧٧ إلى الإسكندرية [عن طريق البحيرة ، وخيم عند السوارى ، وشاهد الاسوار التى جددها ، والعمارات التى مهدها وامر بالاتمام والاهتمام ، وقال السلطان : لنغتنم حياة الشيخ الإمام ابى طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضى الله عنه — رواية عن الطرطوشى فى العشرة الأخيرة من شوال ، وتم

(1) الروضتين عن العماد ج ١ ص ٢٦٩ وما بعدها .

له ولأولاده ولنا به السماع والوالى يومئذ فخر الدين قراجا — قلت ووجدت للقاضى الفاضل كتاباً كتبه إلى السلطان يهنئه بهذا السماع ، يقول فيه .

«أدام الله دولة المولى الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين محيي دولة امير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخيرَ إليه ، وأوصله إليها ، وأوزع الخلق شكراً لنعمته فيه فإنها نعمة لا نصل إلى شكرها إلا بايزاعه ، وأودع قلبه نور اليقين فانه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه ، ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، وما منها إلا اغر محجل ، والحمدلله الذى جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ، ففى الأول يطلب حديث المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فيجعل أثره عيناً لا تستر ، وفى الثانى يحفل لنصره شريعة هداه على الضلال ، فيجعل عينه أثراً لا يظهر ... ... إلى أن يقول : هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره ، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر ، فما القول فى ملك خواطره كأبوابه مطروقه وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة ..)

ومنهم أبو القاسم بن مخلوف المغربى ، والحضرمى قاضى الإسكندرية وابن الصغراوى جمال الدين الإسكندرانى المالكى الفقيه المقرى .

وذكر من علماء القراءات بالثغر عبد الرحمن بن أبي بكر عتيق بن خلف الذى انتهت إليه رياسة الإقراء بالإسكندرية ، قرأ العربية على ابن بابشاذ والحسن بن خلف القيروانى ، وعبد الرحمن بن خلف الله الإسكندرانى واليسع بن حزام الغافقى الأندلسى الجيّانى رحـل وسكن الإسكندرية وأقرأ بها، ثم رحل الى مصر فكرمه صلاح الدين.. وغيرهم كثير. ومن النحاة

محمد بن عبدالله (حافى رأسه) الإسكندرانى . ومن علماء المعقولات القاضى الرشيدى وأبو الصلت أمية الأندلسى .

وذكر من كان بها من الصلحاء وزهاد الصوفية كأبى القاسم بن منصور ابن يحيى المالكى الإسكندرانى المعروف بالقبارى أحد العباد الزهاد المشهورين بكثرة الورع والتحرز والانقطاع وقد توفى بظاهر الإسكندرية سنة ٦٦٢ ، والشاطبى الزاهد نزيل الإسكندرية أبى عبد الله محمدبن سليمان المغافرى كان أحد المشهورين بالعبادة ، وابن النعمان عبد الله محمد بن موسى النعمان التلمسانى والشيخ أبى العباس المرسى بن عمر الأنصارى رأس أصحاب الشيخ ابى الحسن الشاذلى .

ومن هذا الإحصاء الذى لم يكتمل تبدو الدراسات الدينية التى قامت بمساجد الإسكندرية ومدارسها واضحة بارزة السمات غالبة على الدراسات اللسانية والعقلية جميعاً .

وفى الحق إنها دراسات لم تكن جديدة على البيئة سواء فى مصر والإسكندرية وغيرهما فقد وجدت منذ دخول الاسلام مصر واخذ الناس يقرأون القرآن الكريم ويتدار سونه عن الصحابة والتابعين ممن جاء إلى مصر ، ثم أقبلوا على الدراسة اللغوية عقب ظهورها فى بيئات أخرى كالبصرة والكوفة وبغداد فأخذوا عنها ، وتمثلوها ، وألفوا فيها ، واطردت دراستها حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المشرق والمغرب الإسلاميين ، وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى والعصور التالية ونبغ فيها من نبغ ممن سبقت الأشارة إليه وغيرهم — ممن لم يذكر — ذو عدد وفير ..

وقد كان للسلفى فضل التعريف بهم فى معجمه وقد كانوا ملء عين الإسكندرية ودليل تقدمها الفكرى وتفوقها فى ألوان خاصة من علوم العصر مما أبقى عليها سمعتها مدى الدهر ..

الحركة الأدبية فى مدينة الاسكندرية

فى العصرين الفاطمى والأيوبى

تمهيد

الحركة الأدبية هى النتاج الفنى مصورا فى قصيدة أو قصة أو مقالة أو رسالة أو خطبة أو كتاب يبرز فى كل نوع من هذه الأنواع ذو الموهبة الأصيلة، والذهن اللماح والرؤية الصادقة والحس المرهف ، فيصور وجوده ، ويعبر عن نفسه ، ويبرز ملامح الحياة من حوله ، متخذا الكلمة أداته لتكون عونا له على التصوير والتعبير والنقل الأمين للقارئ الذى ينشد المتعة ويحاول أن يرى نفسه فى مرآه الفن الأدبى فيتجدد نشاطه ، ويتخفف من أثقال الحياة ومشكلاتها ويستمتع بما يقرأ أو يسمع ، ويجد فيما يقرأ الصورة المعبرة عن الشعور بالجمال والإحساس بالخير ، والإيمان بالحق ، مادامت الصورة دقيقة معبرة ، صادقة مؤثرة .

والأدب ظاهرة حية نشيطة من ظواهر الحياة ينشط بنشاطها ، وتتجلى فيه منازعها ونظمها ، وصورها ، كما أنه يحيا حياة خصبة فى ظلال الخير يصيبه الأديب ، والإثابة على قدر مايكون صادقا فيه ، هادفا إلى خير مجتمعه معبرا عن وقع الحياة على قلبه ، إذ يرى ما يراه الناس ، وأبعد مما يرون ؛ ويلتقط الكلمة الشريفة لتعبر عن وجود شريف ، ويرسم الصورة الدقيقة لتصور وجوده وتدعو لما هو خير ،وشرف الكلمة ألاتصطنع ، وألاتنافق ، وشرف المعنى أن يكون فى خدمة الإنسانية حيث تتطهر ، وترقى ، وتتطور .

وصور الوجود هى الصورة التى تنبض بها عروقه، وترتسم فى وجدانه ويحلق بها خياله صاعدا وهابطا ، وذاهبا فيها إلى أبعد الحدود ، متخطياً أسوار الزمان والمكان . . .

وهذا الأدب — على ماوصفت — هو الأدب الخالد يتجلى فى كل عصر وجيل ، وتتردد نماذجه حية منذ عرفته الإنسانية معبرا عن حقيقتها وأحلامها ورؤاها الظاهرة والباطنة على اختلاف المنازع والمدارس والأنواع والأساليب.

الشِّعْرُ

وحظ الشعر من هذا النشاط أوفى الحظوظ فى كل زمان ومكان ، عرفه العرب الأولون كما عرفة اليونان السابقون ، وغير العرب وغير اليونان من كل جنس وفى أى مكان . أدى أغراضه وأمتع بوجوده ، وخلد على الزمان .

والشعر العربى — فى بيئته الأولى — رسم أهدافها ، وأبرز معالمها ، ووفى بأغراضه الضيقة معبرا عن الذاتية الفردية متغنيا بما تمور به عواطف الفرد ، ويثور به وجدانه ويترقـرق أشواقه وأحلامه وإحساسه ، كما يردد عواطف قبيلته المهتاجة ، وحماستها الثائرة وآمالها فى الحياة مقيدة بحدود البيئة والتقاليد والجماعة ، والشعر فى كل ذلك معبر صادق اللهجة ، غرد يردد أصداء النفس وعواطفها الجياشة ، المحبة المخلصة ، اللاعبة المرحة ، المحنقة الثائرة ، الجميلة دائما حيث تحيا وجودها ، وتحققه إلى أبعد الغايات .

وادى الشاعر وظيفته على الوجه الذى رآه ، وعلى الصورة التى رسمها ، فى البيئة المكانية والاجتماعية التى نبت فيها عوده ، وتتغير المعالم الاجتماعية وتتطور وتنمو طاقاته البشرية وتهذب ويبعد نظرها إلى المدى الذى لم يكن من قبل يراه ، فيعيش عصره ويزيل السدود المنصوبة ويتخطى الأسوار المضروبة بفكر جديد ، ووعى رشيد وعاطفة مهذبة ، وطموح أبعد، ويعرف النظام ، وتحده الشريعة بحدودها ، وتتغير الوظيفة وينهض الشاعر « بالعمل الحديد » فى حدود مارسم له ، وقد تخلى عن ذاتيته ، وأوى إلى حضن الجماعة المؤمنة يرقب ، ويتمثل ، ويصور ، يدفعه الإيمان ، فيسلك الطريق المرسوم ويهدف إلى ماتهدف اليه ،وهدفها بعيد يتخطى حدود الجزيرة ، ويجدد الحياة ، ويهدى للتى هى أقوم .

وتضطرب الحياة ، وتثور نوازع النفس ، وتميل إلى الانطلاق لتخرج من دائرة الحدود والقيود والنظام والهدف ويبلغ الشاعر مبلغه ، وينال حظه من هذا الاضطراب فيعبر ويصور مترددا بين الذاتية المتدفقة بالعواطف الملتهبة بمحدثات المجتمع المضطرب، وغرائب التقاليد والنظم ، والعقائد والقيم ،وبين الجماعية تهدف إلى غرض ، وتنتهج مسلكا يوصل إلى غاية فى السياسة والدين ، والاجتماع ، وتتعدد أو تتفتت هذه الجماعة إلى حد تتكاثر فيه ، وتتنوع وتختلف ، ويغدو الشعر أداة معبرة عن هذه الفئات مصورة لنوازعها وآمالها ومراميها .

ويعظم حظ الحياة من الصراع الذى تضطرب به المذاهب والعقائد ، والأجناس فتقوم الحروب وتطحن البشر ، وتميل الإنسانية إلى الانطلاق بغرائزها لتدفع عن نفسها الشر وتثأر للكرامة التى أهينت والوطن الذى سلب والحق الذى اعتدى عليه ويتحمس الشاعر وينفعل بما يرى ويحس فيشارك قومه جهادهم وبلاءهم ، ويتغنى ببطولاتهم وانتصاراتهم ويخلد ذكر من ماتوا ويمجد المثل التى ينبغى أن تعيش فى قلوب الأجيال وعقولهم .

وقد ينفرد الشاعر فى وجود ضيق حيث يشبع أشواقه وأحلامه وآماله مستهدفا ذاته متعريا عن القيم الإنسانية أو المبادئ التى تدين بها الجماعة أو الأهداف التى تتحدد خطاه اليها فى سبيل قويم ، ضاربا عرض الحائط بما يكون عليه المجتمع من نظم ، والفن من مثل، فيكذب ، ويحترف ، ويخادع ، وينحرف فى هواه كل منحرف ، ويتخذ الشعر وسيلة تخدم غرضه وتحقق مآربه فى مكسب أو مغنم يدفعه إلى القول فيقول دون أن نجد صداه مؤثرا جميلا ، ممتعا أو صادقا هادفا ، أو هاديا مرشدا .

وعظم حظ الشعر العربى من هذه الفردية منذ كان فى العصور الأولى ، ، غزر النتاج غزارة مبعثها ما يلقاه الشاعر من تشجيع ، ومنافسة ، ومايصادف من أسباب حافزة فى وجوده الفردى أو الجماعى .

وقد كان الشعر فى العصرين الفاطمى والأيوبى كما كان فى العصور التى سبقت — ماامتد منها على الزمن البعيد ، وما دنا من العصر المشهود — كان نشيطا على أبواب الخلفاء وفى قصور الأمراء ، وفى رحاب الولاة والعمال حيث يثيبون على المديح ، ويعطون الجزل على النصرة والتأييد ، ويحفزون على الإتقان فيه بمالهم من بصيرة ناقدة ، وعلم بمواقع القول ووقوف على أسرار الجمال فيه ، لعروبة أصيلة ، وثقافة تعين على التذوق والإدراك ، وتسام إلى عصور الأدب الزاهرة ، فكان ماكان من نشاطه فى حياة الدولة الفاطمية أولا : لأن القوم كانوا عربا تنبض عروقهم لسماع الكلمة الصادقة المؤثرة المعبرة ، وتهتف بالاستجادة ألسنتهم للبليغ الموفى على الغرض ، والذوق ذوق عربى أصيل ، وهم أصحاب دولة ، وحاملو رسالة يريدون إبلاغها للناس ، وفى ألسنة الأدباء ، والشعراء المدد المعين ، والإعلان الصريح ، واللهجة المؤثرة فاختصهم الخلفاء والوزراء والأمراء بفضل الرعاية ، فأنالوهم النوال الجزل ، والثواب العظيم وأدنوهم من منازلهم ، وأثنوا عليهم بما يكسبهم فى القلوب المحبة والاحترام والتعظيم . فنهض الفن الأدبى — ولا سيما الشعر — مؤيدا ونصيرا ، ومعليا ذكرهم ، ومشيدا بمآثرهم وعقيدتهم بل كان من الشعراء من وقف شعره على هذه العقيدة شارحا معللا محللا مؤيدا بالحجة وبدأ بذلك ابن هانئ ، ثم أمه وعكف عليه داعى الدعاة المؤيدة فى الدين .

فلحاجة الفاطميين للدعوة وإيمانهم بها وبوجوب إذاعتها وتمكينها قربوا الشعراء فكثر الشعر وجاد ، ورأينا شعراء ممتازين فى هذا العصر ، لم يكن

مثلهم من قبل فى مصر ، شعراء مصريون ، وآخرون وافدون مع المعز وبعده من المغرب واليمن والعراق والشام ، وعظمت الدوافع ، وقويت ، فراج وغزر ، وسخا القوم ، فانطلقت الألسنة تؤيد فى السياسة وتمدح الخصال والأفعال ، وتبالغ إلى حد الإسراف لتبلغ من وراء ذلك كله إلى ماتريد وعظم حظ الأدب من المدائح الفاطمية إيمانا بالعقيدة، أو طمعا فى المثوبة،والفاطميون أثر عنهم السخاء ليقينهم بصدق وظيفة الشاعر فى دولتهم الفتية الغنية ، وتشبههم بالخلفاء من عظماء بنى العباس وتظاهرهم بمظاهر العظمة والفخامة والجلال لتمتلىء بهم العيون فأكثروا من أقامة الحفلات فى القصور والمناظر والحدائق ، وابتكروا الأعياد فى شتى المناسبات ليجددوا بها حياة الناس ولتكون دعاية تؤدى أغراضها المرسومة فأفاضوا فيها على الناس الخير بما نصبوا من أسمطة ووهبوا من عطايا لتأليف القلوب ، وقطع الألسنة ، وترويحا يخفف ثقل وطأة الحياة على المجهودين الكادحين . فمواسم لرأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبى ومولد فاطمة ومولد على ومولد الخليفة وعيد النيروز وعيد الغدير ، ويوم الغطاس ، إلى آخر ما ابتكروه وأقروه ، وفى كل هذه المواسم يشارك الخليفة فى شهود الاحتفالات ويوزع الجوائز وينشد الشعراء ، ويقوى نشاطهم ويعظم الدافع لديهم فيكثر انتاجهم ويجود ، ووراء ذلك كله هدف الفاطميين من الدعوة ، والدعاية البالغة لها لتنال حظها من التأييد والتمكين ، وينالوا — هم — حظهم من القوة والسلطان وعظمة الجاه ، وامتداد الملك .

وعظم تقدير الفاطميين وتشجيعهم وثوابهم للشعراء فهاجر إليهم الراغبون فى النوال ، والفارون من وجوه الفقر والبخل ، والتقتير ، وأقام مهم بمصر من وقف نفسه مادحا مستثيبا ، حتى كثر عددهم ، وغزر نتاجهم ، وتنوعت أساليب القول ، وتعددت أغراضه — وإن غلب المديح — كما هو شأن الشعر

الذى عاش على أبواب الخلفاء وقصور الأمراء والوزراء وتنافس الشعراء فيه حتى جاد وغزر ، وفى شعر ابن هانئ وابنى الزبير وعمارة اليمنى ، وأبى حامد الأنطاكى (ابى الرقعمق) وتميم بن المعز ، والعقيلى ، وابن مكنسة ، وابن عياد ، وابن قلاقس ، وظافر الحداد ، وابن ناصر ، وابن حميد ، وغيرهم ممن ضمتهم (خريدة القصر) (والرسالة المصرية) « والمغرب » ومعجم السلفى وغير أولئك كثير —تناولوا أغراض الشعر المختلفة وإن أسرفوا المديح لما سبق من تعليل .

والشواهد كثيرة فى هذه الأغراض ، وإيرادها جميعا يخرج عن القصد من تعيين القول عن الإنتاج الأدبى فى الأسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى .

وكثرة الشعراء ظاهرة فى الدور الذى بدأت فيه الدولة الفاطمية تضعف وأخذ ظلها فى الانحسار عن الشرق أو الزوال إلى الأبد .

فمنذ عهد الأفضل بن بدر الجمالى حول نهاية القرن الخامس — وقد كان عصره من أزهى العصور الأدبية فى مصر الإسلامية — إلى نهاية الدولة وبلغ عدد الشعراء أكثر من مائة شاعر ، يجيدون القول ، ويتنافسون فيه راغبين أو موئدين . وفى الرسالة المصرية ذكر حسن لشعراء مجيدين فى عصر الوزير الأفضل كابن مكنسة وابن نصر ، وأبى نصر ظافر من الإسكندرية على الخصوص .

وقد ذكر (صاحب الرسالة المصرية) حسن إقبال الأفضل على رجل من معرة النعمان يدعى أبا الحسن على بن جعفر (فانه أفاض عليه سحائب إحسانه ، وأدر له حلوبة إنعامه ، ولقبه بأمين الملك وأدناه واستخلصه)

وبمثل هذا، ومن أجله، كثر الشعراء وغزر الشعر وجاد . ثم هبت على الدولة ريح سموم عصفت بها فأوى الشعراء – أو كثير منهم – حيث أقاموا منزوين عن الأحداث ، وتوجيهها ، والتبصير بالأهداف النبيلة ، وعكفوا على أنفسهم يمضغون القول بما لا يمتع أو يفيد .

فلما كان العصر الأيوبى نشط الأدب ، وتسامى الشعراء إلى منزلة الأحداث الكبار فغزر إنتاجهم فيها وعظم حظه من الإثارة والإفادة والإمتاع . وكانت الحرب الضروس بين المحمدية والصليبية قد أثارت العواطف ، ودفعت إلى القول الجيد ما أقام العدو بأرضهم الطهور ، باغياً ، قاهراً ، ناشراً الفوضى والفزع ، والاضطراب ، مستخدماً أشد ألوان التعذيب والتنكيل ، منذ عهدى الأفضل السالف الذكر حين لم يتخذ للأمر عدته ولم ينهض بما نهض به أولو العزم من الأتابكة والأيوبيين الذين وقفوا وحدهم فى الميدان يدفعون العدو حيناً ويغيرون عليه أحياناً ، موجهين جهودهم إلى توحيد الجموع ولم الشمل ، وتوحيد القيادة ، وفتح الجهات ليشهدوا مصرعه بفضل ما أوتوا من بأس شديد ، وتمرس بالخطوب ؛ وحماسة للدين ، وحمية للشرف الرفيع ، وأدى الشعر مهمته يؤيد ويدعو ويثير الحماسة والنخوة ويمتدح الفضائل والمثل الكريمة ويهزج بأناشيد الانتصار ، ويوجه إلى الهدف ، ويحمى العقيدة ويرصد الأحداث ، فجاد القول وغزر ، والحاكم القائد يشجع ويثيب ، ويحب الأدب ، ويهتز للمطرب المعجب منه ، ويجلس للشعر مجالسه ، ينصت ويستحسن ، وينقد أحياناً – فقد كان من الثقافة العربية والإسلامية على عرق – بل كان من الحكام من أجاد القول كما كان يتذوقه . فنشطت الدوافع وغزر القول حتى فاض . وحفلت المجالس بالشعراء الذين شاركوا الجند فى الميدان بإثارة الحمية وتهييج الشعور وإذكاء نار الحماسة . وفى كتاب الروضتين ، وشفاء القلوب ، ومفرج الكروب وخريدة القصر

وغيرها ذكر حسن لهؤلاء الشعراء من مصريين وشاميين كالعماد وابن منير القيروانى والقاضى الفاضل وغيرهم كثير ممن كان الجهاد والدفاع عن الإسلام وعن الأوطان هدفهم الرشيد : يؤيدون ويحمسون ويشيدون بالنصر وبطولة الأبطال ، ويدعون إلى مقاومة العدو الرابض فى بعض الأقاليم والثغور .
فالمدح – إذن – هو الفن البارز القصد من بين الفنون الأدبية الأخرى فى هذه الفترة التى شملت الدولتين وإن اختلفت الدوافع إليه ، والغرض منه ، وتردد بين الصدق والكذب والقصد والمبالغة ، والدعوى والأصالة ، والضعف والقوة .

وإذا أحسسنا مرحاً فى العصر الفاطمى فقد كان يحيا حياتين فى العصر الأيوبى : حياة القوة والحماسة وثورة العاطفة ، وحياة مظلمة بائسة إن ألم خطب ، أو قرعت المسلمين قارعة ، وحاق بهم كرب ، ولكن كان سرعان ما يذهب عنه الحزن ، وتشرق عليه شمس النصر فيفرح ، ويطرب ، وينشد ما يستحق عليه الثواب العظيم .

والقرن السادس أخصب هذه الفترة أدباً ، وأغزرها إنتاجاً – وإن لم يصلنا كاملا – فقد عمد المؤرخون والرواة إلى غمط حق الشعر الفاطمى فى الوجود ، والإعلان عن نفسه ، عندما وقفت العقيدة أو المذهب حائلا دون ذلك حتى ضاع ولم يبق منه إلا الأقل الذى حوته كتب التاريخ والمختارات مما لم يتعرض فيه قائله لامتداح الإمام واعتناق المذهب ، والدعوة إليه وإلا تعرض للإغفال أو الانتقاص أو الرد .

على أن شعراء الفاطمية لم يكونوا جميعاً على هذا السبيل فقد كان منهم المخلص للدعوة المعلن عنها والداعية إليها المشيد بها ، ومنهم المدعى المادح المستنيل ومنهم المنافق المائل مع كل ريح وقد كان شعراء الإسكندرية بخاصة – ممن لم يؤثر عنهم تأثر بالمذهب أو دعوة إليه أو إشادة به إلا أن تكون مدحة جرت على لسان مادح مستنيل .

ولكننا وجدنا عن أغلب شعرهم إغضاء ، أو غضامن مكانته ، أو استهجانا لغلوه والإفراط فيه فضاعت دواوين كثيرة من الشعراء من أمثال ابن المؤمل ، وابن مطير ، والقاضى الرشيد ، وظافر الحداد ، والفقيه الصوفى ابن الكيزانى وابن قادوس وغيرهم من شعراء العصر كثير .

ووجدنا العماد — مثلا — ينتقص ابن الضعيف لأنه « كان من دعاة الأدعياء الغلاة لهم فى الولاء ... فى عهد آمرهم ، وله فيه مدائح كثيرة ، لدواعى المنائح مثيرة ، وقع إلىّ ديوانه بخطه وكنت عازماً لفرط غلوه على حطه ، لأنه أساء شرعاً وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحق لإساءته كفراً ولا غفراً ، لكننى لم أر أن أترك كتابى منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ويقصده البر والفاجر ، يحمل الغُثَاء كما يحمل الدر ، والمركب فيه يجمع العبد والحر .

وتعمد العماد أن يستعيد أكثر شعر المدح لما فيه من الإشادة بالأئمة معتبراً ذلك من سيئات الشعر والشاعر ، وقد تبعه فى هذا الصنيع غيره ، أو اتبع هو سواه من الأدباء والمؤرخين فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب التعصب المذهبي الذى غطى على الأبصار والبصائر .

ولكن ما أورده العماد فى (خريدة القصر) — القسم الخاص بمصر — وما أورده ابن سعيد فى المغرب ، وأبو الصلت أميه « فى الرسالة المصرية » « ثم ما وجد مدوناً فى كتب التاريخ والتراجم والموسوعات والطبقات فيه ما يفى بالقصد ، ويدل على ما كان موجوداً ، ويكون الفكرة عن غزارته وخصوبته وتنوعه ومستواه الفنى .

(١) الخريدة جـ ١ ص ٢٨٥

والدارس الأدبى يرى أن القرن السادس وما حوله يمثل — بحق — العصر الزاهر بين عصور الأدب فى مصر بعامة — وفى الإسكندرية بخاصة باعتباره البيئة الأدبية التى نبحث فى إنتاجها الأدبى ، وحسب القارىء أن يشهد فى هذه البيئة أمثال هولاء الشعراء السكندريين بالمولد والمنشأ ، أو بالإقامة والمهاجر نذكر منهم :

أبا الطاهر إسماعيل بن مكنسة ، وظافر الحداد ، وأبا الصلت أميه ابن عبد العزيز ، ومحمود بن ناصر، وعلى بن عياد ، وابن قلاقس ، وابن قيصر وابن توهيب ، والرشيد بن الزبير ، وابن الجزار ، والقضاعى ، وابن المطرز وعلى بن ظافر ، والطرطوشى الفقيه ، وأبا الحسن الرباطى ، وابن الحمشى الإسكندرى ، وابن حميد ، وسليمان بن فياض ، وعبد المحسن الإسكندرى وأبا القاسم بن مجبرة ، ونصر بن عبد الرحمن ، وتقية الصورية . وابن سلمان القرشى ، والديباجى ، وابن معبد القرشى وأبا الحسين بن مطير .

وهو عدد وفير ممن جمعتهم الخريدة ، والمغرب ، ونفح الطيب ، ومعجم السلفى ، وبدائع البدائه ، وحسن المحاضرة ، وإنباه الرواه على أنباه النحاه ، وعيون الأنباء ، والرسالة المصرية ، ومسالك الأبصار ، ونهاية الأرب ، وصبح الأعشى ، والوفيات ، والوافى بالوفيات ، وفوات الوفيات . إلى آخر ما وقع لنا من مراجع تحدد معالم الطريق ، وترسّم خطوطه وتوفى بالبحث على الغاية منه .

ودارس شعر هؤلاء الشعراء يجد فيه خصوبة ، وتنوعاً ولذة كتلك التى يجدها فى الشعر العباسى الجيد ، والشعر الأندلسى فى مستواه الفنى الذى لا يسمو إلى طبقة الشعراء الكبار . كما يجد فيه تقليداً ظاهراً للنماذج الشهيرة بحيث لا يجد صدى لما يجيش فى صدر الشاعر ، ولا يحس تجاوباً حقيقياً

معه ، وإنما هو « وقوع الحافر على الحافر » فى كثير من الأحيان ، والسلخ أو المسخ حيناً ، والابتكار والتجديد حيناً آخر بعد طول عناء .

وشاعر تلك الحقبة لم يخرج عن أغراض الشعر القديمة المتوارثة ، وموضوعاته التى أسبقوا فيها القول ، ولم يتخذ لنفسه أسلوباً يحدد معالم شخصيته ، ولم يهتد إلى نظم جديد أو قواف مستحدثة ، كما لم يخرج عن طابع الشعر العربى ومعانيه وأخيلته على وجه العموم بحيث لا نشهد ما يميز الشاعر أو العصر أو البيئة فى أغلب الأحيان ، وسنرى تعليلا لذلك عند ما نعقب على هذا النتاج بعد عرض النماذج المختارة منه ليصح الحكم وقد قام الدليل .

والشعر العربى غنائى منذ كان إلى أن وقع هذا التطور فى عصرنا الحديث ، ومن أجل ذلك وجرياً على سنة التقليد التى سار عليها شعراؤنا السكندريون ممن أشرنا إليهم — رأينا أغراضه القديمة متمثلة فى أشعارهم ، وموضوعاته موضوعاتهم ، إلا ما أوحت به البيئة ، أو أشارت إليه الأحداث ، ثم « لا جديد تحت الشمس » كما كانوا يقولون .

ولذلك نقرأ شعراً يمثل أغراضاً فى السياسة ، والمدح ، والوصف والرثاء ، والحكمة ، وتلك أغراض تناولها الشعر العربى من قديم .

ونلتفت إلى ما قبل القرن السادس فنجد « بيئة الإسكندرية » تكاد تخلو من شعر الشعراء منذ عهد سابق على العصرين الفاطمى والأيوبى ، وكذلك كان شأنها منذ دخل الفاطميون مصر حيث لم نجد — بعد استقصاء لشعراء مصر منذ الفتح — شاعراً ينتمى إلى هذه البيئة أو يتخذها له مقاماً ، وينشئ شعراً نصح نسبته إليه ، إلا إذا اعتبرنا ما كان فى عهد العزيز ثانى الخلفاء الفاطميين، فقد عثر على شاعر مجهول لم يتحقق وجوده بأعمال فنية أخرى غير قصيدة

نسبت إليه — على اختلاف فى النسبة — ولم تشر إليه أخبار الرواه وكتب التاريخ والمختارات المأثورة من شعر الشعراء ، ولم يعرف منه إلا لقبه (الإسكندرانى) يمدح الخليفة العزيز وتنسب أحيانا إلى داعى الدعاة المؤيد فى الدين ، وبعض الدارسين على أن داعى الدعاة لم يمدح العزيز ، ولم يعاصره ، ولم تجر القصيدة على أسلوبه ونهجه . وترجح لديه أن تصح نسبتها إلى هذا « الإسكندرانى » على الرغم من وجودها فى ديوان المؤيد فى الدين مخطوطة فى الورقة رقم ٦٦ ب بدار الكتب فى القاهرة .

والقصيدة — وتسمى بذات الدوحة — يمكن أن يتناولها العرض السريع اعتمادا على هذا الترجيح ، وهى فى غرضها العام أثر من آثار ابن هانىء الأندلسى الذى رسم للشعراء من بعده خطوط المدائح الفاطمية ، إذ كان لعقائدهم والإشارة إلى أصولها ، والإشادة بها اهتمام بارز فى هذه المدائح ، فرأينا الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة يمدحونهم بالصفات التى أسبغها عليهم المذهب ، ويعمدون إلى مصطلحاتهم متغنين بها تقربا إليهم وتلذذا بها حيث تصيب من قلوبهم هوى ، وتعلن عن عقيدة، وكلما أمعنوا فى ذكر هذه الصفات ، وافتنوا فى تصوير المذهب ، وجروا مع تخيلهم بكل سبيل ازدادت قيمتهم المادية أو الأدبية لدى الأئمة وكبار رجال الدعوة المهديين فكان الشعراء على هذا المذهب دعاة الأئمة عن عقيدة أو عن أمل ورغبة فى النوال الجزيل — كما كانوا سببا فى اتهام المذهب ودعاته بالتطرف والمغالاة المقيته .

والقصيدة فى نظر بعض النقاد — فريدة فى نهجها ونظام تأليفها — بحق ، وذلك لأن الشاعر قد رسم[1] — بنظام القصيدة — مضمون الحديث

(١) انظر : « فى أدب مصر الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين ص ١٤٢

النبوى الشريف (أهل بيتى شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) وجعل ختامها سبعة أبيات تتكامل مع البيت الأخير فى صورة شجرة ذات سبعة فروع ، وأودعها كثيراً من أصول المذهب ومصطلحاته ، وفيها يقول :

سئمت من البين الذى ليس يصدق   فلست بغير الحق والصدق أنطق

أأمدح رهطاً غير رهط محمـــد ؟   وفى الجيد عهد للإمام موثق ؟

ولا فضل لى فى ذا ، بل الفضل فضل من

بهم يحـــرم الله الأنام ويـــــرزق

أئمـــة دين الله مذ قام دينـــه

وأنوار هــذا الخلق من قبـــل يخلق

محبتهم فرض على النـــاس واجـــب

وعصيانهم كفــر إلى النــــار موبق

هم العـــروة الوثقى هم منهـــج الهـــدى

هم الغـــاية القصوى التى ليس تلحـــق

ولولاهم لم يخلق الله خلقـــــــه

ولم يك فى الدنيـــا ضيـــاء ورونق

هم دوحة الدين التى تثمر الهـــــدى

وباليمن والتقـــــوى تظـــل وتسبق

تجـــير من الأيام من يستظلهـــا   وتحيي من الموت الجهول وتطلق

سقاهم غمام الوحى علما فأينعت   بمكنون علم الله فالدين مونـــق

جرت من تخوم المحكمـــات عروقها   وفوق الثريا فرعهـــا متعلق

هم الأصل منهـــا والأئمة فرعهـــا   ففى كل عصر نورها يتـــألق

إلى أن تسامت بالعزيز ولم تـكن   بغير أبى المنصور لو كان يلثق[١]

فباهت على الأيام أيامه التى   تكاد لهم صم الجنـــادل تورق

سحائب جود لايغيب غمامهـــا   وبحر سماح بالنـــدى يتدفق

لئن فقد الناس المعز لدينـــه   لقد قام بالدين العزيز الموفـــق

تجددت الدنيـــا علينـــا بيمنـــه   فلا العيش مذموم ولا الدهر أحرق

ولا الجود ممنوع ولا المجد خامل   ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق

إلى أن يقول :

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   من اليمن والإيمـــان لا يتمزق

كسا الشرق والغرب الإمام غرائبا   من الجود والإقبال فالدهر مشرق

كسا عدله الأيـــام نوراً وبهجة   فها ألسن الأيام بالشكر تنطـــق

كسا الدين من لا دين إلا بحبه   علوا ، فسيف الحق بالحق مطلق

كسا الدين بالمعروف والجود جنة   تحصنـــه ممن يحيـــد ويمـــرق

كسا الدين والدنيـــا العزيز جلابيا   بأيامه اللاتى بها الصخر يورق

كسا الدين والدنيـــا حدائق نعمة   فروض ثرى الإيمان بالزهر موفق

كسا الدين والدنيـــا نزار هداية   يبيت بها قلب المعـــانى يخفـــق

كسا الدين والدنيـــا نزار سلامة   تزيد عـــلى طول الزمان وتسبق

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   ترى النور من أغصانهـــا يتألق

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   مجـــردة فى نعمة ليس تخـــلق

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   من اليمن تردى للطغـــاة وتوبق

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   من اليمن والإقبال فالدهر مطرق

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   من اليمن والإيمان فالأمر موثـــق

كسا الدين والدنيـــا نزار جلابيا   من اليمن والإيمان فالشك مغـــلق

---

(١) لثق يومنا كفرح : ركدت ريحه وكثر نداه ، والثقة : بالله .

وقد وضح من نظامها الذى لم تستطع طبعه فأجريناه على النظام
المألوف — صورة الشجرة التى اخذها عن الحديث المنسوب إلى
الرسول (عليه السلام) وقد تفرعت عن يمين البيت الأخير القائم فى الوسط
إلى سبعة أفرع أخرى وهو تلاعب ظاهر يرضى أذواق هؤلاء الناس ، ويثير
فيهم الاعجاب ، فى حين أنه لايصدر عن احساس صادق ، أو فن أصيل
أو محاولة لنظام خرج عن المألوف . على نهج جديد ليرسم طريقاً للشعراء
يتخذونه قالباً تصاغ فيه أفكارهم ومشاعرهم مثلما فعل المجددون فى الموشحات
مثلا — وغيرها ممن اطرحوا الأوزان فى البحور المألوفة ، ووحدة القافية
إلى التعدد أو الطرح فى بعض الأحيان .

والقصيدة — فوق ذلك — حافلة ببعض أصول مذهبهم ومصطلحاتهم
كالحديث عن العهد الموثق الذى يأخذه الإمام على شيعته ، وكالحديث
عن تنقل نور الله منذ بدأ الخلق إلى أن حل هذا النور فى إمام العصر ، وعن طاعة
الأئمة ومحبتهم إذ هى فرض على الناس واجب . وعن معصيتهم فمعصيتهم كفر
يؤدى إلى الجحيم ، وأنه لولاهم لم يخلق الله الخلق ، وأنهم دوحة الدين تجير
المستظل بها ، وتحيى موات العقول والقلوب وأن علمهم قد خصهم الله به
دون سواهم فهو فيض غمام الوحى كهذا الذى نزل به الروح الأمين
ولاينسى الشاعر وصفهم بالجود غير الممنوع ، والعرف غير المقطوع ، استدرارا
لسحائب كرمهم وامتياحاً لبحر سماحهم . وهو جد خليق بأن يوهب العطاء
الجزل والمودة والمنزلة الشريفة فقد بلغ بما قال ما أرادوا من علو المقام
وانزلهم منازل الأنبياء والمرسلين بما أضفوا على الدين والدنيا جلابيب اليمن
والأيمان التى لا تتمزق ، ويغدو بها الشرق والغرب فى بهاء وسناء .
فالشاعر فى هذه القصيدة شاعر عقيدة ، نسج بردتها وكساها العزيز
مدحة جديدة ، وظهر منها أنه طالب معروف ، ومتودد لنعمة حيث دارت

على لسانه صفات الكرم والجود مدارها على السنته الشعراء المتكسبين ،
على الرغم من غموض حال الشاعر مما جعلنا مترددين — لولا ما قدمناه من ترجيح —
فى عده من رجال الأدب بالإسكندرية الذين نؤرخ لهم ونقف على نتاجهم
الأدبى ما وسع المقام .

فإذا ما كان العهد الأخير من عام ٤٦٦ هـ وجدنا صاحب (خريدة القصر)
يمدنا — كما أمدنا غيره — بأخبار وأشعار طائفة من الشعراء الذين حفلت بهم
الإسكندرية وشهدت مجالسهم ووعت آثارهم وقد عاصروا الأحداث الكبيرة
التى جرت بمصر والشام وأصابت الإسكندرية من بأسها ما أصابها ، ورأوا
نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية أو عاشوا زمن إحداهما دون
الأخرى ، وشاركوا بشعرهم مؤيدين أو معارضين .

ونأخذ الآن بزمام القول فى أغراض الشعر فى ذاك العصر على وجه
من التفصيل ، قد يطول فى بعض الأحيان المختار منه — بعد أن علمنا ما كان
من ضياع الدواوين أو إهمال شعر شعراء الفاطميين — لنرى فيه رأينا بعد
أن نكون قد استعرضنا قدرا منه ليس بالقليل ولا بالكثير .

أغراض الشعر

بقى من الشعر الفاطمى والشعر الأيوبى وشعر مخضرمى الدولتين فى الإسكندرية قدر صالح يفصح عن اتجاهاته ، وموضوعاته ، ويبين خواصه ومميزاته ، ويدل على دوافعه ودواعيه ، فوجدنا الشعراء ينهجون نهج أسلافهم ، وعلى آثارهم يقتدون ، منذ وجد الشعر العربى فى نظامه وأغراضه وأساليبه وكثير من صوره ومعانيه ، وكان للأحداث الجارية فى العصر والبيئة والحياة الاجتماعية التى سادت فيه أثرها فى الشعر فصبغته بصبغتها التى كانت عليها ، وأضفت عليه ظلالها حتى بدت صورتها فيه ، ومن أجل ذلك يمكن أن نتبين اتجاهاته المختلفة ، ونتعرف على خصائصه المميزة له عن سواه مما يدل على العصر والبيئة والظروف والأحوال .

وكان من مجالات القول فيه : السياسة ، والمدح ، والوصف ، والغزل ، والخمر ، والهجاء ، والرثاء ، والفخر ، والحكمة ، والتهذيب الخلق .

١ — السياسة

فقد حفل هذا العهد بالأحداث السياسية منذ اختلت الأمور بأيدى الفاطميين ، آخر عهدهم بالحكم بين خليفة مقتول ، وآخر مستضعف مغلوب على أمره ، ووزير يكيد لوزير ، وربما استعدى بعضهم على بعض الأجنبىّ الدخيل ووزارة تنقض إثر وزارة وصفة الغدر بارزة فى العلاقات التى تقوم بين الحكام ، والنساء والخدم والعبيد لهم ضلع قوية فيما يحدث من أمور وخطوب بينما الصليبيون يدقون أبواب الشام ومصر بيد من حديد ، ويبلغون ما أرادوا — أو بعض ما أرادوا — إلى حين ، ويقف الوزير بمصر مكتوف اليدين لأنه مغلول التفكير بالعكوف على نفسه يتبع هواها ، ولا يرى سواها ، حتى يبلغ سوء الحال أقصاه بالتدخل السافر ، وإهانة الكرامة والعزة القومية ، وفرض الجباية وإزهاق النفوس والكيد للذين بسبب خيانة وزير طامع فى الحكم صمم أن يبلغه وإن خاضت قدماه فى مستنقع الموت أو المهانة والذلة . والشعر — وهو سجل الأيام ، وديوان الأحداث ، يسجل ويدون ، ويتأثر الشعراء بما يرون ، أو يشاركون فيه ، ويبدو مذهبه أو اتجاهه السياسى فى قصيده ونشيده . فهذا الخلاف بين الخلفاء الفاطميين ووزرائهم قد ألقى ظلا على الشعر عندما نرى الشاعر السكندرى (على بن عياد) وكان كما يقول السلفى عنه (من فحول شعراء ديار مصر — على صغر منه — ومن شعراء السلطان ، ودخل فيما لا يعنيه فأمر بقتله ، وقد أنشدنى مقطعات بمصر ، وقبل ذلك بالإسكندرية ، وكان أبوه قيم جامعها)[١] ابن عياد هذا كان يمدح الوزير أبا على أحمد بن الأفضل الذى انتزع السلطة

(١) معجم السلفى ؛ الورقة ٣٠٠

من الخليفة الفاطمى (الحافظ) حتى بلغ من استبداده بالأمر أن اعتقل الخليفة فقال من قصيدة يهنىء فيها الوزير ويهجو الحافظ :

تبسم الدهر لكن بعد تعبيس ... وقوض اليأس لكن بعد تعريس

ومنها :

إذا دعونا بأن تبقى لأنفسنا ... دعاءنا ، فابق يا ابن السادة السوس

ومنها :

وقد أعاد إليه الله خاتمه ... فاسترجع الملك من صخر بن ابليس[١]

وهذا البيت — فيما روى صاحب الحريرة — كان سبب قتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله واسترجع ملكه وقتل الوزير .

ولعل الشاعر كان يبصر بعين الغيب عاقبة أمره ، بعد أن نال من خلفاء بنى عبيد بما أحنقهم عليه — فالتمس النجاة أو المهرب أو النصير ، على ما نرى فى موشحته لمحمد بن أبى أسامه :

يا من ألوذ بظله ... فى كل خطب معضل
لا زلت من أصحابه ... متمسكاً بيد السلامة
آمنا من كل بأس
فى الحوادث والصروف

وأعوذ منه لفضله ... فى كل أمر مشكل
ما لاح فجر صوابه ... كالشمس من خلف الغمامة
لا تميل إلى شماس
دون موضعها الشريف

(٢) يقارن الشاعر بين الوزير ابن الأفضل وسليمان النبي الذى فقد خاتم ملكه ولكنه استرده بعد أربعين يوما ، وصخر بن ابليس اسم الجنى الذى أخذ الخاتم من سليمان بن داود (أسطورة) .

أعـده لى معقـلا   أضحى عليـه معولى

عنـد المثـول ببـابه   لمـا أمنت من النـدامـة

فى السماع وفى القيـاس

المحـض والنظـر الشريف

أجـله عـن مثـله   مثـل الحسام الفيصـل

مـاض بحـد ذبابـه   فى كل جمجمة وهامـة

ثـابت صعب المـراس

عـلى مبـاشرة الحتـوف

ففى النص إشارات دالة على الاضطهاد الذى كان يتعرض له، فالأمر مشكل ، والخطب معضل . وأنه له المأوى والمعقل ، لأنه صاحب الحسام الفيصل الثابت على مباشرة الحتوف .

وهنا تؤدى الموشحة فى الأدب السكندرى بخاصة — والمصرى بعامة — ما كانت تؤديه فى الأدب الأندلسى وغيره من معالجة موضوعات هى أصلح فى قوالب أخرى ، والقوالب الأخرى أليق بها فقد كانت — بطبيعتها — أدنى وصلا وأشد ملاءمة للوصف والغزل والخمر حيث تجرى — كما نراها هنا — على وزن قصير — وتختلف فيها القوافى فى أشكال مختلفة رباعية وخماسية وسداسية فى مجموعات ذات مراكز وأغصان ، هذه الصورة أو هذا النظام أليق بألحان المغنى ، وأوثق علاقة بموضوع يصلح للغناء ، لا المدح الذى نحس فيه جلبة ، وجرساً قوياً ونفساً طويلا لا ينقاد فى مثل هذا القالب المرن المتعدد النغمات .

ومن شعرائنا السكندريين المشهورين ممن جروا فى شعرهم على طبع وكان حظهم منه وافراً فى خفة روح ، وفكاهة عذبة الشاعر ابن مكنسة ، عرف به صاحب (الرسالة المصرية) فقال هو « أبو الطاهر اسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة ، وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله . . . »[١] كان قد عكف على مدح عز الدولة فائق إلى أن فرق الدهر بينهما ، وكان فى أيام أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعاً إلى عامل من النصارى يعرف بأبى مليح وأكثر أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه واستماحته فلم يقبله ، ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق من مدائحه لأبى مليح ومراثيه ميتاً . وقد كفله عز الدولة بن فائق وقام بحاله إلى أن مات[٢] .

هذا الشاعر يعتذر بمعاذير مضحكة ليتخلف عن دعوته — وقد عزم عليه بعض الأمراء فى المسير معه إلى الشام لقتال الغز[٣] فيقول :

غير عاص عليك تقويم عودى   فانقصى من ملامتى أو فزيدى

قل لمولاى إذ دعانى لأمـر   قمت فيه له مقام العبيـد

ضعفت حيلتى وقل عنـائى   ودنت غايتى ورث جـديدى

أنا مالى وللشـآم وانى   لأرى نار حربها فى وقـود

بلد جنـه عفارية[٤] الغـ   ـز وأرض وحوشها من اسود

والجفار[٥] التى تقـول إذا ما   قيل هلا امتلأت : هل من مزيد

(١) الرسالة المصرية ص ٤٣ من سلسلة (نوادر المخطوطات) .
(٢) الخريدة جـ ٢ ص ٢١٢
(٣) الغز : جنس من الترك .
(٤) عفارية : جمع عفرية بمعنى عفريت .
(٥) الجفار : جمع جفرة وهى الحفرة الواسعة وتطلق على الشمال من طورسينا .

وكأنى على بعـــــير ترانى   آخر الناس فى لفيف الحشود
أسود الوجه ناظراً فى أمور   معضلات من الحـــوادث سود
وإذا قيــل فى غـد يلتقى النــا   س فلا تنس فهو بيت القصيــد
حيث لا ناظرى تراه جديداً   حين يبدو له بريق الحـــديد
حيث لايتقى لســـانى ولا يثـ   ـنى عنان المغـــير عنى نشيدى
إن رأيى إذا يســــدد نحوى   سهم رام لغـــير رأى سديد
فإذا ما قتلت كنت خليقـــا   بدخولى جهنما وخلـــودى
فأقلـنى عثـــارها وابق للحمـ   ـد وكبت العدا وغيظ الحسود

وهذا لون من الشعر السياسى يمثل صاحبه فى ضعفه وذله وانكساره وعدم غنائه فى الحروب معتذراً بالخوف من العفاريت ، والوحوش ، والصحراء المهلكة . وقد كل ناظره ، وقصر عن النفاذ نشيده ، وضعف رأيه لفساد عقله . وكل هذا لينجو بنفسه من منازلة عدو ، ومدافعته عن وطنه ، على أن هذا الأمير كان يعبث به لبرى مايكون ، ولعله كان شائعاً أن الشاعر هلوع . . .

ولعل أبرز صفات هذا الشاعر أنه جيد الأسلوب محكم ، وفى سهولة ويسر يجرى على طبع ، وأنه خفيف الظل ، مرح ، كأنه من شعراء عصرنا الحديث ، فى لغتنا الجارية ، وكم هو لطيف فى تعبيره (أنا مالى وللشآم . . .) فهو مثل على الروح المصرية الفكهة فى هذا الشعر .

وشاعر آخر وفد على مصر وأقام باسكندرية سجينا ثلاث سنين هو أبو الصلت أميه بن عبد العزيز شارك بشعره فى الحروب الصليبية على عهد الأفضل بن بدر الذى أمر بحبسه بسبب إخفاقه فى انتشال مركب

من قاع البحر كان قد أبدى مقدرته على ذلك ولكنه بعد تاطفه لما صنع لم يسعفه القدر فحنق عليه الأفضل وأمر بسجنه وبقى معتقلا إلى أن أطلق سراحه بشفاعة بعض الأعيان فيه . هذا الشاعر وقف مدافعا عن الأفضل فى وقت منيت فيه جيوشه بالهزائم المتكررة أمام الصليبيين بجوار بيت المقدس فاعتذر أميه عن هزائمه بثورة بعض الجنود على الأفضل فى قصيدته قائلا :

جردت للدين ، والأسياف مغمدة   سيفا تفــل به الأحـــداث والغير

وفى هذا إشارة إلى تقاعد بعض حكام البلاد الاسلامية الأخرى عن مواجهة خطر الغزو الصليبى . ثم يتحدث عن شجاعة الأفضل ويأخذ فى الاعتذار عن هزيمته ، ويتوعد الصليبيين بعودة الأفضل اليهم والانتصار عليهم قائلا :

وإن همو نكصوا يوما فلا عجب   قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العود أحمد ، والأيام ضامنــــة   عقبى النجاح ، ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت   بما يسرك ساعات لهـا أخر

وعاد الأفضل اليهم وتكررت هزائمه ، واضطربت أمور مصر حتى ولى الأمر الملك الصالح طلائع بن رزيك فأخذ يرســل الجيوش المصرية فى غارات عليهم متلاحقة حتى سمى «أباالغارات» فكان ينتصر حينا، وينهزم حينا وسجل شعراوءه — وهم كثير — انتصاراته عليهم ،وكان منهم ظافر الحداد الشاعى السكندرى الذى قال عنه السلفى فى معجمه (كان من مفلقى شعراء ديار مصر . وقال عنه أبو الطاهر بن عوف : ظافر الحداد ما عرفنا له قسط خربة أى فساداً فى الدين كمثل الشعراء)[1] وقال عنه العماد (أقول : ظافر ،

(١) معجم السلفى ؛ الورقة ٩٨

بحظه من الفضل وافر ، يدل على نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى ، والله له غافر)[1]

ونقول : انه اتصل بطلائع وسجل بعض معاركه مع الصليبيين فقال :

عن سيف دين الله سل أرناطا ... حيث المنية كأسها يتعاطى
والمشرفية قد حكت فى جيشه ... فى العـل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا ... أشفى وعاين مخلبا عطـاطا
هو ملبس حيث العدا فى الحرب من ... حلل النجيع مجاسدا ورباطا
فجياده تشكو مزاحمة القنـــا ... وترد خرصان الرماح سياطا
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا ... من دينه الأطراف والأوساطا
كم قد أنار من الأسنة أنجمـا ... لما أثار من العجاج عطـاطا
فتخاله ملكا رمى بشهـــابه ... فى الروع شيطان الحروب فشاطا

شذرات الذهب ٤ - ٩١

وإخالك كارها مستثقلا هذه القافية الغليظة ، مستغربا أن يختارها شاعر له حظ من ذوق مرهف كما تقف معى على صورة هذا البطل فلا تجد لوحة تبرز صفاته ومظاهر نشاطه وانتصاراته ،وملامح تحدده ، غير تلك الأوصاف العامة التى تصلح لأى شخص آخر فى موقف كهذا الموقف .

وكان ممن حرك الأحداث السياسية التى وقعت فى آخر عصر الدولة الفاطمية شاور بن مجير السعدى وابنه الكامل ، إذ حاول هذا الوزير أن ينفرد بالسلطان فقضى على الملك العادل رزيك بن طلائع إذ قتله ابنه ،

(١) الخريدة جـ ٢ ص ٣ والخليفة المعاصر هو الآمر .

واستعان بنور الدين مرة ليعيده إلى الحكم بعد أن أوقع به خصمه ضرغام ، وما أن استعاد منصبه حتى قلب لظهيره ظهر المجن ، واستعان بالفرنج فتدخلوا فى الأمر ، وألقوا بثقلهم على مصر ثم انتهى الأمر بقتله ، ووقف الشعر من تلك الأحداث مؤيداً أو معارضا ، وكان أبو الفتوح الأعز نصر الله المعروف بابن قلاقس الشاعر الإسكندرى من الشعراء المكسبين المحترفين ، الواقفين بكل باب يستجدون ويستكفون ، قد مدح شاورا هذا وعرض بأسد الدين شيركوه فقال :

عارض الصفح فى يديك الصفاحا ... ورأى البأس أن تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الـذنـ ... ـب بعفو خفضت منه الجناحا
ووضعت السلاح حين أراك الـ ... ـحزم والرأى بأن وضعت السلاحا
أى ثغر سما إليـــه أبو الفتـ ... ـح فلم يبتدر إليه افتـتاحا
بخيول طارت بأجنحـة النصـ ... ـر فراحت بها تبـارى الرياحا
وكماة غر قد اقتطعــوا الليـ ... ـل وساقوه فى العجاج صباحا
ورماح تجنى فتجنيك فى الحر ... ب شقيقاً ما كان من قبل إقاحا
وظُباً تلقح الترائب مهـــما ... ألقحت بالضراب حيـا لقاحا
شاركت شيركوه فى النفس والما ... ل وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمنَ فاستجيب وما يعـ ... ـرف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ما ضيق الحمـــام عليه ... سبلا غودرت لديه فساحا
وأقامته كالجــزور حماة ... ضربت بالقنا عليـه القداحا
فليطل بعدها الفخار فقد را ... ح طليقاً لبيضكم حيث راحا
يا معل الظُّبا البواتر ضربا ... ترك المجـد والمعالى صحـاحا

فيـــك لله والخليفـــــة سر — أو ضحاه لمصرنا إيضـــــاحا
ذاك أعطاك آية النصر تصر — يحاً وهذا أعطاك ملكاً صرحا[1]

ومدح الكامل بن شاور فقال :

حمد السرى من كنت وجه صباحه — من بعد ذم غدوه ورواحـــه
ورأى النجاح مؤمـــــل ألحقته — من حسن رأيك فيه ظل جناحه
وأما وعزمك وهو أنهض فاتك — لقد انبرى والصفح تلو صفاحه
وبديع مدحـــك وهو أينق متجر — لقد اغتـــدى والعز فى أرباحه
فالدهر بين فـــريده وفرنده — متقلـــد بنجاده ووشـــاحه
بأس تورد فى خـــدود شقيقه — وندى تبسم فى ثغـــور أقاحه
والكامل المســـعود فى آفـــاقه — بدر جلا الإمساء عن إصباحه
بمناقب سمت النـــجوم لنيلها — فاستخدمتها فى رءوس رماحه
ومواهب عان الســـحاب معينها — فاســـتغرقته فى بحور سماحه
يا آل شاور أنتم دون الورى — للملك كالأرواح فى أشباحه
وإلى معاليكم إشارة خرسه — وعلى أياديكم ثنـــاء فصاحه
لم لايكون الشكر عندك منتجاً — ونداك قوام بأمـــر لقاحه

وهو فى هذا المديح يشير إلى أحداث لعلها التى جرت بعد أن ضيق هو والفرنج على الإسكندرية — وفيها صلاح الدين وأهلها المناصرون له — الحصار ، وأخرج منها مكرهاً ، وأحدث شاور فى أهلها الأحداث من قتل وأسر ، وافتدى من افتدى ، ولاذ آخرون بالفرار .

(١) منتخبات من ديوانه ؛ ص ٢٥

وكان الكامل يد أبيه الباطشة ، والشاعر المسئول لا يعنيه مما يقول إلا أن تندى كف آل شاور فتلقح شكره على صنيعهم الحسن فى استعارة نابية عن الذوق ، وإلا أن يكون بديع مدحهم أينق متجر تغتدى بالربح الوفير . ويفقد الشعر صدق الشعور ، وأصالة الفن وحرارة العاطفة ليتنفس فى هـذا الجو الغائم حيث يبدو التكلف ظاهراً فى استخدام الألفاظ وتأليف التراكيب ، والتكرار ، والاهتمام البالغ بالمحسنات البديعية التى أثقلت هذا الشعر ، ونأت به عن الذوق السليم ، ولا غرو فقد كانت داء العصر ، وظلت كذلك حتى أفسدت الكلام ، والأذواق ، وأصبح الأدب وأمسى شكليا يعنى بالقشور دون اللباب كما يقولون .

ولايثبت شاعرنا على مبدأ لأنه لا يدين بمبدأ غير دين المسألة أعطاه الممدوحون أو منعوه ، فنراه يتوجه إلى القاضى الرشيد — مدة اختفائه بالإسكندرية خوفا من بطش شاور به ، وقد قتله ظلما وعدوانا — بهذه الأبيات التى تكذب سابق قوله :

تدانيت دارا والوصول شسوع — فخلك ذو الود الوصول قطوع
حجبت ولم تحجب محاسنك التى — تأنق منهـــا ياغمام ربيـــع
وضيعت فى صون فضعت وهكذا — يصان فتيت المسك وهو يضوع
وأنك والبيت الذى قد عمرته — لكا لقلب قد ضمت عليه ضلوع
وما أنت إلا العضب لازم جفنه — لينضى بكف — إذ يروق — يروع
سيفتق عن زهر بديع كمـــامه — فمـــا ذاك من صنع الإله بديـــع
وتسفر عن صبح شريق دجنة — ولا سيما قد كان منـــه طلوع
كأنى بها يا ابن الكـــرام مغيرة — لها فوق هاتيك الربوع ربوع

بحيث تريك البر كالبحر ذبل ... وبيض وبيض أشرقت ودروع
وفرسان حرب لا البعيد عليهم ... بعيد ، ولا العالى الرفيع رفيع
بذلك لا تعجب فإنى قائل ... وإنك فى الشهر الأصم شميع

على أنه يبدو هنا صادق اللهجة ، قوى الشعور ، ومن أجل ذلك جاء شعره قويا ، محكم النسج ، بعيدا عن التصنع المبغوض ، والتحسين المسرف ، قريب الروح من المتنبي أو ابن هانى ، وهى مما يعد له من الحسنات والبدائع المأثورة التى صدرت عن فن أصيل ...

ولكنه يعود إلى مضطربه الواسع الذى ينأى به عن مستقر المبادىء ، وثابت القيم فنراه يمتدح ما فعله الكامل ابن شاور بآل رزيك الذين جاهدوا فى سبيل الله والعروبة حق الجهاد فيقول :

بك الإسلام قد لبس الشبابا ... وكان سناه قد ولى فآبا
وقد لبست بك الدنيا جلاها ... جلاها حسنها خودا كعابا
وأحسب أن أنجمها كئوس ... تكون به مجرتها شرابا
وبدر من بنى سعد تجلى ... وقد جعل الدروع له سحابا
فلم ير قبله بحر خضم ... أفاض على معاطفه سرابا
رسا طودا وأسفر بدر تم ... وجاد غمامة وسطا شهابا
مروض الحكم طاح المواضى ... إذا ساموه عفوا أو عتابا
وكم زهرت رياض دم تغنى ... ذباب حسامه فيه ذبابا
وقالوا أطول الأفلاك باعا ... فقلت نعم ، وأنداهم جنابا
سلوا عنه بنى رزيك لما ... أقاد الحرب منهم والحرابا
فان جعلوا الظلام لهم مطيا ... فكم جعل النجوم لهم ركابا
ولو شاءت صوارمه المواضى ... أقامت دونهم سورا وبابا

وينقاد له القول مجوداً كلما عظم الدافع لديه ، ولوكان دافعاً إلى الحصول على المنح الوفيرة كما نراه فى هذا الشعر حيث نحس صدق عاطفته ، وجميل موسيقاه ، وإن خانه الاختيار لبعض الألفاظ من مثل (مروض الحكم) حيث يشقى بالاشتقاق ليخضع النظم الذى ينوء به .

وكذلك فعل القاضى الرشيد الذى اغتالته يد شاور نراه يمدح ابنه ، ولعله فعل ذلك مداراة واسترضاء أن يعفو عنه ، ويغفر له ذنبه ، وقد كان لصلاح الدين رِدءاً وعوناً على شاور فقال فى مدح الكامل وقد ساءه اضطراب الأحوال :

إذا ما نبت بالحر دار يودها ... ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم
وهبه بها صبا ألم يدر أنها ... سيزعجه منها الحمام على رغم
ولولا الأجلُّ الكاملُ المَلْك ارقلت ... بى العيس فى البيداء والسفن فى اليم
ولم تكن الدنيا تضيق على فتى ... يرى الموت خيراً من مُقام على هضم

وقد كان عصر شاور ومن والاه عصر فساد واضطراب لم تستقر فيه النفوس، ولم تطمئن الجنوب فى المضاجع فأظلمت الدنيا فى وجوه الأحرار ، وضاقت بهم على رحبها حتى رأوا الموت آثر لديهم من المقام على ظلم مما يعد انعكاساً لمجرى الأحداث وتقلبها .

على أن كثيراً من الشعراء قد رحبوا بمقتل شاور وهجاه بعضهم ووصفه بالغدر والخداع ، وممالأة الفرنج ، ورحب كثير منهم بشيركوه ، مستبشرين به موحداً كلمتهم ، جامعاً شملهم ، ثم سقطت الخلافة الفاطمية إلى الأبد ، وهب الشعراء الموالون للأيوبيين يذمون رجال الدولة الفاطمية وعهدها ، ويذهبون فى تأييد صلاح الدين كل مذهب ، ويعتبرونه حامى

حمى الإسلام وناصر دين الله فى الشرق العربى كله ، وجامع المسلمين على
كلمة سواء : هى أن يتحدوا وأن يصير شملهم جميعاً ليتحقق النصر ويُغلب
الروم ، وتبقى للوطن المقدس حرمته مصونة ، وللدين القويم سلطانه العظيم ،
وقد قام الشعر بوظيفته — حينئذ — خير قيام فأثار الحماسة ، وألهب النفوس
حمية وغيرة دينية وقومية أعادت للمسلمين ما فقدوه .

وعلى الرغم من كثرة عدد الشعراء وغزارة الشعر فى عصر الدولة الأيوبية
على نحو ما نرى فى « الروضتين » مثلا إذ وقف جهاده إلى جوار بلاء الجند
فى الميدان ومجّد انتصارا ت الأبطال — فإننا لم نجد من بين شعراء الأسكندرية
ممن عاصر هذه الدولة من عاش هذه الأحداث الجسام ، ووقف منها موقف
المؤيد ، الناصر ، المشيد بأمجادها الخالدة ، كما فعل شاعر كالعماد أو أسامة
ابن منقذ أوابن منير أو القيسرانى أو غيرهم كثير من شعراء الخريدة والروضتين
وشفاء القلوب ، ومفرج الكروب ، ما يعد — بحق — قصوراً من شعراء
الأسكندرية عن الارتفاع إلى مستوى هذه الأحداث ، وتقصيراً فى جنب
الله والدين والقومية العربية، والأخوة الإسلامية التى برزت بكل خصائصها
ومقوماتها فى عصر الملك الناصر صلاح الدين طيب الله ثراه .

٢ — المدح

يعتبر فن المديح فى الشعر العربى أوسع فنونه مجالا للقول ، وأغزر إنتاجاً ،
وقف عليه الشاعر الكبير ، والشاعر الصغير ، ولاكته الألسن دهراً طويلا
— لاستدرار النعمة ، واحتلاب الخير ، وسعة الرزق منذ وجد فى الشعر
العربى الجاهلى — وقد غلب عليه — حينا من الدهر — عنصر الأصالة والصدق،
والرغبة السامية فى الإشادة بالبطولة وإعلاء شأن العقيدة ، وتمجيد الفضيلة
فى أشخاص ممتازين قدموا للناس نماذج للصنيع الحسن ، والمعروف الجميل ،
والإصلاح بين الناس بحمل الديات — مثلا — عن المتقاتلين ، قصما لظهر
الشر ، وكيداً لشيطان الحمية الجاهلية . ولما علقت نفوس بعض الشعراء
أبواب ذوى الرياسة والسلطان والثروة والجاه ، وما لوا بالفن عن طريقه
السوى — وجدنا شعر المديح يخرج عن غرضه الأسمى ، ويحشوه قائله
أو ناظمه ، بالبهرج الزائف ، والقول الكاذب ، والمبالغة المسرفة ، والادعاء
الباطل ، تأجيجاً لنار خصومة أو طلباً لمثوبة ، وما زال ميزانه على هذه الحال
راجحاً ردحاً طويلا حتى ألمت بالأمة العربية أحداث وطاف بها طائف الشر،
يحيق بها طمعاً فى خيرها ، ورغبة فى بسط السلطان عليها ، فقامت حروب
بين العرب والروم ، وهبت الأمة كلها تدفع عنها الشر ، فى بطولة فائقة
وحماسة غنية بدوافع الكرامة والعزة ، والغيرة القومية ، فمجد الشعر هذه
البطولات ، وأذكى نار الحماسة فى النفوس ، وأدى الشاعر مهمته فى الإبقاء
على هذه الجذوة المقدسة دفاعاً عن الدين والعرض والوطن ، ونفخ فى الشعب
الإسلامى من روحه ، كما أثنى على أبطاله ، وأعلى ذكرهم فى الخالدين ،
فمضوا إلى الجهاد فى سبيل الله ، وبذلوا ما وسعهم البذل حتى كتب الله لهم

النصر ، وهنا نسمع صوت الشعر القوى الصادق المؤثر ، يعود مجلجلا
من جديد ، مذكراً بشعراء الجاهلية ، والدعوة النبوية وشعراء المعتصم
وسيف الدولة ، ويرفض أن يظل فى خدمة غنى أو أمير أو خليفة ذى شأن
خطير ، يحتفل بمظاهر الأبهة والجلال ، كما يأبى أن يكون سلعة تباع بالثمن
البخس لمن لا يقدرها حق قدرها ويخرج عن إطار الكذب الصراح ،
والتذلل والنفاق ، كسباً لمغنم ، وطمعاً فى مال ، وعندئذ أحسسناه حافلا
بالمعانى القوية ، والصفات المجيدة ، والأغراض الحميدة ، وخدمة الأهداف
الدينية والقومية .

فلما كان عصر الدولة الفاطمية ، وقد دهمهم الفرنج من الغرب ببأس
شديد ، وجدنا شاعرهم الكبير ابن هانئ ، الأندلسى يقف مدافعاً عنهم ،
ومعليا شأنهم ، ومعلنا عن عظمتهم ، ومشيدا ببطولاتهم وقوتهم وعدتهم وانتصاراتهم
وخلد هذا الشعر خلود الأثر العظيم ، واشتد بأس الفرنج مرة أخرى مقتحمين
ثغور الشرق وأطرافه النائية وزاد طمعهم فى بسط سلطانهم عليه لما وجدوا
ضعف الأمة الإسلامية. وتخاذل خلفائها وأمرائها ووزرائها ، وتقاتلهم على السلطان ،
وتنازعهم فى سبيل الحكم ، ولم ينهض إلا الأتابكة ومن ولاهم من بنى أيوب
وقد كانوا قادة — لحمل العبء وحدهم ، ونالوا شرف الجهاد فى سبيل الله
دون سواهم ، فهب الشعر من جديد ينفخ فيهم من روحه حتى استيقظوا
ووجدنا المصريين جنباً إلى جنب مع إخوانهم الشاميين يسهمون فى دفع الشر
وإعادة الحق إلى نصابه ، والوطن إلى أصحابه ، وشارك شعراء القطرين مشاركة
ظاهرة الأثر فى تحميس النفوس ، وإعلاء شأن الجهاد ، وتمجيد البطولة
وتقوية روح الأخوة الإسلامية والعربية ، وكان أن عادت للشعر وظيفته
فى خدمة المجتمع ، والدفاع عن أهدافه ومثله التى يؤمن بها ، ويضحى فى
سبيلها وامتلأ — كما كان — بفيض من الإحساس الصادق ، والقول المؤثر

المعبر ، والصور الرائعة ، والمعانى القوية وحفلت أسفار التاريخ
ومجموعات الأخبار والأشعار ، ودواوين الشعراء فى العصرين الفاطمى
والأيوبى فى مصر والشام ، بما يملأ النفوس عزه ، ويثير الإحساس بالمتعة
والجمال والجلال .

ومنذ فتح الفاطميون مصر ، ومدوا بسطهم للشعراء ، وأكفهم بالنوال
غزر شعر المديح ، وكثر عدد الشعراء حتى توافدوا عليهم من كل قطر
وسعوا فى سبيل الغنى جاهدين لا يلوون على شئ إلا أن يحققوا من ذلك كل
ما يستطاع ، باذلين من ذات نفوسهم كل مرتخص وغال متاجرين بفنهم فى
سوق الدعاية للدولة والمذهب صادقين — عن عقيدة — أو كاذبين ، مخادعين
متكالبين على الحالين وقد بلغوا من ذلك ما أرادوا — وقد فطن الخلفاء إلى
ما لهم من إعلان عنهم ، ودعاية لمذهبهم فلم يبخلوا عليهم ، حتى غزر
النتاج الأدبى ورقى القول فى بعض فنونه ونشطت سوق الشعراء، وراجت
بضاعتهم حتى وجدنا شاعراً كابن هانئ يحكم فى الأموال، وكعمارة اليمنى
تخلع عليه الخلع الموشحة بالذهب وتقام له الولائم فى بيوت الأمراء تكريماً
له من أجل قصيدة أنشدها فى « قاعة الذهب » فى عهد خليفتهم (الفائز)
مشيداً فيها بمذهبهم ، ومشيراً إلى بعض عقائدهم ومصطلحاتهم التى بها
يدينون كعصمة الإمام ذاهباً فى المبالغة كل مذهب ، وغيرهم كثير حتى
إنهم بلغوا — مرة — مائة شاعر كلهم راث لابن كلس عند وفاته[1] — وقد
كانت فواضله عليهم سابقة :

وعلى الرغم من ازدهار هذا الشعر وكثرة ما أنتجه الشعراء فى فنونه
المختلفة ، فقد اباده الأيوبيون فيما أبادوا من تراث هذا العصر ولم يبق منه إلا

(١) أنظر ابن خلكان فى وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤٣

القليل مما احتوته كتب التاريخ والمختارات وفقدت الدواوين التى تصور حال الشعر ، وتجعل الأحكام النقدية أقرب إلى الصحة فى تقدير هذه الحال .

وننظر فى ثبت شعراء الإسكندرية فلا نجد شاعراً قد بقى له ديوان غير ما ما نسب إلى ابن قلاقس فإنه — فى الحقيقة — مختارات جمعها ابن نباته المصرى كما يقول فى مقدمتها المخطوطة .

وكذلك لا نجد شاعراً من شعرائها قد نهج فى مدائح الفاطميين نهج ابن هانئ أو الشيرازى أو عمارة اليمنى فى الأشادة بالدعوة والأئمة وأصول المذهب ومصطلحاته ، ومع ذلك فأين ديوان شاعر كالقاضى الرشيد ، ناظر الثغر وظافر الحداد وغيرهما من شعراء المدينة من أصحاب الدواوين على الرغم من غلبه التأثر بالمذهب السنى فيها وانتشار مدارس أهل السنة ، وسلطان العلماء السنيين على أهلها من أمثال أبى بكر الطرطوشى والحافظ السلفى وابن عوف وابن المنير الجذامى بحيث لم يجد صلاح الدين وأنصاره عناء فى سبيل حمل أهلها على طرح التشيع والاعتقاد فى مذهب الجماعة ، اللهم إلا أن يكون سبب الضياع ما يصاحب الثورات — غالباً — من الاندفاع وارتكاب الأخطاء .

ولعل العماد صاحب الخريدة يفسر سبب ضياع ديوان ظافر ، إذ يقول (وما أكله لولا انه من مداح المصرى[1] .

ودارس هذا الشعر الباقى مضطر أن يستوعب كل ما جاء به ليصح به الحكم على وجه من الوجوه ويكون ما عرف شاهدا على ما لم يعرف أو مشيراً إليه ، ولذلك آثرت أن تطول بعض المختارات للوقوف على مختلف الاتجاهات وفنون القول ، ومناهجه ، وخصائصه على قدر المستطاع .

(١) الخريدة جـ ٢ ص ٣

وأول ما يلحظه الدارس غلبة شعر المدح على غيره فى الفنون الأخرى إلى درجة تحمل على الظن بأنه كان تجارة رائحة ، ومذهباً فى الرزق يسلكه المحسن والمسىء ، وأنه اتخذ وسيلة للتقرب والزلفى وأنه قليلا ما اتجه وجهة تكسبه صفات القوة والصدق وسمو الأهداف ،

وإلا فأين ما شاركوا به فى معترك الأحداث الصليبية ، وقد دقت أبواب الإسكندرية بخاصة والشرق العربى بعامة . وقد كان أولى بهم أن يفعلوا لا أن ينكصوا عن المشاركة الجادة فيما شارك فيه غيرهم من تمجيد البطولة والدعوة إلى الاستشهاد وتحميس القلوب وإثارة الحمية للدفاع عن الأوطان وبذلك كانوا يستحقوا أن تبقى آثارهم دليلا عليهم ويخلدوا على الزمان . ولكن تفاهة القول ، وضعف الوسيلة ، وضعة الهدف فى هذا المدح كانت مظاهر لا نحطاط الشعر وهوان الشعراء .

فهذا (ظافر الحداد) يمدح والى المدينة وقد ضاق خاتمه عليه وورم بسببه فيقول :

قصر عن أوصافك العالم	وكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة	يضيق عن خنصره الخاتم[1]

ويمدحه بآخرين قائلا :

رأيت ببابك هذا المنيف	شباكا فأدركنى بعض شك
وفكر فيما رأى خاطرى	فقلت البحار مكان الشباك[2]

وهو شعر يقوم على المبالغة والذهنية ويفتقر أشد الافتقار إلى الروح النابض والأسلوب الحى والأصالة والصدق . وكذلك القول فى قصيدته التى

(١) ، (٢) الخريدة جزء ٢ ص ١٥ والبدائع والبدائه لابن ظافر وابن خلكان جـ ١ ص ٢٤١

مدح بها ابن أبى حديد القاضى ، وهنأه فيها بشهر رمضان بحيث لا نقع على صورة شخص ، أو معنى قوى ، أو أسلوب يتدفق بالسلاسة أو القوة والجزالة فى غرض تناسبه القوة والجزالة ، ونقرأ قوله مبتدئاً بمطلع غامض :

شهر الصيام بك المهنا   إذ كان يشبه منك فنا
ما سار حولا كاملا   إلا ليسرق منك معنى
وينال منك كما ننا   ل ويستفيد كما استفدنا
فرأى هلالك من محـ   ـل هلاله أعلى وأسنى
بهرت محاسنك الورى   فأعادت الفصحاء لكنا
وإذا مدحناك احتقر   نا ما نقول وإن أجدنا
والفضل أجمع بعض وصـ   ـفك فهو غاية ما وجدنا
ان الذى صدح الحما   م به ثناؤك حين غنى
وأظن ذلك موجبا   طرب القضيب إذا تثنى
فتهن شهرك واسترد   بقدومه سعدا ويمنا
فكانه من عامه   كمكانك المحروس منا[1]

نقرؤه فلا نجد المعانى القوية أو الصورة الواضحة المؤثرة ، أو الألفاظ الدقيقة البارعة ذات الإيحاء والجرس ، ولكنا نستنكر صورة التشبيه فى البيت الأول ونتكر غموضه ، ونراه غير موفق فى اختيار كلمة (يسرق) لعدم ملاءمته للحال ، وكلمة (احتقرنا) وقوله (وأظن ذلك موجباً) مما قد يدل على ثقافة أدبية ولغوية ضحلة ، وذوق غير سليم ، وتكلف ذميم ، للوجه الذى بدا لنا منه . . .

(1) الخريدة جـ ٢ ص ٦

وقصة علاقة ظافر بأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى مذ كان حبيساً بالثغر مشهورة ، فقد كانت علاقة قوية تركت وراءها آثاراً أدبية تمتاز بالجمال والعاطفة الصادقة واستحقت لذلك أن يحفظها التاريخ الأدبى ، فقد استشهد (أمية) ببعض شعره فى رسالته المصرية[1]. وقد مدحه ظافر بقصيدة أرسلها إليه عندما فارق أمية الإسكندرية ضائقاً ذرعاً بمصر ، بسبب ما لقى فيها من الخيبة والعنت ، فكتب إليه ظافر متشوقاً مادحاً :

ألا هل لدائى من فراقك إفراق   هو السم لكن فى لقائك ترياق
فيا شمس فضل غربت ولضوئها   على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد عهدا منك عمر عهده   بقلبى عهد لا يضيع وميثاق
يجدده ذكر يطيب كما شدت   وريقاء كنتها من الأيك أوراق
لك الخلق الجزل الرفيع طرازه   وأكثر أخلاق الخليقة أخلاق
لقد ضاءلتنى يا أبا الصلت مذ نأت   ديارك عن دارى هموم وأشواق
إذا عزنى طفاؤها بمدامعى   جرت ولها ما بين جفنى إحراق
سحائب يحدوها زفير يجره   خلال التراقى والترائب تشهاق
وقد كان لى كنز من الصبر واسع   فلى منه فى صعب النوائب إنفاق
وسيف إذا جردت بعض غراره   لجيش خطوب صدها منه إرهاق
إلى أن أبان البين أن غراره   غرور ، وأن الكنز فقر وإملاق
أخى ، سيدى ، مولاى ، دعوة من صفا   وليس له من رق ودك إعتاق
لئن بعدت ما بيننا شقة النوى   بمطرد طامى الغوارب خفاق
وبيد إذا كلفتها العيس قصرت   طلائح أنضاها زميل وإعناق

(1) الرسالة المصرية لأمية ص ٥٣

فعندى لك الود الملازم مثل ما   يلازم أعناق الحمائم أطواق
ألا هل لأيامى بك الغر عودة   كعهدى ، وثغر الثغر أشنب براق
ليالى يدنينا جواب أعادنا   من القرب كالصنوين ضمهما ساق
وما بيننا من حسن لفظك روضة   بها حسدت منا المسامع أحداق
حديث حديث كلما طال موجز   مفيد إلى قلب المحدث سباق
يزجيه بحر من علومك زاخر   به كل بحر فائض اللج رقراق
معان كأطواد الشوامخ جزلة   تضمنها عذب من اللفظ غيداق
به حكم مستنبطات غرائب   لأبكارها الغر الفلاسف عشاق
فلو عاش رسطاليس كان له بها   غرام وقلب دائم الفكر تواق
فيا واحد الفضل الذى العلم قوته   وأهلوه مشتاق يشم وذواق
لئن قصرت كتبى فلا غرو أنه   لعائق عذر والمقادير أوهاق
لكتب وآفات البحار تردها   فإن لم يكن رد على فإغراق
بحار بأحكام الرياح فإنها   مفاتيح فى أبوابهن وإغلاق
ومن لى أن أحظى إليك بنظرة   فيسكن مقلاق ويرقأ مهراق[1]

وهى قصيدة ظهر فيها جهد فنى ، وفاضت بالعاطفة الصادقة ، وأحسن فيها اختيار الوزن والقافية على الرغم من أن لسان النقد يمكن أن ينال منها إذ نراه يتكلف فى بعض قوافى الأبيات ، فيكره الألفاظ الجارية عليها والقلقة فى مكانها والمترادفة فى بعض الأحيان ، ويضعف تأليفه فى أحيان أخرى كما نرى فى هذا البيت :

سقى العهد عهدا منك عمر عهده   بقلبى عهد لا يضيع وميثاق

(١) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٥٤

وترادف (فقر وإملاق) وثقل (المقادير أوهاق) وتكلفه الزينة ، واعتماده على المبالغة .

وتشهد الإسكندرية شاعراً ممتازاً هو (ابن مكنسة) الذى أسلفنا عليه القول ، وقد انقطع فى أيام بدر الجمالى وابنه الأفضل إلى عامل نصرانى يعرف بأبى مليح فلما انتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه واستماحته فلم يقبله ولم يقبل عليه[1] فكتب إلى الأفضل أبياتاً منها :

مثلى بمصر وأنت ملك   يقال ذا شاعر فقير
عطاؤك الشمس ليس تخفى   وإنما حظى الضرير

وله يمدح أحد أخوين ويعرض بالآخر :

هم خبث الحديد وأنت مما   يصفى جوهر السيف اليمانى
وإن أورى زنادكم شرارا   فبين النار بون والدخان
وإن جمعت أنابيبا قناة   فأين الكعب من رأس السنان

ويقول أيضاً :

قل للغمام تبارى فيض راحته   وأنت فى كل وقت غير منهمر
وأين برقك من إيماض صارمه   وأين سيبك من جدواه بالبدر
يلقاك مبتهجاً والغيث فى يده   يهمى فيجمع بين الشمس والمطر

ويقول :

ولم ير كالمدائح فيه تسرى   خفافاً تحمل المنن الثقالا
وننشده مدائحه اقتضابا   فيعطينا منائحه ارتجالا

(١) الرسالة المصرية ص ٤٣

وإن كان شعره فى المدح لا يرتفع إلى مستوى الأغراض الأخرى التى أجاد فيها القول كالوصف والتشوق والغزل والفكاهة ، ولم يكن ضعف شعره فى المدح إلا لكونه وسيلة لكسب عيش ورغبة فى عطيه ، ومعانيه فيه جارية على التقليد أو الأخذ وتنمية هذه المعانى حتى تعد من لقطات ذهنه وتنسب إليه على أنه مفترعها كقوله :

يلقاك مبتهجاً والغيث فى يده ... يهمى فيجمع بين الشمس والمطر

وغرض أبو الصلت أميه لمدح الأفضل بن بدر بقصيدتين ابتغاء العفو عنه ، ولم يذكر مورخوه منهما غير مطلعيهما وأول الأولى منهما :

الشمس دونك فى المحـل ... والطيب ذكرك بل أجل

وأول الثانية :

نسخت غرائب مدحك التشبيبا ... وكفى بها غزلا لنا ونسيبا

وامتدحهما بعضهم بقوله :

وأما القصيدتان .. فما عرفت أحسن منهما مطلعاً ، ولا أجود متصرفاً ومقطعاً ، ولا أملك للقلوب والأسماع ، ولا أعجب للإغراب والإبداع ، ولا أكمل فى فصاحة الألفاظ وتمكن القوافى ، ولا أكثر تناسباً على كثرة ما فى الأشعار من التباين والتنافى[1] » .

ومعلوم أنه قد لبث بمحبسه فى الأسكندرية ثلاث سنين ، كتب فيها شعراً منه هاتان القصيدتان . وسكن الإسكندرية موسى بن على السخاوى الفقيه البليغ وكان — على ما قال صاحب الخريدة — شاعر تلك المدرة (المدينة)

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٤

وكان ممن مدحوا القاضى الفاضل ، ومن مدائحه فيه قصيدته البائية الجامعة للإحسان ، وفيها يقول بعد مقدمة غزلية جرياً على التقليد القديم :

المستبد بكل فضـله ... فجنابه المأمول أخضر مخصب
والمسترق حـرائر الشيم التى ... أبداً تصان على الأنام وتحجب
متحسـد من لفظه وبلاغه ... طفقت بأبكار المعانى تثعب[1]
كالنار إلا أنها لا تنـطفى ... والبحـر إلا أنه لا ينضب
وعليه من نور السكينة حلة ... وثق الزمان بأنها لا تسلب
يسم البراعة بالبراعة وسمة ... عند الخطوب وحين يعرب يغرب
ويقول إلا أنه القـول الذى ... أعيا وأعجز فهولا يتعقب
أضحى على سحبان يسحب ذيله ... تيهاً ، وعن أعراب يعرب يعرب
وحسامه القلم الذى لم يمضه ... إلا وذل له الحسام المقضب
عار وليس بمحرم ، ومنطق ... تلقاه وهو أصم أبكم يخطب
يقرى بريقته المنايا والمنـى ... أبداً ، ويرضى — إذ يهز — ويغضب
كالحيـة النضناض إلا أنه ... يسعى فيرجى حيث كان ويرهب
وتراه يصمت حين يرجى راجلا ... أبداً وينطق راكباً إذ يشرب
ويظل ينظر من ظلام فى ضحى ... فكأنما لحظ النهار الغيهب
واش بمكنون الضمير وعلمه ... عنه وعن فطن الأنام مغيب
فاذا وشى وشى المهارق أحرفا ... هن الرياض أصابهن الصيب

ومنها :

وإذا الكرام الكاتبون تصفحوا ... صفحاته كتبت رضوا ما يكتب
وتشف الخـط الأصيل بأنه ... يعزى إلى عبد الرحيم وينسب

(١) تثعب : تسيل .

فلذاك سالمه الزمان ولم يكن ... إلا على أحـــكامه يتقلب
وتقاصرت هم الرجال عن الذى ... لم يرض مركبــه وعما يركب
وعنت له الدنيا ودانت وهى إذ ... ملأت يديه ، بعض ما يستوجب

وهى قصيدة مطولة رسم فيها شخصية ممدوحه الكاتب البارع المؤثر بالقلم ما لا يؤثر أثره السيف وهو من يسم البراعة بالبراعة ،ويأتى بما يعجز ويغرب ، ويرضى ويغضب ، ويرجى ويرهب ويكشف عن مكنون الضمير ، والأمر المغيب ، وهو الفاضل ذو الشمائل قد اكتسى حلة السكينة والوقار ، وهو من أجل ذلك قد سالمه الزمان ، وتقاصرت دونه همم الرجال ، وخضعت له الأقدار .

والشاعر موفق فى اختيار وزنه وقافيته ، وحسن بصره بأساليب البلاغة العربية من تشبيه يحسن فيه « الاحتراس » واستعارة وبديع فى لفظ قوى وأسلوب محكم التأليف .

ومن الذين مدحوا القاضى الفاضل شاعر الإسكندرية الشهير ابن قلاقس وله فيه أمداح كثيرة تتردد بين الأوزان الطويلة والقصيرة ، ولا تمتاز إلا بالمقدمات الغزلية التى كان — فى الحق — يجيدها عن عاطفة قوية وصنعة محكمة ، ونفس مغرمة بالكأس والدمى ، وأحاديث السحر والأزهار ، والآس والثمار والرمان إلى آخر ما تردد فى مقدماته التى استغرقت مدائحه أو كادت تنسيه صاحبه . فلم يحظ منه إلا بالقليل مما لا يبلغ فيه من الإجادة مبلغ غرضه الأول .

فمن مدائحه فى القاضى الفاضل قصيدته التى يقول فيها :

دعته المثانى وادعتــه المثالث ... فها هو للنـــدمان والكأس ثالث
وقارف قبل الموت والبعث قرقفا ... يعاجله منها مميت وباعث

وكان الهوى أبقى عليــه صبابة ... من اللب وافاها من الكأس وارث
فقام إلى أم الخبائث ، أنهـــا ... بها أبداً تصفو النفوس الخبائث
واحيا بروح الراح جسم زجاجة ... على يده منها قديم وحادث
وكم قال للصهباء : إنى حالف ... فقالت له الصهباء : إنك حانث
وما العيش إلا للذى هو ماكث ... على غيه أو للذى هو ناكث
فيا راحلا بلغ أخــــلاى باللوى ... وإن رجعوا إنى على العهد لابث
دمى للدمى إن لم أرعها برحـــلة ... نديمى بها الدأماء أو فالدمائث
لى النافثات السحر فى عقد النهى ... فما هى إلا العاقدات النـــوافث
فمنها أحاديث عن الفاضل اعتلت ... ومنها على من شك فيه حوادث
حسام يفل الخطب والخطب معضل ... وطود يقل العبء والعبء كارث
من القوم تنميهم أصول ثوابت ... عليها فروع باسقات أثائث

إلى آخر القصيدة مادحاً بصفات الكرم ، وعراقة الأصل ، ومجالدة الخطوب ، ومنازلة الخصوم بالقول الفصل ، والحجة البالغة .

ويحس القارىء أنفاس « أبى نواس » تهب على هذه المقدمة وبخاصة من قصيدته :

ودارى ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جـــديد ودارس

وتكاد القافيتان تتهامسان أو تتلامسان فى مخرج الحروف ، وكذلك المعانى والصور ، وإن بدت روح ابن قلاقس نابضة بالحياة ، مرحة منطلقة ، تحسن القول وتجيد التصوير ، وتستعين بالموسيقا ليعظم حظه من التأثير إلى أن يصل إلى الممدوح فلا نحس إلا الشاعر يتكلف ويتصيد المعانى أو قل يستعرض مذخوره منها لنظمه فى هذا الوزن وعلى هذه القافية التى قد أرهقته نوعاً ما من الإرهاق .

ابن قلاقس هذا من شعراء الخريدة المشهود لهم بخصب القريحة ، والتماع الذهن ، وجودة القريض ، قال عنه العماد (ذكر لى نجم الدين بن مصال ، أنه كان من أهل الإسكندرية ، وقاد الخاطر ، ذا الفضل الوافر ، مات بعيذاب عند رجوعه من اليمن ولم يبلغ عمره ثلاثين سنة) : ٥٣٢ — ٥٦٣ هجرية .

وقال عنه ابن خلكان (وكان شاعراً مجيداً) وفاضلا نبيلا ، صحب الشيخ السلفى ، وانتفع بصحبته ، وله فيه غرر المدائح ، وقد تضمنها ديوانه ، وكان الحافظ المذكور كثيراً ما يثنى عليه ، ويتقاضاه بمدحه ، ومنه قوله :

تعود الطرد بها والطراد ... أى جواد فوق متن الجواد

ولف بالنجدة أعطافه ... وإنما النجدة حيث النجاد

لله ما أسرى أحاديثه ... بين جدال شبهوا أو جلاد

قد شمع الليل بأخباره ... مشروحة من لهوات الوهاد

حيث أمتطى النكباء ذيالة ... وجبة الغيم عليها مزاد

والجو فى مأتم إصباحه ... قد لبس الليل عليه الحِدّاد

هذا هو المجد من ذا الذى ... ساد وقد لازم طى الوساد

ما أبعد النقصان عن حامد ... لأحمد الكافل بالازدياد

أى فخار قد علا متنه ... فجاوز النجم علاوكاد

وقائل مالك لم تنتظم ... فى سلك من سار كريماً وعاد

قلت له عذرى إنى امرو ... له على حكم الزمان انقياد

ويلاحظ فى هذا الشعر غموض شخصية الممدوح أو إخفاؤها وراء هذا الصخب اللفظى ولم يبد من أوصافه إلا أنه مشهور ما جد محمود الخصال ، سامى الفخار .

وفى قصيدة أخرى يمدحه قائلا فى مطلع خمرى :

عاف سمعى ذكر المحل العافى ... وا صطفاه البكاء بالمصطاف

ووقوفاً بنون نوى تلاه ... فى رباه إعجام ثاء أثافى

آنف أن أروض بالدار قلباً ... مستهاماً بروضة مئناف

فسلام على المنازل والأطـ ... ـلال والعيس والسرى والفيافى

سكرة قد صحوت منها وبدلـ ... ـت بسكرى سوالف وسلاف

فاسقنيها قبل اتفاق ذوى العـ ... ـلم فإنى رأيتهم فى اختلاف

قهوة ما وصفت بعض حلاها ... لك إلا سكرت بالأوصاف

ما ترى الصبح كيف جهز جيشاً ... إذن الليل عنه بالانصراف

وعقود النجوم قد نشرتها ... راحة النوء من طى الأسداف

فاقترف واعترف فثم كريم ... يهب الاقتراف للاعتراف

وامدح الحافظ الممدوح تلبس ... حلل النسك عنده والعفاف

أى مجد لآل فارس أضحى ... كنبى الهدى لعهد مناف

سلفى مخايل الفضل دلت ... إنه من بقية الأسلاف

وشاعرنا — كما يبدو من هاتين القصيدتين يصطنع المدائح حرفة — حتى إن الحافظ يتقاضاه بمديحه — ولا يكسبها « الفنية » التى نراها فى شعره فى غير ذلك من أغراض ، فبينا نراه يتكلف اللفظ ويجهد فى صياغة الأساليب ويكد ويشقى فى تأليف صوره بحيث لا تأتلف ولا تؤلف ، نراه فياض الطبع ، غزير المادة ، بارع التصوير ، جيد التعبير ، عذب الروح ، كما نراه فى هذه « الفائية » إذا ما أغضينا النظر عن البيتين الأولين ، وتابعنا قراءة باقيها فاننا نجد المتعة ، واللذة الفنية التى يحدثها هذا الشعر العذب ، وتلك القافية الملائمة ،

والموحية بالحال التى كان عليها من تلذذ بالسلاف وغرام بالسوالف وسكر بجميل الأوصاف ، ورغبة فى الاقتراف والاعتراف .

ومطلعه الخمرى نزوع إلى تغيير ما ألفه الشعراء من المطالع الغزلية جرياً على سنة قائده وزعيمه أبى نواس فى تهكمه بالوقوف على الأطلال الدوارس والبكاء من ذكرى الأحبة والمنازل فى قوله :

قل لمن يبكى على رسم درس   واقفاً ، ما ضر لو كان جلس

ودعوته إلى نبذة هذه المقدمات وما توحى به من تشاؤم وانقباض عن الحياة المرحة المتسعة المشرقة الجميلة فى مثل قوله :

عاج الشقى على رسم يسائله   وعجت أسأل عن خمارة البلد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر   ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها   وبين باك على نؤى ومنحفر
أما رأيت وجوه الأرض قد نضرت   وألبستها الزرابى[1] نثرة الأسد[2]
حاك الربيع بها وشيا ، وجللها   بيانع الزهر من مثنى ومن وحد

ومثل هذا الشعر كثير فى خمريات أبى نواس ، وجرى على نهجه ابن قلاقس فى مطالعه الخمرية دون أن يقسو فى حملته على مذهب القدماء قسوة أبى نواس ، على أن مطالعه لم تكن كلها خمرية فقد يبدأ بمقطع غزلى ناعم كقوله يمدح القاضى الفاضل :

أنجد الصب وغاروا   هكذا تنأى الديار
هو سير قدّ كالسـ   ـير وقد سار ساروا

(١) الزرابى : من النبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .
(٢) نثرة الأسد : اسم لكوكبين فيهما نكت بيض .

وسواء أدنا المنـ   ـزل أم شط المزار
إن تناهت فدخان   أو تدانت فشرار
يا غزالا راغ كالثـ   ـعلب والقلب وجار
فوق خديك دليل   إن نهديك ثمار
ما اختفى الرمان إلا   وتبدى الجلنار
وبجفنيك غرار ...   من كرى وهو غرار
كل فضل من سوى الـ   ـفاضل فضل مستعار
ربما جاراه أقـ   ـوام إلى فضل فجاروا
مثلما يطلب شأو السـ   ـحب فى الأرض الغبار
هو والعلياء دام الشـ   ـمل ضوء ومنار
كوكب فيه هدايا   ت وأنوار غزار

وطبيعى أن يكون الترابط بين المقدمة والموضوع على هذا النحو من نظام القصيدة العربية التقليدية حتى لا يقال إن الحديث عنها سابق على موضوعها من غرضى الغزل والخمر فيما يستأنف من حديث ... وشاعرنا كما نرى — قد يحسن التخلص ، وقد يخطئه التوفيق حيث يبدو الانفصال واضحاً بين المقدمة والموضوع كما فى قصيدته الأخيرة ، بل نرى فى مدحه أنه لم يخرج عن الصفات المألوفة التى دارت على ألسنة الشعراء ، وأنه أحسن اختيار الوزن المناسب للمقدمة أى مناسبة وكذلك كانت قافيته وإن يكن المدح من الموضوعات الجليلة التى تلائمها الأوزان الفسيحة .

وغلب شعر المديح على شعر هذا الشاعر ، واستوفى فيه معانى القدماء دون أن يأتى بجديد ، وتقلب فى وجوه شتى ، وأمعن فى الحركات والأسفار ساعياً بشعره على رزقه ، وفى ذلك يقول :

والناس كنز ولكن لا يقدر لى   إلا مرافقة الملاح والحادى

وترددت رحلاته إلى اليمن والمغرب وجزيرة صقلية ، وعدن مادحاً رجالات مصر والإسكندرية . وهذه البلاد التى رحل إليها من أمثال ياسر بن بلال وأبى القاسم بن خليف ، ومنصور الكاتب ومالك الصاحب ، والكامل ابن شاور ، وعلى بن أبى الكتائب ، وعلى بن خلف ، والقاضى الفاضل ، وأبى الحسن بن قاسم ، والحافظ السلفى ، والقاضى الأشرف بن الحباب ، والسعيد بن خليف ، وأبى القاسم جردن ، والكمال العسقلانى ، وعبد المؤمن صاحب المغرب ، ونجم الدين بن مصال ، وأبى الغنائم الصقلى ، والأثير ابن الحباب ، وسعيد السعداء عنبر ، والأمير شمس الملك نبهان وهبة الله ابن الحصرى وبهذا كثرت مدائحه حتى كادت تستغرق مختارات ديوانه التى تبلغ ثمانية وخمسين ورقة بخط ابن نباته المصرى ، وهذه المدائح كلها أو معظمها — إن فاتنا استقصاء كل أشعاره — تبتدىء بالحديث عن الغزل أو الخمر أو عنهما معاً ويمتزجان أحياناً بالوصف حين يتعرض لمجلس الشراب بين أحضان الطبيعة الخلابة . ولم تكن خمرياته وكذلك غزله ووصفه الأغراض التى اتجه إليها مستقلة عن غيرها وإنما كانت مقدمات بين يدى غرضه الأصلى لتعين على الجو الذى يريد أن ينقل إليه القارىء أو السامع . وقد تهيأت نفسه شعورياً وعاش تداعبه هذه الموسيقى التى تتغنى هيام النفس وأشواقها وميولها وانطلاقها فى وسط الطبيعة الجميلة الحافلة بالرياض والفياض والطيور والألحان ، وأحياناً يبتدىء قصيدته فى المدح مفتخراً مثل قوله فى ياسر بن بلال : :

أين أمثال ما أقول ولفظى   بات يقتاد سائر الأمثال
صحبة الدهر وهو مشتهر النق   ص دعتنى إلى خنى الكمال
أنا مالى وللبخيل وعندى   فكرة قد جعلتها رأس مالى

إن ثنت خلة إلى يمينى   فبعضب يبريه يرى الخلال
شرف جاوز الغنى ومن العا   رض ما انحط عن رءوس الجبال
إن يرينى على الثلاثين أدنى   من حضيض الصبا إلى الأكمال
فلقد كنت فى الشموخ زمانا   كنت فى عصره من الأطفال
لا تغرنك اللحى من أناس   درجوا كالحمير تحت المخالى
ولئن خف عارضاى فإنى   لا أبالى بكل وافى السبال
إنما الفضل من تقدم بالفض   ل إلى الشيخ ياسر بن بلال

ثم يأخذ فى المدح بالندى واتساع الساحة ممتاحاً خيره وبره ، ناهجاً نهج السابقين الأولين فى الجمع بين الفخر والمدح فى بعض الأحيان كما فعل الأخطل مثلا فى قصيدته الشهيرة (خف القطين فراحوا منك أو بكروا) .

ويبدو أن شاعرنا كان يعانى ثورة عليه من شيوخ لم يحمدوا خطته أو سلوكه فثار عليهم ثورته تلك ، وقد مات شاباً فى سن الثلاثين .

وعند ما فارق ياسر بن بلال ركب البحر فانكسر به المركب وغرق جميع ما كان معه فعاد إليه — وهو عريان — فلما دخل عليه أنشده قصيدة يصف فيها غرقه ويتحدث عن ولوعه بالأسفار ويمدحه بالشجاعة والكرم قائلا :

سافر إذا ما شئت قدرا   سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى   طيباً ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدر النقي   ية بدلت بالبحر نحرا
وصلا إذا امتلأت يدا   ك فإن هما خلتا فهجرا ؟ ؟
فالبدر أنفق نوره   لما بدا ثم استسرا
حركات عيسك ما أرد   ت مهاد عيشك أن يقرا

أما ترينى شاحب الـ … وجنات قد ألبست طرا
فوقائع الأيام تخـ … ـرج أهلها شعثاً وغبرا
مدت إلى الأربعـو … ن يدا ، وقد قهقرت عشرا
واستحدثت فى لمتى … نقطاً فهلا كن حبرا
ما قلت أف . . . فانها … شرر بأف يعود جمرا
وكفاك أنى إن نظر … ت لها نظرت النجم ظهرا
كان الشباب الغض ليـ … ـلا فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بى الزما … ن كما اشتهى بطناً وظهراً
فبما قتلت صروفه … وقتلته جلداً وخبرا
غاض الوفاء وفاض ما … ء الغدر أنهاراً وغدرا
فانظر بعينك هل ترى … عرفاً وليس تراه نكرا
خلق جرى من آدم … فى نسله وهلم جرا
ومروعى بالبحر يحـ … ـسب أننى أرتاع بحرا
أو ما درى أنى بتسهيل المصاعب منه أدرى
أعددت نظرة (ياسر) … نحوى وسوف تعود يسرا
من صرف الأقدار فى … أيامه كسراً وجبرا
واستخدم الأيام فى … أحكامه نهياً وأمراً
وانتاشنى فى نظرة … أولى سيتبعها بأخرى
فالسحب ترشح إذ جرت … فى أثره بالجهد قطرا
والرعد رجع جاهدا … أنفاسه تعباً وبهرا

غرس الصنائع فى الرقا … ب فأنبتت حمداً وشكرا
يقظان إن نبهته … عمراً أو استنجدت عمرا
ولرب طرة معرك … سوداء « قد » أعدته طرا
أسرى إلى أبطالها … فأبادهم قتلى وأسرى
من كل متشح على … نهر الدلاص الرعف نهرا
جروا الذوائب والذوا … بل خلفهم بيضاً وسمرا
فالسيف يقرع بينهم … بثقيفه والضيف يقرى
يا راوياً عن شخصه … خبراً ولم يعرفه خبرا
ألثم بنان يمينه … وقل السلام عليك بحرا
وغلطت فى تشبيهها … بالبحر ، اللهم غفرا
أو لست نلت بذا ندى … جماً ، ونلت بذاك فقرا
بنوافذ ترنو الريا … ح لها بطرف الحقد شزرا
لا زال ينظر عودها … بنداه لدن المتن نضرا

وقد قال ابن خلكان عن هذه القصيدة انه (أحسن فيها كل ا حسان) والشاعر بحق – قد وفق فى اختيار ألفاظها ورقة أسلوبها ، ، وبراعة اختيار وزنها (مجزوء الكامل) الذى ناسب حركة السفر واضطراب المسافر ، وإن كانت قد عمرت بثورة الشاعر على الأيام ، وما أحدثته فى لمته من بياض ، وبما عاناه من الغدر الذى شاع فى الناس منذ عهد آدم ثم أخذ بعد ذلك فى الحديث عن البحر وما وقع له فيه منتقلا إلى المدح غارقا فى بحر مبالغاته فى وصف الممدوح بالكرم فى مثل قوله :

فالسحب ترشح إذ جرت … فى أثره بالجهد قطرا
والرعد رجع جاهداً … أنفاسه تعبا وبهرا

ولم أستطع أن اتمثل هذه الصورة إلا على وجه يثير السخرية والضحك :

غرس الصنائع فى الرقـــاب   فأنبتت حمداً وشــكرا

مع أن الشاعر يجيد التشخيص أحيانا على طريقة الشعراء فى مثل قوله :

بنوافذ ترنو الريـــاح   لهـا بطرف الحقد شزرا

ويهتم بالمزاوجة والمقابلة والجناس فى مثل هذه الأبيات :

غاض الوفاء وفـاض مـا   ء العذر أنهـارا وغـدرا

فانظر بعينك هل تـرى   عرفا وليس تراه نـكرا

أعددت نظرة « ياسـر »   نحـوى وسوف تعـود يسرا

من صرف الأقـدار فى   أيامـه كسـرا وجبرا

جروا الذوائب والقنا   بل خلفهم بيضا وسمرا

ويستخدم حسن التعليل فى مثل قوله :

وصـلا إذا امتلأت يدا   ك فان همـا خلتـا فهجـرا

فالبـدر أنفق نـوره   لمـا بـدا ثم استسـرا

وهو اهتمام بالزينة اللفظية والمعنوية باد فى سائر أشعاره على خلاف من اشتهر من شعراء العصر كالمهذب والرشيد والجليس ، وان يكن هؤلاء الشعراء قد ألموا بها إلا أنهم لم يتعمدوها كما فعل ، شأنه فى ذلك شأن ظافر وان كان ماء شعر ابن قلاقس أعذب مورداً وأصفى مساغا ، وأهنأ مشربا ، وألذ مذاقا ، وذلك بفضل جمال الألفاظ ورقة الأساليب وصحة المعانى غالباً وجودة التصوير ، وشيوع هذه الروح المرحة اللطيفة ، على الرغم مما سبق القول فيه وأخذناه عليه .

وقد عظم حظه من اختيار صاحب الخريدة ويظهر أنه قد استجاد له الكثير من مدائحه : لأنه لم يكن من مداح المصرى كما قال العماد عن ظافر

وابن الضيف ولأنه لم يتأثر بعقيدتهم ولم يجر مجرى الشعراء من أمثال ابن نصر وابن الضيف وعمارة وغيرهم ممن تعرضوا فى مدائحهم لذكر بعض أصول مذهبهم والإشادة به ، ولأنه كان جيدالشعرحقا فى هذه المختارات ، وبخاصة تلك التى جمعت بين الوصف والمدح ، فقد كان الشاعر من مادحى أبى القاسم ابن الحجر أحد القواد بجزيرة صقلية ، اتصل به فأحسن اليه . وقد صنف له الشاعر كتابا سماه (الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم) ولما فارق صقلية راجعا إلى مصر وكان فى زمن الشتاء ردته الريح إلى صقلية فكتب إلى أبى القاسم يقول :

منع الشتاء من الوصـو   ل مع الرسول ديـارى

فأعادنى وعلى اختيـا   رى جاء من غير اختيارى

ولربمـا وقـع الحما   ر وكان من غرض المكارى

ومدائحه فى أبى القاسم كثيراً ما بدأها بالوصف كما فعل فى قصيدته التى مطلعهـا :

رافقهـا مطرب الأغـاريد   فاسترقت هزة الأماليـد[1]

وهى ليست فى المختارات وقد رواها العماد « فى الخريدة » وسوف نعرض لها عند الكلام عن الوصف ويتبع الوصف بالغزل والتشوق — وسنعرض لهما فى حينهما — إلى أن يقول مادحا أبا القاسم :

قد أقسم الحمد لايسـير إلى   غير أبى القاسم بن حمـود

فى يده للنوال معـركة   أرى بها البخل صارم الجيد

وعنده للضيوف نار قـرى   تعرفها البزل[2] كلما يودى

(١) الخريدة جـ ١ ص ١٥٢

(٢) كلما أهلك أو ذبح الإبل .

ومنهـــا :

دوحة مجـد يمتـد ناضـره ... لمحسنات بحسن تجـــديد
عرضتُ منهـا لنار تجربتى ... عدداً ففاحت روائح العـــود

ويبدو أن الشاعر قد استطاب جود أبى القاسم فملأ قصائد مدحه بالحديث عن الزهر الباسم ومحاسن الغرر السافرة عن الأنوار تكشف دهمة الليل ، فى مقدمة غزلية يمتزج فيها الغزل بالوصف فى شىء من الغموض، وجميل أن نذكر مقدمة هذه القصيدة الرائية ثم نتبعها بمدحه ، ففيها يقول :

زهرن فاعجب لروض ماله زهر ... إلا المباسم والألحاظ والطـــرر
ولا تقل لهب الوجنات يحرقهـا ... فللعذار على أرجائهـــا نهـر
أحسن بها عزرا قالت محاسنهـــا ... بالنفس يحمد فى أمثالى الغـــرر
سفرن والليل طرف أدهم فجـرت ... فيه الحجول من الأنو اروالغـــرر
وقمن يحملن فى الأجفـــان مرهفة ... لوكانت البيض قلنا أنها البتـر
وكان من فعلها بالسحر أن فعلت ... على العشاء بما يأتى به السحـــر
فما ارتقبت الدرارى إذ سهرت لها ... إلا كأصداف يم حشوها درر
ولا احتليت بدور الأفق عن كلف ... إلا بمن أتلفت فى صونه البـــدر
وفى الحشا والحشايا صبوة كبرت ... فزادها عنفوانا ذلك الـــكبر
تورى زناد اشتياق ما استطـــار به ... لى من مشيبى بل من أدمعى شرر
وفى فؤادى لا فودى قتير هـــوى ... لم يخفه الشعر ان لم يبده الشعـــر
أنا المحب وما بى من يقـــال له ... أولى لك العذل لا أولى لك العـــذر
إن قلت ماس فما قصدى به غصن ... أو استنار فما قصدى به قمـــر

ثم يأخذ فى المديح قائلا :

المال عند ذوى الإقتار محتقـــب ... والمال عند ذوى الأقدار محتقر
فإن عدمت الذى صاروا به عدما ... فما افتقرت وعندى هـــذه النقـر
لم أقلقل ركابى إن نأى وطـــن ... ولا أطلت اغترابى أن نبا وطـر
لكن بنو الحجر استدعت مكارمهم ... عزمى وقد كان يستدعى بها الحجر
نادى لسان النوى منهم فاسمعـــنى ... فقمت أعبر بحـراً كله عـبر . . .
ترى المواخر تجرى فى زواخـــره ... فترتقى فى أعاليـــه وتنحـــدر
من كل سوداء مثل الخـــال يحملها ... بوجنة منه فيهـا للضحى خفـــر
لذاك جادوا ندى فيـــه أجدت بنا ... فليس يعرف لا حصر ولا حصر

ومنها يفتخر بقصيدة :

والشعر منه قصير عمره زهـــر ... يروى ومنـــه طويل عمره زهر[1]
وكالمواعظ سهل « صوغها زبر » ... وكالحديد ثقيل وزنه زبر[2]
أو كالعيون فهذى حظهـــا حول ... يغض منهـــا ، وهذى حظها حور

وفيها يمدح ويهجو :

أنالنى فى اغترابى كل مغـــربة ... لا بى النفير بمعـدوم ولا النفـــر
وشد أزرى فـما أحفى بنائبـــة ... تقول أبيا ـــا هيهـــات لا وزر
من بعد ما قرعتنى كل قارعـــة ... أيامها الحمر[3] من أعيانها الحمر

(١) النجوم الزاهرة .
(٢) الزبر الأولى : الكتب والثانية قطع الحديد .
(٣) الأيام الحور : الشديدة أو المجدبة .

وبت أضرب بالأشعار طائفة   لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا
إذا نحت القوافى من مقاطعها   قالوا تكلف لنا أن يفهم البقر

والقصيدة بحق – قد نحت قوافيها ، وتهيأ لها بوسائله الفنية من دقة اللفظ وفخامة الأسلوب وقوته ، واختيار الوزن الممتلىء برغائبه وحاجات نفسه ، وبراعة الصور الجزئية والاهتمام بالتشخيص . فى مثل قوله :

نادى لسان الندى منهم فاسمعنى   فقمت أعبر بحراً كله عبر
وشد أزرى فما أحفى بنائبة   تقول أبياتها هيهات لا وزر
من بعد ما قرعتنى كل قارعة   أيامها الحمر من أعيانها الحمر الخ

واصطناع المحسنات البديعية كالجناس والطباق فى مثل قوله :

خفرن والليل طرف أدهم فجرت   فيه الحجول من الأنوار والغرر
وكان من فعلها بالسحر أن فعلت   على العشاء بما يأتى به السحر
أنا المحب وما لى من يقال له   أولى لك العذل لا أولى لك العذر

وقوله :

المال عند ذوى الإقتار محتقب   والمال عند ذوى الأقدار محتقر

وقوله :

ولم أقلقل ركابى إن نأى وطن   ولا أطلت اغترابى إن نبا وطر

والشاعر لايخفى المسألة بل يلحف فيها أيما إلحاف ، ويتخذ اشعاره عدته يحارب بها القدم والحاجة .

فان عدمت الذى صاروا به عدما   فما افتقرت وعندى هذه الفقر
نادى لسان الندى منهم فأسمعنى   فقمت أعبر بحراً كله عبر

ويبدو أنه كان فى فزع من الفقر يتمثله جاثياً على بابه أو جاثما فوق أنفاسه حتى تولد عنده شعور عارم بالحاجة إلى مقاومته وبلوغ السبيل إلى الغنى والنشاط لذلك مهما نأت الديار وشط المزار ، أو يبلغ الحاجات والأوطار ، وتدعم هذه الرغبة شاعريته فيحسن المديح أو يتكلف الإحسان ، ناحتاً القوافى من مقاطعها ، وليس عليه أن يفهم البقر الذى لايؤثر فيه السيف كما كان يقول ، وكيف لايفعل – وهو لا يستقر به المقام إلا حيث يتخيل أن لسان الندى يدعوه ، وسرعان ما يلبى النداء ويعبر إليه البحار راكبا الأهوال . فيغزر شعره فى المدح إلى درجة تكاد تجعل شعره فى الأغراض الأخرى قليلا كشعره فى الوصف والغزل والخمر ، أو تافها ضئيلا عندما يصطنع الارتجال :

ولا ينسى الشاعر رجالات عصره ممن ولوا أمر بلده (الإسكندرية) ، وأعيان الفضل فيها من أمثال ولى الدين بن المخيلى أحد مشارفى الثغر فقد امتدحه بقصيدة بدأها بمقدمة غزلية أولها :

كم مقلة للشقيق الغض رمداء   إنسانها سابح فى بحر انداء
وكم ثغور أقاح فى مراشفها   رضاب طائفة بالرى وطفاء[1]
فما اعتذارك عن عذراء جانحة   لانت كما لامستها راحة الماء
نضت عليها حسام المزج فامتنعت   بلأمة للحباب الجم حصداء
ما ترى الصبح يخفى فى وجنته   كأنما هو سقط بين أحشاء
والطير فى عذبات الدوح ساجعة   تطابق اللحن بين العود والناء
فحى فى الكأس كسرى تحت رمته   بروح راح سرت فى جسم سراء

(1) وطفاء : كثيرة الماء .

وعذ بمعجز أيات المدامة من نوافث السحر فى أجفان حوراء

فما الفصاحة إلا ما تـــكرره مباذل الدن من ترجيع فـأفاء

واعطف على خلس اللذات مغتنما فالدهر فى حربه تلوين حرباء

وكن ولى ولى الدين تسط على صرف الزمان بماضى العزم والراء[1]

الوارث الحمد يرويه ويسـنده إلى مناسب أجداد وآبـــاء

بنو المخيلى معنى كل مكـروه وملتقى طرفى مجد وعليـــاء

وهنا نجده وقد طال به حديث الخمر واستعذبه ولعله كان بحاجة إلى هذا الحديث ليفضى إلينا بما يمكن أن يكون هدفا له من الحياة التى يتلون فيها الدهر كما تتلون الحرباء ، وليس على الإنسان من أمثاله إلا أن يعكف على لذاته وأن يغتنمها اغتناما ، وكان هذا الحديث — حديث الخمر — حبيبا إلى نفسه لأنه يعبر عن أشواقها والمتع التى تطيب بها مستفتحا بها قصيدة فى المدح الذى لم يستثرنا كما استثارنا حديث الخمر فإنه كلام مكرر ، ومعان معادة ، لا حرارة فيها ولا عاطفة. كما أن مدائحه غير مسرفة الطول وحظ الممدوح فيها ليس بالكثير .

وقد سبق أن قلنا إن الرابطة وثيقة بين المقدمة والغرض الأصيل بحيث يذكران معا إذا ما أردنا أن نستشهد على موضوعه الذى يدور حوله الشعر . وبدا لنا أن غزله وخمرياته ليسا مقصودين لذاتهما وإنما هما وسيلة أو مقدمة للغرض ، ولعله لو قصد إلى كل منهما قصداً خالصا لأمتعنا وأجاد ، فانه كما يبدو ذو موهبة وصفية خلاقه ، وتأثره ظاهر بشعراء الخمر السابقين ولا سيما أبو نواس ، وسنعرض لذلك بالتفصيل عند الكلام على فنى الغزل والخمر .

(١) الراء : الرأى .

وقبل أن نختم القول فى مدائحه نرى له مدحة لرجل كان له فضل عظيم عليه إذ كان راويته فأبقى على كثير من غرر قصائده ، وهو الأمير نجم الدين ابن مصال أحد أعيان الدولة الأيوبية ومن مؤيديها قبل أن تقوم بمصر منذ كان واليا على الثغر السكندرى ، فقد قال فيه ابن قلاقس بعد مقدمة خمرية — ونكتفى بهذين البيتين :

وكلما قيل نجم الدين قد وضحت أنواره فمحوت الظلم والظلما

حسب البحيرة أن الله صيرها بحراً به زاخر الأمواج ملتطما

وواضح أن ظلم الفقر كادت تسد عليه مسالكه لولا تلك الأنوار التى تنبعث من هنا وهناك حيث الإنعام والإفضال ، ولم نفقد امتداح العطاء فى شعره المدحى إلا فى قصيدته السابقة التى مدح فيها القاضى الفاضل والتى مطلعها :

أنجد الصب وغـاروا هكذا تنـأى الديـار

ونتركه لنأخذ فى الحديث عن شاعر آخر كان من مداحى طلائع بن رزيك هو القاضى الفقيه المعروف بابن قيصر . عرف به السلفى فى معجمه قائلا : هو أبو الحسن على بن محمد بن عيسى الأزدى . كان من أهل الأدب والفقه ويعرف بابن قيصر وكان كثيراً ما يحضر عنده وعلقت منه مقطوعات كثيرة[1] ، وقال عنه العماد« كان كثير المنظوم قليل الجيد منه[2] ».
ووجدت له فى مجموع شعراء ابن رزيك قصيدة فيه أولها :

الصبر عن بان الحمى وعقيقـه فى حق ساكنه أجل عقوقـه

ظبى ظبا ألحاظه فتاكـــة تغنيه يوم الروع عن إبريقـه

لافرق بين خياله ووصـاله فى سرد[3] ماطله وفى تحقيقـه

(١) معجم السلفى الورقة ١٩٣

(٢) الخريدة جزء ١ ص ٢٤٥

(٣) نسج وصوغ .

إلى أن يقول :

والله ماللشمس فى أشواقها — وضياء بهجتها كبعض شروقه
كالرئم حال نفاره والبدر عنـ — ـد كماله والغصن عند بسوقه
لاتجعل الهجران بعض عقوبتى — فتكلف السلوان غير مطيقه
وارفق فمن دين المروءة فى الهوى — وعداته رفق الهوى برفيقه
والله ماصدق الملام ولا جرى — ذا العذل عند ذوى الهوى بطريقه
كل الجوارح فى يديه ، فإنها — يصغى لزور العذل أو تنميقه
فذر الملام فحبذاه لذكره — فيه ، ملام الصب فى معشوقه
ياراكب الهرى أضحى ظله — فى غرضة البيداء من مسبوقه
بلغ إلى الملك الهمام أمانة — تبليغها للحر من توفيقه
حتام حظى فى الحضيض ؟ وإنه — فى الفضل عند الناس فى عيوقه
مثلى بمصر ، وأنت مالك رقه — مثل العقاب مغردا فى نيقه[1]

ويختمها بقوله :

ولقد أشاع الناس أنك فى الورى — من ليس ينفق باطل فى سوقه
أبطل بنور العقل سلطان الهوى — واعمل بكل الجهد فى تطليقه

وواضح من هذا الشعر أنه لفقيه : فكثرة الخلف ، وضعف الأسلوب ، واستعمال بعض ألفاظ الفقه فى مثل قوله (واعمل بكل الجهد فى تطليقه) ثم ما نحسه من ثقل ظله فى تكلفه ماليس يصلح له كل أولئك يدل على صحة ما ذهب إليه العماد من أنه كان كثير المنظوم قليل الجيد منه فسمى شعره نظما ووصمه بعد ذلك بالرداءة إلا فيما قل . وهو شعر كهذا

(1) النيق : اعلى مكان فى الجبل .

الشعر الذى جرت به أقلام العلماء من أمثال الشيخ الطرطوشى وأبى جعض البلوى المتكلم بالثغر ، ومنهم ذلك الفقيه المالكى عبد الوهاب بن توهيب : عرف به السلفى فى معجمه قائلا : كان من أهل السنة مالكى المذهب إسكندرى الدار وشعره جيد ومقاصده . . . وله فى أكثر من خمسين قصيدة ومن المقطعات شىء كثير : قال عبد العظيم المنذرى : فقلت من حظ عبد الوهاب بن توهيب : يمدح السلفى ومدرسته العادلية ، قائلا :

لله در العادل المرتجى — ذى العز والتأييد والنصر
أنشا لنا مدرسة مثلها — لم ينش فى دهر ولا عصر
بغداد دار العلم لم تفتخر — بمثلها قط على مصر
فأرضها كالمسك جلت عن ال — بسط التى تفرش والحصر
وما تولاها سوى الحافظ ال — معصوم من عى من حصر
ذى طلعة تقصر عن نورها — شمس بدت عصر على قصر
خير فقيه فى الورى عالم — تبصره كالحسن البصرى
أكرم خلق الله فى عصرنا — أقسم بالعصر وبالنصر[1]
كأنما الدنيا به غادة — لم يختصر منها سوى الخصر
رب استجب منى دعاى له — فى الصبح والظهر وفى العصر[2]

هذا وقد روى صاحب الخريدة لشاعر ولد بالاسكندرية يدعى على ابن الحسين بن الدباغ من قصيدة يمدح فيها الخطير ابن مماتى صاحب ديوان

(1) سورتان من قصار سور القرآن الكريم .
(2) معجم السلفى الورقة ٢٢٨

الجيش أيام الملك الناصر صلاح الدين وكان من النصارى الذين أسلموا فى ابتداء الملك الصلاحى . وقال فيه على بن الحسين مادحا ومهنئا :

كم لكفيك ياخطير المعالى ... عند عافيك من خطير نوال
كلما فصل المديح عليه ... صح تفصيله على الإجمال
وإذا رامه الزمان بحرف ... نصرته روائد الإقبال
كنت توليه بالجبلة والعا ... دة لولا محرك من سؤال
لست أدرى من السرور على ما ... صح عندى من قدرك المتعالى
أنهى ليث الشرى بعرين ... أم نهى العرين بالرئبال[1]

كما روى لعلى بن سعيد المعروف بابن الكاتب قوله يمدح ضمن رسالة :

تعنو لأحكامه الأيام خاضعة ... فيما يحاول منها أو يطالبه
يامن حوى ما لوان الدهر يجمعه ... من المناقب لم تذمم نوائبه
شمائل كنسيم الروض قد عطرت ... شمائل الجو منه أو جنائبه
وجود كف لو ان الغيث يشبهها ... فيضا لما انقطعت يوما سحائبه[2]

وله مدائح فى والد القاضى الفاضل مطلع إحداها :

أجل أنت من كل ملك أجل ... وفى راحتيك المنى والأجل

ومنها :

فلا الباب عن مرتج مرتج ... ولا الوفر عن معتز معتزل

(١) الخريدة جـ ٢ ص ١٣٤

(٣) الخريدة جـ ٢ ص ٥٥

وقد ذكرنا هذين البيتين لنستدل منهما على مبلغ عناية الشعراء وبخاصة فى العصر الصلاحى بالبديع والجرى وراء جناس أو طباق أو غيرهما من المحسنات التى أغرم بها القوم وأسرفوا فيها إسرافا غير حميد ، دون اهتمام بعناصر الأدب بعامة والشعر بخاصة باعتباره فناً يقوم على أصول فنية هى أرسخ فى مجاله وأقوم لطبيعته من هذه الشكليات التى لاتغنى ولا تفيد .

ولعلى بن ظافر صاحب (بدائع البدائه) قصة رواها المقرى صاحب « نفخ الطيب » فى الجزء الثانى قال :

(ولابن ظافر هذا بدائع منها ما حكاه عن نفسه إذ قال : ومن أعجب ما دهيت به ورميت إلا أن الله بفضله نصر ، وأعطى الظفر ، وأعان خاطرى الكليل حتى مضى مضاء السيف الصقيل ، أننى كنت فى خدمة مولانا السلطان الملك العادل بالإسكندرية سنة إحدى وستمائة مع من ضمته حاشية العسكر المنصور من الكتاب والحواشى والخدام ، ودخلت سنة اثنين وستمائة ونحن بالثغر مقيمون فى الخدمة مرتضعون لأفاريق النعمة ، فحضرت فى جملة من حضر الهناء ، من الفقهاء بالثغر والعلماء ، والمشايخ والكبراء ، وجماعة الديوان والأمراء ، واتفق أن كان اليوم من أيام الجلوس لإمضاء الأحكام ، والعرض لطوائف الأجناد ، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من أهل المعسكر . إلا حضر مهنياً ، ومثل شاكراً وداعياً ، فحين غص المجلس بأهله ، وشرق بجمع السلطان وحفله ، وخرج مولانا السلطان إلى مجلسه واستقر فى دسته ، أخرج من بركة قبائه كتابا ناوله للصاحب الأجل صفى الدين أبى محمد عبد الله ابن على وزير دولته ، وكبير جملته ، وهو مفضوض الختام ، مفكوك الفدام[1] ففتحه فاذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظم كتبها إليه يتشوقه ويستعطفه

(١) الفدام : ما يوضع فى فم الإبريق ليصفى به ما فيه والمراد ما يلصق به .

ازيارته ، ويرقمه ويستحثه على عود ركابه إلى بلاد الشام للمثاغرة بها وقمع عدوها ،ويعرض بذكر مصر وشدة حصرها ووقد جمرها ، وذلك بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثغر ثم رجع إليها والأبيات منها :

اروى رماحك من نحور شذاكا ... وانهب بخيلك من أطاع سواكا
واركب خيولا كالثعالى شزيا [1] ... واضرب بسيفك من يشق عصاكا
واجلب من الأبطال كل سميدع ... يطوى بعزمك كل من يشناكا
واسترعف السمر الطوال وروها ... واسق المنية سيفك السفاكا
وسر الغداة إلى العداة مبادراً ... بالضرب فى هام العدو دراكا
فالعز فى نصب الخيام على العدا ... تردى الطغاة وتدفع الأسلاكا
والنصر مقرون بهمتك التى ... قد أصبحت فوق السماك سماكا
والعجز أن تضحى بمصر راهنا ... وتحل فى تلك العراص عراكا
فأرح حشاشتك الكريمة من لظى ... مصر لكى تحظى الغداة بذاكا

فلما تلا الصاحب على الحاضرين محكم آياتها ، وجلا منها العروس التى حازت من المحاسن أبعد غاياتها أخذ الناس فى الاستحسان لغريب نظامها وتناسق التئامها ، والثناء على الخاطر الذى نظم بديع أبياتها وأطلع من مشرق فكره آياتها ، فقال السلطان ، نريد من يجيبه عنا بأبيات على قافيتها فالتفت مسرعاً إلى وأنا عن يمينه وقال : يا مولانا مملوكك فلان هو فارس هذا الميدان ، والمعتاد للتخلص من مضايق هذا الشأن ، ثم قطع وصلا من درج [2] كان بين يديه ، وألقاه إلى ، وعمد إلى دواته فأدارها بين يدى ، فقال له السلطان أهكذا على مثل هذا الحال ؟ وفى مثل هذا الوقت ؟ فقال : نعم ، أنا قد

(1) الخيول الشذب : الضامرة . (2) الدرج : ما يكتب فيه .

جربته فوجدته متقد الخاطر ، سريع اجابة الفكر ، حاضر الذهن ، فقال السلطان ، وعلى كل حال قم إلى هناك لتنكف عنك أبصار الناظرين ، وتنقطع عنك ضوضاء الحاضرين وأشار إلى مكان عن يمين البيت الخشب الذى هو بالجلوس فيه منفرد ، فقمت وقد فقدت رجلى انخذالا ، وذهنى اختلالا ، لهيئة المجلس فى صدرى ، وكثرة من حضره من المترقبين لى ، والمنتظرين حلول فاقرة بالشماتة بى ، فما هو إلا أن جلسنا حتى ثاب إلى خاطرى ، وانثال الكلام على سرائرى ، فكنت أتوهم أن فكرى كالبازى الصيود ، لا يرى كلمة إلا أنشب فيها منسره ، ولامعنى إلا شك فيه ظفره ، فقلت فى أسرع وقت :

وصلت من الملك المعظم تحفة ... ملأت بفاخر درها الأسلاكا
أبيات شعر كالنجوم جلالة ... فلذا حكت أوراقها الأفلاكا
عجبا وقد جاءت كمثل الروض إذ ... لم تذوهـا بالحـر فـار ذكاكا
جلت الهموم عن النذار كمثل ما ... تجلو بغرة وجهك الأحـلاكا
كقميص يوسف إذشفت يعقوب ريـــاه ... شفتنى مثله رياكا
قد أعجزت شعراء هذا العصر كلـــهم ... فلِمْ لا تعجز الأمـلاكا
ماكان هذا الفضل يمكن مثلـه ... أن يحتويه من الأنام سواكا
يكفى الأعادى حر بأسك فيهم ... اضعاف ما يكفى الولى نـداكا
ما زرت مصر بغير ضبط ثغورها ... فلذا صبرت ـفديت ـعن رؤياكا

ثم عدت إلى مكانى وقد بيضتها ، وحليت بزهرها ساحة القرطاس وروضتها ، فلما رآنى السلطان قد عدت ، قال لى : هل عملت شيئاً ؟ ظناً منه أن العمل فى تلك اللمحة القريبة معجز متعذره ، وبلوغ الغرض فيها غير متصور ، فقلت : قد أجبت فقال : أنشدنا ، فصمت الناس وحدقت

الأبصار وأصاخت الأسماع ، وظن الناس بى الظنون، وترقبوا منى ما يكون، فما هو إلا أن توالى الإنشاد لأبياتها ، حتى صفقت الأيدى إعجابا ، وتغامزت الأعين استغراباً ، وحين انتهيت إلى ذكر مولانا الملك الكامل ، بأنه المعلى فى البنين إذا ضربت قداحهم ، وسردت أمداحهم ، واغرورقت عيناه دمعاً لذكره ، وأبان صمته معنى المحبة حتى أعلن بسره ، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمعه ، ولم يمكنه دفعه ، فمد يده مستدعياً للورقة ، فناولتها إلى يد الصاحب فناولها له ، وعند حصولها فى يده قام من غير إشعار لأحد بما دار من إرادة القيام تجلده ستراً لما ظهر عليه من الرقة على الموالى والأولاد ، وكتما لما عليه من الوجد بهم والمحبة لهم ، وانفض المجلس[1] .

وهذا المدح المبتدع على البديهة لا يسمو عاليا إلى مكانة الأدب تجوّده القرائح وتثقفه الثقافة وتهذبه الطباع ، وترقق حواشيه ومبانيه ، وتصحح معانيه ومراميه النظرة الناقدة ، وطول المصابرة عليه ، حتى يخرج سوياً لايحس قارائه تكلفا أو جهداً بادياًلسلاسة تأليفه وقوة تركيبه وانسياب ماء الطبع فيه ، وان كان قد تحمل صاحبه الجهد الناصب ، والنظر القوى الثاقب ، ولذلك تدنو –فى نظرى– منزلة المرتجل ، وتسف دونأن تحلق ، ويضعف أثره فى النفس وإن دل على سليقة وأشار إلى طبع فياض .

ونترك ابن ظافر للنظر فى شعر شاعر آخر كثر تردده على الإسكندرية واستضافه بها طويلا من يسمى صدر الدين عبد الرحمن القرمسينى ناظر الثغر فى سنة ٦٢٨ وهذا الشاعر هو الجمال أبو الحسين الجزار ، وقد غلب على شعره المدح وتبدو روحه المرحة فى كثير من شعره ، وكان هذا الشاعر يعمل

[1] بدائع البدائه ص ١٧٧ وما بعدها ونفح الطيب ج ٢ ص ١٦٨ وما بعدها الطبعة الاولى الازهرية .

قصابا قد نشأ بين ساطور ووضم ،ولم يرفع له فى بيت نباهة ولامجلس حشمة علم ، وكان من أحسن الناس شكلا ، وأظرفهم وأحلاهم بيانا كما يقول ابن سعيد صاحب المغرب[1] .

وله من قصيدة يمدح بها القرمسينى ناظر الثغر :

بذل وجهى إلا لمثلك بذلة   واعتزازى بغير جاهك ذلة
يا جوادا سحاب كفيه بالجو   د على كل قاصد مستهلـه
والذى لورآه فى دسته الفضــ   ـل[2]بن يحيى لجاء يطلب فضله
لك نيل قد أخجل النيل جودا   وغدا دونه الفرات ودجلة

إلى أن يقول له :

لى نصفية تعد من العمــ   ـر سنينا غسلتها ألف غسلة
لا تسلنى عن مشتراها ففيهـا   منذ فصلتها نشـاء بجملـه
نشف الريح صدرها والأرازيـ   ـب فباتت تشكو هواء ونزله
... قال لى الناس حين أطنبت فيها   بس ، أكثرت ، خلها فهى بقلة

وهو شعر فى النصفية فكه يذكرنا بما قال الشعراء فى طيلسان ابن حرب مما سجله الحصرى فى زهر الآداب .

وله من قصيدة أخرى وهو بالإسكندرية يصفها ويمتدح أهلها ويفضلها على مصر ويخص سورها بالذكر :

أرى الإسكندرية ذات حسن   بديع ، ماعليه من مزيد
هى الثغر الذى يبدى ابتساما   لتقبيل العفاة من الوفـود

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٢٩٦

(٢) الفضل ابن يحيي وزير هرون الرشيد .

إذا وافيتها لم تبق همـا   بقلبك مذ تراها من بعيد

حللت بظاهر منها كأنى   حللت هناك من قصر مشيد

بياض يملأ الآفاق نورا   يبشر برقه بسحاب جود

وأقسم لو رأتها مصر يوما   لكادت أن تغيب من الوجود

وكم قصر بها أضحى كحصن   منيع لاكزرب من جريد

يرص فصوصه بانيه رصا   يفصله على نظم العقود

لها سور إذا لاقى الأعادى   يقابلهم بوجه من حديد

هو الفلك استدار بها وكم قد   رأينا فيه من برج سعيد

أحاط بسورها بحر أجاج   ومنهل أهلها عذب الورود

هم السادات لا يخشى ويرجى   سواهم عند وعد أو وعيد

وحسبك أن صدر الدين منها   وذا من مدحها بيت القصيد

وأسلوبه — على ما هو ظاهر — بين السهولة ، واضح المعانى ، عليه مسحة مصرية هى روح الفكاهة التى هى من روح شعبنا المصرى ودلالة مميزة له ، ويبدو أن حظه من الثقافة ضئيل حيث لا نرى لها أثراً بارزاً فى شعره غير ثقافة لغوية جاءته من حفظ آيات الكتاب الكريم لما نرى من تأثره بلغته فى مثل قوله :

فلا بئر معطلة وكم قد   رأيت هناك من قصر مشيد

فهو من قوله تعالى « وبئر معطلة وقصر مشيد » سورة الحج . ونراه مهتما باستخدام ألوان البديع كالجناس والطباق فى هذا الشعر وغيره فى مثل قوله مجانساً :

لك نيل قد أخجل النيل جودا   وغدا دونه الفرات ودجله

وفى مثل قوله مطابقاً :

أحاط بسورها بحر أجاج   ومنهل أهلها عذب الورود

ولعل الإسكندرية لم تحظ بمثل ما حظيت به من شعره . فها هو ذا ابن قلاقس شاعر الإسكندرية المشهور قد أغفل أمرها أوغفل عنها أوكاد إلا إذا جارى الشعراء فى وصف بعض آثارها كالمغارة وقصر بنى خليف فى معرض مبادهة وارتجال . أما صاحبنا الجزار فقد أبدى افتتانه بثغرها الباسم وإعجابه بجمالها الذى يصرف الهموم ، وبقصورها المشيدة المنظمة كحبات العقود، وأنوارها المشرقة وسورها المنيع وبحرها الأجاج ، ومنهل أهلها العذب وأهلها السادة النجباء ، الكرام الأقوياء .

وبعد فقد وقفنا على نماذج من مدائح شعراء الإسكندرية ورأينا كيف وقفت عند حد التقليد فى المنهج والنظام والمعانى والأساليب ، ولم تظهر للشعراء فيه سمة مميزة تحدد شخوصهم أو تبرز مشاكل خاصة بالبيئة أوتتصل بقضايا الساعة اتصالا وثيقاً ولم تتعد هذه المدائح أن تكون — فى الغالب — مسألة ملحة ، ورغبة فى نوال ، وتملقاً يخفى وراءه مطمعاً مما يخرج بشعر المدح عن هدفه الأسمى ووظيفته الإنسانية فى الإشادة بالقيم الرفيعة ،والنماذج الكريمة الفاضلة ، والدعوة لكل ما هو جميل ، وعظيم النفع خالد الأثر. غير قليل مما ورد فى مدح السلفى . وقد أشاد ما دحوه بفضله وعلمه ونسكه وجهاده فى نصرة الدين وحمايته ، وبالحفاظ على مصدر أصيل من مصادره : الحديث الشريف . أما ما تعرضت له الإسكندرية من غزوات الفاطميين

والافرنج وما قام بها من ثورات ، وما أبلى أهلها من بلاء عظيم فى نصرة
صلاح الدين وغير ذلك فلم يكن لهم إليه سبيل ، فيما أثر عنهم من شعر غزر
جداً فى المديح .. وما ذلك إلا خضوعاً للمنهج التقليدى فى هذا الغرض
حيث ازدهر القول فيه على أبواب الخلفاء والأمراء وسرعان ما جرى هؤلاء
إلى حيث يعظم حظهم من النوال ، فشعرهم فيه امتداد لحياته فى ظلال الحكام
والولاة الكرام .

---

٣ — الوصف

لعل الوصف هو المجال الخصب لخيال الشاعر القوى ، ونظراته الفاحصة
اللاقطة ، وعواطفه المرهفة المأخوذة بأسباب الجمال ، وروائع الصور المغرمة
بالطبيعة — وهى ميدانه الفسيح — إلى درجة تشبه حال المتصوف المحب يتعلق
بمحبوبه حتّى يصل إلى حال الهيام به أو الفناء فيه ، فنرى ، الشاعر الكبير
وقد أفصح عن شاعريته ، وأبان عن روحانية الطبيعة بشعره المتسامى ، إلى
معرفة أسرارها ، فيأخذ فى تصويرها معتمداً على حال شعورية فياضة
بأدق الأحاسيس حيث يمتزج الحب والفكر بالطبيعة ، ولا يكون همه إبراز
التفاصيل ومتابعة الأجزاء فى حسية جامدة أو اعتناء بالزخرفة البيانية التى تزحم
بها نماذج وصفية كثيرة فى الشعر العربى منذ عصوره الأولى حيث نرى المنظر
وكانه مجموعة متراصة من التشبيهات والاستعارات تلهى عن تمثل الصورة
وتموج بألوان حسية متحركة أو جامدة ليس لها نوط بالقلب أو اتصال بالروح
لأنها لا تحرك شجناً أو تثير إعجاباً وحباً أو طرباً واستحساناً كلها من طبيعة
الفن الأدبى فى الوصف والتصوير .

وخيال الشاعر فى هذا الميدان الرحب عون للعاطفة يغذيها بألوان الصور
وغرائب الخلق والابتكار ، ويوقظها فتنفعل انفعالا قوياً يكون مصدر الالهام
والوحى الشعرى الفياض بحيث تترابط فيه الأجزاء وتكتمل الصورة فى دقة
وإحكام وإحساس قوى بالوجود وعظمته الطبيعية ، وجمالها الفتان ويتجلى
ذلك كله للقارئ فتنتقل إليه انفعالات الشاعر وأحاسيسه وحالاته النفسية ،
حتّى يتم بينهما اتحاد روحى وفكرى ، واندماج وجدانى ، يتعمق فيه الشعور
بالوجود ، ، تقوى الصلة بين الله والانسان . وهذه أسمى الأهداف فى الحياة

والوصف فى الشعر العربى بعامة — حتى فى أرقى عصوره العباسية والاندلسية لم يحاول فيه الشعراء — إلا الاقلون — أن يخرجوا عن الإطار الحسى ، والأخذ بأسباب الدقة فى التصوير واستقصاء الأجزاء وحشد الصورة بشتى الوان التشبيه والاستعارات ذات الاخيلة الجزئية المحدودة دون أن يكون صادراً من أعماق النفس المنفعلة بمباهج الكون ، الممتلئة بفيض من الاحساس ،ولو أنصفوا وأدركوا طبيعة فن الوصف فى الشعر لأبدلونا من هذه الزخارف المحشودة شعوراً حقيقياً بالطبيعة ووصلا قوياً بين حلقات الخيال ولا متعونا أيما إمتاع .

على انهم فى العصر العباسى قد مزجوا الوصف بالخمر فكانت له نشوة ،وفى العصر الاندلسى جمعوا بينه وبين الغزل واشاعوا فيها جوا وجدانيا حيث يفيض شعور الواصف بحب الطبيعة ، وإحساسه بأنها جزء منه أو هى أمه الرءوم فهى تشاركه أفراحه وأتراحه ، ويأسه وقلقه ، وابدعوا فى التشخيص الذى يعكس وجدان الشاعر ويبرز مضمون شعوره . ثم خلف من بعدهم خلف تأثروا بهم فى هذين الاتجاهين وكان منهم المحسن والمسئ والمجيد والمتكلف مالا يحسن فى الأذن سماعه، أو تتعلق بالقلب صوره ، أو يرتبط بخيال خلاق

وعصرنا هذا الذى نؤرخ له ونقف فيه على النتاج الأدبى بعامة وفى بيئة الإسكندرية بخاصة قد حفل بكثير من الشعراء الوصافين كابن قلاقس وظافر الحداد واسماعيل بن مكنسة وأبى الصلت أمية وعلى بن عياد وابن الدرى وعلى بن ظافر وابن طريف الخراط السكندرى فقد وصف هؤلاء —وغيرهم— ما وقع تحت عيونهم ، وما جالت به طبيعة بلادهم ، وعنيت به من آثار وقصور ، وما ازينت به الأرض من زهر وريحان ، وثمار مختلفة الطعوم وما جرى فيها من أنهار وغدران ، ولكن قدره قليل إذا قيس الوصف بالمدح مثلا وهو الذى شغل حيزا كبيراً من آثار هؤلاء الشعراء .

وقد شغف الفاطميون بحب المظاهر فابتدعوا القصور والمناظر ، والمواكب والحفلات والأعياد والمواسم ، والبرك والمتنزهات ، وشتى ألوان البذخ والأبهة والجلال والجمال . وكان طبيعياً أن تلتقط عيون الشعراء مارأت وأن تعيش هذه الحياة الناعمة ، حيث يعم النوال ، ويعظم حظهم من الخير والإجلال والتكريم ، وأن يقفوا على تلك المشاهد والمعاهد، وأن يفتنوا بما رأوا ، وأن يفتّنوا فى التصوير ماوسعهم القول وفاض على ألسنتهم الشعر ، يرسم الصورة ، ويحلى فى العين المنظر على قدر ما يصيب هذا الشعر من أصالة وصدق وفيض شعور ، وإحساس بالجمال .

وجاء الأيوبيون من بعدهم يترسمون الخطا ، وان لم يبلغوا المدى ، ويرتفعوا إلى المستوى بسبب ماشغلوا به من وصف المعارك والمواقع ،ومقاومة الصليبيين الغزاة ، ووجد الشعراء لزاماً عليهم أن يركزوا نشاطهم لمكافحة هذا العدو المغتصب ، وان يردوا كيده إلى نحره ، وان يزيلوه عن المواطن التى استولى عليها بالقوة والكيد ، ومن أجل ذلك قل شعراء الوصف حيث تكاثروا لأداء مهمة هى أسمى غاية وأنبل مقصدا ، وندر أن نقف فيه على وصف يبلغ مبلغه من قبل على أية صورة من صوره المألوفة فى ديار غنية بالمناظر حافلة بالمشاهد الطبيعية ، والآثار الباقية والنعيم والخصب ، والعمارة الراقية الزاهرة .

والشعر الوصفى فى الفترة التى يتحدد فيها مجال القول يبدو فيما زخرت به الطبيعة حيث يرسم الشاعر — على قدر مارأى وشعر —منظراً للنيل أو لبركة الحبش أو للأزهار والثمار ، والمتنزهات والقصور، أوما بقى من آثار كالأهرام وأبى الهول والمنارة ، وما فى السماء من سحاب مركوم ونجوم إلى غير ذلك مما التقطته عيونهم ، وما قويت له ملاحظاتهم فأداروه على ألسنتهم شعراً

مصوراً يختلف حظه من الإجادة على قدر اختلاف حظوظهم من جمال من التعبير ودقته وقوته ، وحبهم للطبيعة وغرامهم أوفرط إحساسهم بكل ما هو جميل مثير ، وان عاش كثير منهم يومئذ فى كنف الأمراء وعلى أبواب الخلفاء مما جعله ضئيل الشأن قليل الحظ من الجودة والاتقان حيث لم يفرغ للطبيعة كما ينبغى أن يكون . .

ولعل الشاعر الذى يكثر فى شعره الوصف هو ابن قلاقس المداح فقد عرض للوصف فى مقطعات مستقلة حينا،وفى مقدمات قصائد فى أحيان كثيرة ، مازجاً بين الوصف والغزل أوبينه وبين الخمر أومستقلا به عما سواه ، ونحن موردون نماذج من شعره فى الوصف يتناول ما تعرض له بالتصوير مما يكشف عن مذهبه الشعرى فيه ، وصوره الجديدة أو المسبوقة ، وأسلوبه ومطارح خياله ، وانفعالات نفسه .

فله فى وصف البحر وقد بدأه بمقدمة نثرية قائلا :

« إنى لما تسنمت الأمواج فى ذات الألواح — وتنسمت الإزعاج من ذات الأرواح ، قلت : السلامة أما ميلاد ومعاد أو يوم معاد، وعجبت من حالى ، فى حلى وحالى ، فتشوقت الوطن والوطر ، وكلفت الخاطر وصف ذلك الخطر فقلت :

لو لم يحرم علــى الأيام إنجادى   ما واصلت بين إتهامى وإنجادى

طورا أسير مع الحيتان فى لجج   وتارة فى الفيـافى بين آسـاد

إما بطائرة فى ذا ، ورازمة[1]   أو فى قتـاد على هذا وإقتاد

(1) رازمة : ناقة هزيلة . .

والناس كثر ولكن لا يقـدر لى   إلا مرافقـة الملاح والحـادى

أقلعت والبحر قد لانت شكائمه   جداً ، واقلع عن موج إزبـاد

فعاد — لا عاد — ذا ريح مدمـرة   كأنها أخت تلك الريح فى عـاد

ولا أقــول أبى لى أن أفارقكم   فحيثما سرت يلقـانى بمرصـاد

وقـد رأيت به الأشراط قائمة   لأن أمواجــه تجـرى بأطواد

تعلو — فلولا كتاب الله صح لنا —   أن السموات منها ذات أعمـاد

ونحن فى مـنزل يسرى بساكنه   فاسمع حديث مقيم بيته غـادى

لا يستقر لنـا جنب بمضجعـه   كأن حالاتنـا حالات عبـاد

فكم يعفـر خـد غير منعفر   وكم يخز جبـين غير سجـاد

حتى كأنا — وكان النوء — تقلقنا   دراهم قلبتهـا كف نقـاد

وإنما نحن فى أحشـاء جاريـة   كأنمـا حملت منـا بأولاد

ثم يتشوق إلى أصحابه بالإسكندرية فيقول واصفاً معالم مدينته الجميلة :

يا إخــوتى ولنا من ودنـا نسب   عـلى تبـاين آبـاء وأجـداد

نقرا حــروف التهجى عن أواخرها   ونحن نخبط منهـا فى أبى جـاد

ولا تلاوة إلا مـا نـكرره   من مبتـدا النحل أو من منتهى صاد

متى تنـور آفاق المنـارة لى   بكوكب فى ظـلام الليل وقـاد

وألحظ المشرفات البيض مشرقة   كالبيض مشرفـة فى هام أنجاد

وأستمد من البـاب القـديم هوى   عن الكنيسة فيه جـل إسنـادى

بحيث أنشـد آثـاراً وأنشدهـا   فيبلغ العـذر نشدانى وإنشادى

القصر فالنخـل فالجماء بينهمـا   فالأثل فالقصبات الحر فى الوادى

متى أروح وأغدو فى معاهدها   كما عهدت سماها الرائح الغادى
متى تقر ديار الظاعنين بهم   والبين يطلبهم بالماء والزاد[1]

وهو فى هذا الوصف – على ما ترى – قد أحسن فى تصوير حركة المركب واضطرابه ، وعلو المرح وعبثه ، وعصف الريح ، حتى لم تستقر جنوبهم فى موضع ، فهم فى قلق واضطراب يتحركون حركة الأجنة فى بطون أمهاتهم ويبدو أنه أعجب بهذه التورية إعجاباً شديداً فى قوله :

وإنما نحن فى أحشاء جارية   كأنما حملت منا بأولاد

ولكنه لم ينم عن وصفه بما يكسبه حيوية أكثر نشاطاً ، وعاطفة وانفعالا أشد عنفاً ولو فعل لبرزت لوحة جميلة لمركب عبثت به الريح فى بحر لجى والناس فى صراخ وقلق وهياج مادام قد صور لنا هذا الاضطراب والقلق بصورة الدراهم قلبتها كف نقاد ، ولو كان ذا طبيعة قاصة لحكى لنا فى وصف قصصى هذه الحادثة أو هذا الفزع الذى أحدثه اضطراب البحر وهياجه .

ونراه فى المقطع الأخير يجيد تصوير عاطفته المشتاقة ، حيث ملاعب صباه ، ومرابع لهوه وهواه فيذكرها فى حنين وحب ، ويتمنى أن تقر ديار الظاعنين بهم ، ولكن كيف السبيل والبين يطلبهم بالماء والزاد : عاطفة صادقة وشعر نابض بارق الأحاسيس ، والحب ، والولاء ، وقال من قصيدة أخرى يصف فيها البحر أيضاً فى معرض مدح إلى القاسم :

سفرت عنك أوجه الإسفار   وجرت بالمنى إليك الجوارى
فرفعنا لك الكواكب يا بد   ر الدياجى على الهلال السارى

(1) الخريدة ج ١ ص ١٥٠

وركبنا على عذاب بحار   ونزلنا على عذاب بحار
واعتساف الأخطار يحمل ما كا   ن طريقاً إلى ذوى الأخطار
ما امتطينا أخت السحائب إلا   لتوافى بنا أخا الأمطار
كل نوق من المراكب فيها   ألفات مصفوفة للصوارى
تقسم الماء والهواء لساق   وجناح من عائم طيار
وهى نصفان من جوانح ليل   قد أقيمت ومن جناحى نهار
صورت كالفيول لولا قلوع   أبرزتها فى صورة الأطيار
عوضتنا الأوطان عندك أو   طار بعد الأوطان والأوطار

والحق أنه فى هذا المقطع الذى وصف فيه المركب من أول قوله « كل نوق الخ » قد أجاد التصوير وأوفى الحركة حقها فى هذه الصورة وصحح الأقسام ، وبلغ ما أراد فى قدرة وافتنان .

وللشاعر يصف بركة :

بركة بوركت فنحن لديها   نستفيد الغمار فى ضحضاح
فطرت من قرارها بعيون   غادرتنا بأسرع الإلتماح
تشرق اللحظة اختلاساً وتمضى   نظرة الصب خاف انكار لاح
قد صغت واعتلى الحباب عليها   فهى سيان مع كئوس الراح
أى درع مصونة النسج تمتـ   ـد السواقى فيها بمثل الصفاح

وفرق ما بين وصف البركة ووصف البحر على الوجه الذى تقتضيه الحال ويجرى على الطبيعة . حيث نرى الأول نابضاً بالحركة والاضطراب والهيجان ، حافلا بالصور المثيرة للشعور فى بعض حالاتها والدالة على الذكاء

فى بعضها الآخر ، والشاعر بين الحالين مجدد تارة ومقلد تارة أخرى ، ولا ينسى عنايته البالغة بالزخرف البيانى والمحسنات البديعية حيث لا يكاد يخلو بيت من تشبيه أو محسن بديعى وأما وصفه للبركة فلا نحس إلا برد الحياة يشيع فيه وسكون الماء إلا من هذه الفقاعات التى تشبه الحباب يعلو الخمر فى الكأس فى لمعان وبريق ولكن أين هذا من بركة الجعفرى التى وصفها البحترى وأبرز صورتها المشرقة الجميلة فى لوحة ممتدة حافلة بألوان الصور والحركة ، وإثارة الإحساس بالجمال وأفاض عليها من روائع التعبير والتصوير والموسيقى ما جعلها آية فنية خالدة على الزمان :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات إذا لاحت مغانيها
يحسبها أنها فى فضـل رتبتها ... تعد واحدة والبحـر ثانيها
ما بال دجلة كالغـيرى تنافسها ... فى الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
كأن جن سليمان الذين ولـوا ... إبداعها ، فأدقوا فى معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عـرض ... قالت : هى الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفـود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائـلة ... من السـبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنحـة ... كالطير تنفض فى جو خوافيها
لهن صحـن رحيب فى أسافلها ... إذ انحططن وبهو فى أعاليها
محفوفة برياض لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

وهو وصف يدل على المستوى الفنى الذى بلغه الشعر فى عصر مضطرب بالحركات السياسية ، ويدل على النعيم الذى عاش فيه الشاعر فى ظل الخليفة المتوكل .. وعلى المستوى الثقافى الذى أعان على الخلق الفنى فى ابتكار وإبداع .. ونحن لا نقارن مقارنة تفصيلية وإنما يحسبنا أن نشير إلى النظير لنرى ونحس ونشعر ونتذوق لنعرف مكان الجودة فيما يصنع الشعراء الذين يتعرضون للقول فى موضوع واحد وكفى .

ويصف ابن قلاقس النيل فيقول :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبقت شعاعاً منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال ، فهل وافى لينقـذها ... فى أثرها زورق قد صيغ من ورق[1]

وهو وصف غائم لا يوضع صورة ، ولا يعبر عن شعور وإنما هو من وادى الذكاء أعانه « محفوظه » عليه دون أن يأتى فيه بجديد إلا أن يكون هذا الجديد فساداً أو ضعفاً فى الأسلوب وثقلا فى الألفاظ ، وضعف حظه من التصوير ذى الطاقة الخلاقة ، والقدرة على الاتساع ، وقوة الملاحظة ، ومتابعة الصور من كل جانب ، بحيث يمتع ويثير .

وننظر فى شعر شاعر آخر — هو ظافر الحداد — وقد عرض لوصف النيل فقال :

والنيل مثـل غمامة ... شرب محشاة بأخضر
والجسر فيـها كالطرا ... ز وموجه رقم مصور
تفريكـه ما درجتـ ... ـه له الرياح من التسكر

(١) الورق : الفضة .

ويقول يصف ماءه عند رأس الروضة :

لله يوم أناله النـــيل   لحســـنه جملة وتفصيل
فى منظر مشرف على خضر   كأنه فى الظلام قنديل
يبدى لنا جانباً جزيرته   أشباهها للعين تأميل
ورقمه جسره وتفريكه المو   ج وفى نكته الخليج تجميل

وقال فيه أيضاً :

ولله مجرى النيل فيها إذا الصبا   أرتنا به فى سيرها عسكراً مجرى
فشط يهز السمهرية ذبـــلا   ونهر يهز البيض هندية بترا
إذ مد حاكى الورد غضا وإن صفا   حكى ماؤه لوناً ولم يعد برا

وقال :

انظر إلى الروضة الغـــراء والنيل   واسمع بدائع تشبيهى وتمثيلى
وانظر إلى البحر مجموعاً ومفترقا   هناك أشبه شىء بالسراويل
والريح تطويه أحياناً وتنشره   نسيمها بين تفريق وتعديل

بينما قال فى بركة الحبش :

تأملت نهر النيل طولا وخلفه   من البركة الغناء شكل مقدر
فكان وقد لاحت بشطيه خضرة   وكانت وفيها الماء باق موفر
عمامة شرب فى جواشن خضرة   أضيف إليها طيلسان مغورا

وهى نماذج يصدق عليها حكم واحد هو تلمس الصور من أشباه ونظائر ، فى افتقار إلى ما يثير العاطفة ، أو يحسن فى السمع موقعة من ألفاظ وأساليب :

ويجتمع الشعراء حول كتاب الطبيعة يقرءون بعض فصوله ويتمثلون ما يقرءون صوراً جميلة هى تعبير عن عواطفهم ، وكشف عن سر إعجابهم ، وكان مما وصفوه الرعد والسحاب .

قال ابن قلاقس :

كأنما الرعد والسحاب وقد   حل صوباً والبرق قد لاحا
ثلاثة من وعدهم نفروا   وقد غدا نحوهم وقد راحا
فسل هذا سـيفه وبكى   هذا ، وهذا من خيفة صاحا

ولعل أبرز ما فى الصورة ما فيها من تقسيم وحركة .

ويستثير ظافراً الحداد يوم بارد فيقول :

ويوم برد عقــــوده برد   لها سلوك من هيدب المطر
ينثره الجـــو ثم ينظم منـ   ـه الأرض بالزهر كل منتثر
فهو يحاكى الحبيب فى اللون والـ   لطف وعذب الرضاب والخصر
فالغيم يبكى والزهر يضحك والـ   ـبروق تبدى ابتسام ذى خفر [1]

وهنا يمزج بين الوصف والغزل ويجمع بين صورة الطبيعة الجميلة وصورة الحبيب المثيرة ، ويعمد إلى التقسيم ليكمل الصورة الشاملة الجامعة بين الأرض والسماء ، وإن كان ابتسام البروق وابتسام ذى خفر مما لا يعجب أو يثير ، والصورة كلها بعامة مما وعته الذاكرة دون انفعال قوى بالمشهد .

---

(1) الخريدة ج ٢ ص ١١

ويقف ظافر تجاه النجوم سارحاً ببصره مأخوذاً بالمنظر :

فيقول :

كأن نجوم الليل لما تبلجت ... توقد جمر فى خلال رماد

حكى فوق ممتد المجرة شكلها ... قواقع تطفو فوق لجة وادى[1]

والصورة غامضة ولا نستطيع أن نتمثل « القواقع تطفو فوق لجة الوادى » أو أن نتأثر بها فوق ذلك .

وإذا انتقلنا مع الشعراء إلى الرياض والحدائق وقد تخللتها الغدران وعابثتها الصبا ، ولاعبها النسيم ، وتغنت على أغصانها الأطيار ، وتفتحت فيها الورود والأزهار ، وتساقط الندى على الأكمام وتفتحت البراعم عن الشذى الفواح ، بينما (الدولاب) يعزف على مزماره الرنان ، جلونا معهم صورة الطبيعة الضاحكة وشعرنا بشعور الحب والحنان يغمرنا كما غمرهم ويشيع فى نفوسنا البهجة بالحياة والنشوة والسعادة .

ونبدأ باختيارنا لشاعر جاد شعره فى الوصف وامتاز على أقرانه فيه ، وقد رق أسلوبه وشاعت فيه موسيقى عذبة ، وروح لطيف هو ابن مكنسة ، إذ يقول فى وصف روضة :

ذات غدير خلتـــه ... صرح زجاج مـــردا

ثم انثنى منعـــطفا ... مرتعشاً مـــرددا

خاف من الريح وقد ... هبت به فارتعـــدا

كأنما يد الصـــبا ... مدت عليـــه زردا[2]

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣
(٢) الخريدة ج ٢ ص ٢١٢

وبراعة التشخيص فى هذا الشعر أظهر من أن ندل على سحرها ومبلغ أثرها فى النفوس .

بينما نقرأ لظافر هذه الأبيات :

والماء يبدو فى الخليج كأنه ... أيم لسرعة سيره محفوز

والروض فى حلل النبات كأنها ... فرشت عليه ديابج وخزوز

والزهر يوهم ناظريه كأنما ... ظهرت به فوق الرياض كنوز

فأقاحه ورق وساقط طله ... درر ، ونور بهاره إبريز

وكأنما القمرى ينشد مصرعا ... من كل بيت والحمام يجيز

وكأنما الدولاب يزمر كلما ... غنت وأصوات الضفادع شيز[1]

وفرق ما بين الوصفين وما بين الشاعرين يدركه القارىء المتذوق ...

ونقرأ لتقية الصورية ابنة غيث بن على بن عبد السلام من أهل الإسكندرية قولها :

أعوامنا قد أشرقت أيامها ... وعلا على ظهر السماك خيامها

والروض مبتسم بنور أقاحه ... لما بكى فرحا عليه غمامها

والنرجس الغض الذى أحداقه ... ترنو لتفهم ما يقول خزامها

والورد يحكى وجنة محمرة ... انحل من فرط الحياء لثامها[2]

وتقية هذه شاعرة الثغر قال عنها السلفى فى معجمه « إنه لم تر عينه شاعرة قط سواها فى الثغر وقال : أنشدتنى تقية بنت غيث المدعوة ست النعم

(١) الخريدة ج ٢ ص ١٣ وشيز أصلها شتز بمعنى قلقة أو غليظة خشنة وليست بمعنى الأشوس كما يقول ناشرو الخريدة حيث لا يوافق الأصوات .
(٢) الخريدة ج ٢ ص ٢٢٢

بالثغر[1] ولم يذكر شيئاً من شعرها ، وأبياتها السابقة دالة على مستوى فى الوصف أرق وألطف وأبرع من أبيات ظافر الحداد السابقة ، حيث لانرى التكلف وتصيد الصور وقلق الألفاظ وانعدام العاطفة ...

ولظافر الحداد فى الورد قوله :

وليلة جاد بها العمـــر   ونام عن خلستها الدهر
والورد فوق الماء ما بيننا   قد نثرت أوراقه الحمر
ولم ترعينى مثله منظرا   ماء تلظى فوقه الجمر[2]

وفى الأقحوان قوله :

انظر فقد أبدى الأقاحى مبسما   يفتر ضحكاً فوق قد أملد
كفصوص در لطفت أجرامه   وتنظمت من حول شمسة عسجد[3]

ويظهر أنه كان مغرماً به فقال فيه أيضاً :

والأقحوانة تحكى ثغر غانية   تبسمت فيه من عجب ومن عجب
فى القد والنرد والريق الشهى وطيـــب الريح واللون والتفليج والشنب
كشمسة من لجين زبرجـــدة   قد شرفت حول مسمار من الذهب[4]

ولكنه يؤنث لفظ (الشمس) بالتاء والصواب أن تكون بدونها . وإلى جانب ما نراه أحياناً فى أوصافه من جودة مما ندركه بالحس والذوق فإننا فى كثير

(١) معجم السلفى الورقة ١٧
(٢) معجم السلفى الورقة ٩٨
(٣) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٣١
(٤) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٨ وما بعدها .

من الأحيان — نلتمس له الإجادة بما يتضمن الشعر من عناصر الجمال وأهمها قوة شعوره بما يصف ، تلك القوة التى تمزج العاطفة بعناصر الشعر الأخرى مزجاً يسبغ عليه صفة الجودة أو الامتياز فيها ، وهذا سر إعجابنا بكل شعر جميل .

ونقرأ لشاعر آخر هو على بن عياد الإسكندرانى فى الزهر قوله :

كأنما الأرض لوح من زبرجدة   بدت إليك على غب من السحب
والأقحوانة تحكى وهى ضاحكة   عن واضح غير ذى ظلم ولاشنب
كأنها شمسة من فضة حرست   خوف الوقوع بمسمار من الذهب

ويكاد الحافر يقع على الحافر بين قوليهما حتى إنه إذا لم ينسخ أحدهما قول الآخر فقد سلخه ...

فاذا تركناهما على هذه الحال فلنقرأ قول ابن قلاقس من قصيدته الموردة التى بدأها بقوله :

نعم هو البرق على الأنعم[1]   فاشق به إن شئت أو فانعم
لاح بأعلى هضبة خافقاً   خفق لواء البطل المعـــلم
وزل عن صهوة طرف الدجى   سقطة جل[2] الفرس الأدهم
حتى إذا قابل وادى الغضا   أغضى على مدمعه المثجم[3]
استقبل السفح وكم فوقه   من مقلة سافحة بالدم
فحينا شق كنـــوز الربا   عن ذلك الدينار والدرهم

(١) الأنعم : موضع فى عالية نجد .   (٢) جل الفرس : كساؤه .
(٣) المثجم : السائل دائما .

قام نساء الحى يجنينه … بين فرادى منه أو توءم
فأشكل النوران من مبسم … تعبق رياه ومن منسم
واشتبه الروضان فى نضرة … إلى حياة وحيا ينتمى
ما بين جنات إلى أعين … وبين خيرى إلى حيرم[1]

وهو وصف قصصى كان من الممكن للشاعر أن يستغله ، ويحسن فيه لتنمية فنه والوقوف به حيث يعلو على طبقته ويمتاز بما لم يحسنوا فيه القول ولم يبلغوا فيه المستوى الرفيع .

ونقرأ ما كتبه على بن ظافر فى (بدائع البدائه) قال « أخبرنى ابن المؤيد — رحمه الله — بمعناه قال :

اجتمعت مع جماعة من أدباء أهل الأسكندرية فى بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضاً تثنت قامات أشجاره ، وتغنت قينات أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء ، كجو سماء ، أو مرتعة مراء ، فنثر عليها بعض الحاضرين ياسمينا زان سماءها بزواهر منيرة ، وأهدى إلى لجتها جواهر نثيرة ، فتعاطينا القول فى تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتذبيه ، ثم أظهرنا ما حررنا ، ونشرنا ماحبرنا ، فأنشد العباس بن طريف الخراط الإسكندرى :

نثروا الياسمين لما جنوه … عبثاً فاستقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى … زهر الأرض فى أديم السماء

وأنشد الأديب أبو الحسن على بن سيف الدين الحصوى :

نثروا الياسمين لما جنوه … فوق ماء أحبب به من ماء
فحكى زهره لنا إذ تبدى … زهر الشهب فى أديم السماء

(١) خيرى : نوع من الزهر وحيرم بقر وحشى (الخريدة ج ١ ص ١٥٤)

قال : وكان الذى صنعته :

نثروا الياسمين فى لجة الما … ء فخلنا النجوم وسط السماء
فكأن السماء فى باطن الأر … ض أو الدر طاف فوق الماء

وقال بعضهم وقد سمع القصة دون أن يكون حاضراً :

نثر الغلام الياسمين ببركة … مملوءة من مائها المتدفق
فكأنما نثر النجوم بأسرها … فى يوم صحو فى سماء أزرق

وهذا كله يدور حول محور واحد حيث تتوارد المعانى وتتوافق المبانى إلى حد كبير يشبه أن يكون مما ورثه الذهن ووعته الذاكرة مما هو توارد خواطر . والنقاد القدماء يسمونه نسخاً من وقع الحافر على الحافر ... وعلى أية حال يكون ، فهو مما لا تستجيب له النفس ، ولا يعلق بالخاطر .

ونترك الورد والأزهار لنلتقى بشعرائنا حين وصفوا النخيل والأشجار وشتى ألوان الثمار . فابن قلاقس يصف نخلة فيقول :

ما عهدت النخيل لولا هذه … باسقات بثمار اللهب
هطل الغيث لها من فضة … فهى فى قنوانها من ذهب
تلعب السرج على حافاتها … وتحاكى أنمل المرتعب
واقد أحسبها ألسنة … هزها للسكر خمر الطرب[1]

وقد استغل فى هذه الصورة التشبيه القديم :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل

(١) مختارات الديوان ص ١٨

ولقد أذاب إحساسى بهذه الصورة التى لم أستطع تذوقها :

ولقد أحسبها ألسنة　　هزها للسكر خمر الطرب

فالارتباط بين لعب السرج على حافات النخيل وبين لسان الثمل الطروب غير وثيق ، إلا فى تصوره هو فى حالة من حالات سكره يضطرب فيها لسانه وخياله ...

ولظافر فى متنزهات خليج الإسكندرية قوله :

وعشية أهدت لعينك منظراً　　جاء السرور به لقلبك وافدا
روض كمخضر العذار وجدول　　نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحسان تزينت　　ولبسن من أثمارهن قلائدا[1]

وله فى اللوز الأخضر :

جاء بلوز أخضر　　أصغره ملء اليد
كأنما زئبره[2]　　نبت عذار الأمرد
كأنما قلوبه　　من توءم ومفرد[3]
جواهر لكنما الأصـ　　ـداف من زبرجد

ويتناولون فى أشعارهم أشياء مما تقع كثيراً تحت أعينهم ولعلهم كانوا يتبارون فى وصفها ، ومن أمثال ذلك : السيف ، ومشط العاج ، والفرس ، وكرسى النسخ ، والورق الكاغد ، والقلم والمغنى .

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥ وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٨
(٢) ما يعلوه كالذى يعلو الثياب الجديدة كالشعر .
٣ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٨

فابن قلاقس يصف السيف فيقول على لسانه :

رب يوم له من النقع سحب　　ما لها غير سائل الدم ودق
قد جلته يمنى بلال بحدى　　فكأنى فى راحة الشمس برق

ويصف مشط عاج فيقول :

ومتيم بالآبنوس وجسمه　　عاج ، ومن أدهانه شرفاته
كتمت دياجى الشعر منه بدرها　　فوشت به للعين عيوقاته

ووصف أبو الصلت أمية الفرس من رواية سليمان بن الفياض تلميذه بالأسكندرية فقال :

صفراء إلا من حجول مؤخرها　　فهى مدام ورسغها زبد
تعطيك مجهودها فراهتها　　فى الحضر والحضر عندها وخد

ووصف ظافر كرسى النسخ « فقال على لسانه » :

انظر بعينك فى بديع صنائعى　　وعجيب تركيبى وحكمة صانعى
فكأننى كفا محب شبكت　　يوم الفراق أصابعا بأصابع

ووصف ابن مكنسه ورق كاغد أهدى إليه مازحاً فقال :

أهديت لى ورقاً أرق　　من الشراب المستحيل
خلقاً تمزقه الخطو　　ط كأنه عرض البخيل
لا بالصبيغ ولا الصقيـ　　ـل ولا العريض ولا الطويل
إلا بياضاً خلته　　وضحا على جسم نحيل[1]

(١) الخريدة ج ٢ ص ٢٠٧

ووصف ابن قلاقس القلم فقال :

وبيمناك طير يمن وسعد   أصفر الظهر أسود المنقار
قلم دبر الأقاليم فالكتـ   ـب به من كتائب المقدار
ياطراز الديوان والملك أصبحـ   ـت طراز الديوان فى الأشعار
وبنوك الذين مهما دجا الخطـ   ـب أرونا مطالع الأقمار[1]

وله فى وصف مغن يدعى (داجن) :

لا أشرب الـــراح إلا   ما بين شادٍ وشادن
وإن فنيت فعــــندى   إلى معادٍ معـــادن
قم يانديمى فانصت   والليـــل داجٍ لداجن
غنى وناح فـــنزعـ   ـت ثوب خاشٍ مخاشن
وانهض بطيشك عن سمـ   ـت ذى وقارٍ وقارن
هات الكميت واهلا   منها بصافٍ وصافن
أثور من ذى ومن ذا   بكل غابٍ بغابن
وإن رمتنى اللـــيالى   يوماً بداهٍ أداهن[2]

والصورة محشوة حشواً ثقيلا بهذا المحسن البديعى الذى أغرق فيه « الجناس الناقص أو ما يسمى » « بالجناس المطرف » مما ذهب بجمال الصورة ، وأغرقنا فى معجم ألفاظ ذات ألغاز .

(٤) الخريدة ج ١ ص ١٦٠

(١) الخريدة ج ٢ ص ١٦١

وقبل أن نختم هذه المختارات فى وصف هذه الأشياء ، نقف وقفة قصيرة عند وصف رمد طال عليه الأمد لابن مكنسة فيقول :

ما لنهـــارى كأنه الغســـق   وما لليـــلى ما شقه الفلق
وما لعينى أرى بها عجباً   تغرق فى مائها وتحترق
ولى طبيب تشكو مراوده   وتستغيث الجفون والحدق
شيافه[1] تطرد الشفاء إذا   مر بعينى وكحله الأرق
وإن تمادى على زرتكم   وقائداى العصى والحلق
لم يبق من صبغة المدام سوى   جفون عين كأنها الشفق
وبى من الداء ما حكايته   لابد منها وتركها خرق
طبعى ووجه البخيل فى قرن   هذا وهذاك ليس ينطلق
يا عين حتام أنت باكية   قد نفد العين منك والورق[2]

وننتقل إلى موضوع تعرضوا لوصفه ، وكان ينبغى أن يفعلوا ، فآثار الإسكندرية مشهورة ، وإن لم يبق منها سوى المنارة . وقد قال القلقشندى (وقد ذهب جل ذاك – يقصد عجائبها – وزال أكثره ولم يبق من عجائبها ظاهر إلا عمود السوارى وهو عمود عظيم من حجر صوان خارج المدينة لا يكاد يكون له نظير فى الدنيا)[3] .

وبقى للإسكندرية كذلك سورها العظيم الذى جدده وقواه السلطان صلاح الدين ، وتردد على ألسنة الكتاب . ومن تلك العجائب منارة الأسكندرية

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٢

(٢) شيافه : أدويه التى يشتفى بها .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٣

وقد قال عنها ابن فضل الله العمرى فى كتاب « مسالك الأبصار » (وشهرتها كافية ، ولم يبق منها إلا ما هو فى حكم الأطلال الدوارس والرسوم الطوامس ، وقد كانت هذه المنارة مسرح ناظر ومطمح أمل حاضر طالما جمعت أخدانا ، وكانت لجياد الخواطر ميدانا[1] .

ويروى العمرى بعد ذلك فى كتابه ما حكاه ابن ظافر فى كتاب (بدائع البدائه) من (أن ابن قلاقس والوجيه أبا الحسن على بن الذروى طلعا المنارة ، والوجيه يومئذ فى عنفوان شبابه وصباه ، وهبوب شماله فى الجنوب وصباه ، وابن قلاقس مغرم به مغرى بحبه مكب على تهذيبه ، مبالغ فى تفضيض شعره وتذهيبه ، ولم تكن وقعت بينهما تلك الهناه ، ولا استحكمت بينهما أسباب المهاجاة ، فاقترح عليه ابن قلاقس أن يصف المنارة فقال بديهـا :

وسامية الأرجاء تهدى أخا السرى ... ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست لها بردا من الأنس ضافيا ... فكان بتذكار الأحبة معلما . . .
وقد ظللتنى من ذراها بقبـة ... ألاحظ فيها من صحابى أنجمـا
فخيل أن البحر تحتى غمـامة ... وأنى قد خيمت فى كبد السـما

فاشتد سرور ابن قلاقس وفرحه ، وقال يصفها ويمدحه :

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقبـا ... كأنما فيه للنسرين أوكـار
رأس القرارة سامى الفرع ، فى يده ... للنون[2] والنور أخبار وآثار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت ... خليل لها فى بديع الشعر مضمار

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ص ٢٤٠

(٢) يقصد المركب الذى يشبه حرف النون .

ولم يدع حسنا فيه أبو حسن ... الا تحكم فيه كيف يختـار
حلى المنارة لما حل ذروتهـا ... بجوهر الشعر بحر منه زخـار
ما زال يذكى بها نار الذكاء إلى ... أن أصبحت علما فى رأسه نار[1]

وبقراءة النصين قراءة سريعة يمتاز ابن الذروى ، ويبلغ حظا من الإجادة غير قليل ، فى أسلوبه ، وجمال صوره أى فيما تضمنه الأسلوب من صفاء وسهولة وانسجام لفظى ، وما نحسه فى صورته التى رسمها للمنارة من شعوره بالأنس والمحبة ، وتذكره أصحابه وأحبابه الذين هم كالنجوم . . . فهم فى صحبته يشاركونه الاستمتاع بهذا المنظر الجميل فى أنس وصفاء ، وقد خيموا فى كبد السماء . بينما نرى ابن قلاقس يجمد الصورة ويضيق أبعادها فلا تبدو المنارة فى نظره وشعوره إلا بناء ضخما رأسى القرار أطلق فيه عنان « النظم » ولكنه « نظم » لايحصل شيئا ، ولا يدل على امتلاء الشاعر بشعور من فيض الإعجاب البالغ بالأثر الخالد .

ومن الشعراء الذين رحلوا إلى الاسكندرية من بلاد المغرب ووقف على هذه المنارة الوزير أبو عبد الله محمد أحد حفداء صاحب « العقد الفريد » . روى المقرى فى نفح الطيب[2] قال : حدث الشيخ الأجل أبو عبد الله محمد بن على اليحصبى القمونى رفيقه قال : اصطحبت معه فى المركب من المغرب إلى الإسكندرية فلما قربنا منها هاج علينا البحر ، وأشفينا على الغرق ، فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الإسكندرية فسررنا برؤيته ، وطمعنا فى السلامة ، فقال لى : لابد أن أعمل فى المنارة شيئا ، فقلت له :

(١) مسالك الأبصار وبدائع البدائه ص ٢٤٦

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٠

أعلى مثل هذه الحال التى نحن فيها ؟ فقال : نعم ، فقلت فاصنع ، فاطرق ثم عمل بديها :

لله در منار اسكندرية كم   يسمو إليه على بعد من الحدق
من شامخ الأنف فى عرنينه شمم   كأنه باحث فى دارة الأفق
يكسر الموج منه جانبى رجل   مشمر الذيل لايخشى من الغرق
لا يبرح الدهر من ورد على سفن   ما بين مصطبح منها ومغتبق
للمنشآت الجوارى عند رؤيته   كموقع النوم من أجفان ذى أرق

وهذه روح أندلسية فيها براعة التصوير والتشخيص وفيض شعور بالأثر الخالد ، ولعلها خير ما قيلت فى منار الاسكندرية فيما وقع عليه اختيارنا وما عثرنا عليه من أشعار فى هذا الموضوع .

ووقف ظافر على الأهرام فقال :

تأمل هيئة الهرمين وانظر   وبينهما أبو الهول العجيب
كَعَمَارِيَّتَيْنِ على رحيل   لمحبوبين بينهما رقيب
وفيض البحر عندهما دموع   وصوت الريح بينهما نحيب[1]

والبيت الأخير يروى فى الخريدة هكذا :

وماء النيل تحتهما دموع   وصوت الريح بينهما نحيب[2]

وينتهى المختار من أشعارهم فى الآثار ، ولم يكن حظها من حيث الوفرة والافتنان مما يذكر لهم بالإجادة والإتقان ، والاهتمام بهذه

---

(1) بدائع البدائه ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٤

(2) الخريدة ج ٢ ص ٧

الروائع الخالدة التى أفاضت على ألسنة الشعراء فى مختلف العصور شعراً باقيا ونالت منهم كل تقدير ، وكان أولى بشعرائنا فى الإسكندرية بخاصة أن يعنوا بهذا الجانب ، ولكنهم قصروا لانشغالهم بالسعى الحثيث وراء الرزق على أبواب الرازقين من الخلفاء والأمراء وأولى الأمر عامة .

ولكنهم وصفوا القصور ، وقد حفظ لنا على بن ظافر نصا لابن قلاقس وصف فيه قصر بنى خليف بالاسكندرية . فقد حكى على بن ظافر : (وحضر – أى ابن قلاقس – يوما عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية فى قصر رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، قد ارتدى جلابيب السحائب ، ولاث عمائم الغمائم ، وابتسمت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن حنايا غرفاته ، وأشرف على سائر نواحى الدنيا وأقطارها ، وحبته الرياض بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها ، والرمل بفنائه قد نثر تبره فى زبرجد كرومه ، والجو قد بعث بذخائر الطيب لطيمة نسيمه ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونشرت غدائرها ، والطل ينثر لؤلؤة فى مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يرعد غيظا من عبث الرياح به ، فسأله بعض الحضور أن يصف ذلك الموضع الذى تمت محاسنه ، وغبط به ساكنه ، فجاشت لذلك لجج بحره ، وألقت إليه جواهره لترصيع لبة ذلك القصر ونحره ، فقال :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت   فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه   وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية   رأقام فى أرض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه   فافتر عن نور يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس   تزهى بلؤلؤ طلها المنثور

والنخل كالغيد الحسان تقرطت ... بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حبك النسيم كأنما ... أبدى غصون سوالف المذعور
والبحر يرعد متنه فكأنه ... درع تشن بمعطفى مقرور
وكأننا والقصر يجمع شملنا ... فى الأفق بين كواكب وبدور
وكذاك دهر بنى خليف لم يزل ... يثنى المعاطف فى حبير حبور[1]

وهو وصف عرض له فى مدحه لبنى خليف ، ووصف روضته قد نال منه الجانب الأكبر من مقدمته ، وقد أجاد وصفها ، وأبدع تصويرها ، وجمع بين عناصر فى الطبيعة وأحسن الجمع بينها ، ومما أثار الاعجاب به حقاً قدرته على التشخيص ، فالنخل كالغيد الحسان ، والرمل فى حبك النسيم كأنه أبدى غصون سوالف المدعور ، وألفاظه ملائمة لموضوعها ، وأسلوبه ينساب فى رقة وعذوبة . . .

ثم لانجد لغيره وصفا يدور حول القصور وإنما وجدنا الشاعر الرقيق إسماعيل بن مكنسه يصف منزله الضيق وقد صدت عنه الشمس ، وهبت به ريح السراويل النتنة ، وأضحى هو فيه مثل فأر فى كنيف على نحو مثير عنيف : يثير الاعجاب ويثير الضحك معاً إذ يقول :

لى بيت كأنه بيت شعر ... لابن حجاج من قصيد سخيف
ضايقتنى بنات وردان حتى ... أنا فيه كفارة فى كنيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف ... مثله ، وهو مثل عقلى الضعيف
وإذا هب فيه ريح السراويـ ... ـل فسلم على اللحى والأنوف

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥ وبدائع البدائه ص ١٧٥

بقعة صد مطلع الشمس عنها ... فأنا مذ سكنتها فى الكسوف
وهو لو كان بن حجى ونسكى ... صد فى بغضه عن التطويف
أنت وسعت بيت مالى فوسع ... منه لى فهو منزل للضيوف
وأجرنى من الضنا وأجرنى منـ ... ـك على حسن خلقك المألوف[1]

وهكذا نرى إنتاجهم فى الشعر الوصفى غزيرا بفضل ماقامت به الدولة الفاطمية من تشييد القصور والمتنزهات ، وما حفلت به الطبيعة المصرية من مناظر جميلة ، ومشاهد خلابة ، وما حفلت به الطبيعة المصرية من مناظر جميلة ومشاهد خلابة ، وما أفاض عليها النيل من عظيم خيره ، وفواضل انعامه حتى أخذت أرضه الطيبة زخرفها وازينت فإذا هى جنات وأنهار وزروع وثمار ، وإذا هى زاخرة ببدائع الآثار وعجائب ما أبدع الإنسان . . . على حين أن الشعراء — فيما اخترنا لهم — لم يخرجوا عما رسمه الذين سبقوهم أو عاصروهم فى بغداد والشام ، وقرطبة وغرناطة وسائر بلاد العرب ممن لهم فى الميدان سبق وامتياز أجرى ذكرهم على كل لسان ، حيث لم تنقطع روافد الثقافة الأدبية وغيرها من الثقافات من منابعها فى الشرق والغرب عن الجريان إلى جانب هذه الطبيعة المصرية الخصبة التى أمدتهم بمعين لاينضب وأغرت الشعراء بوصفها ، وإشباع حاجتهم الفنية فى التعبير عنها ، والتمتع بها فتأثروا بما رأوه ، وعبروا عن إعجابهم به ، وفاض فى ذلك القول وعظم حظ نتاجهم هذا من الوفرة والتنوع ، وإن يكن هذا الفن كثيرا ماأتى عرضا دون أن يقصد إليه الشاعر قصدا ، ويفرغ له مأخوذا بجمال الطبيعة وسحرها كما فعل ابن طباطبا وكشاجم وابن المعتز وتميم بن المعز والصنوبرى وابن خفاجه وغيرهم من ذوى الآثار الوصفية الحسان ، ولم يجدد الشعراء فيه تجديدا ظاهرا

(١) الخريدة ج ٢ ص ٢١١

يدل عليهم ويشير اليهم وتحفظه الأجيال وبطون الأشعار ، بل كان فى الأعم الأغلب يسير على النمط القديم مترسما خطاه إلا أن يكون مافعلوه إعادة تخطيط لما جرى على لسان السابقين دون أن نرى الإسكندرية — بخاصة — وقد حظيت بعنايتهم فاشادوا بمعالمها ، ورسموا فى لوحاتهم مناظرها ، ولكنهم لم يفعلوا إلا قليلا مما أوحت به آثارها وما امتازت به البيئة المصرية بعامة دون غيرها من البيئات فى بلاد أخرى . وحتى هذه كان الشعراء فيها مقلدين إلى حد كبير ، واعتمد الشاعر على مذخوراته فى الحفظ ولقطة الذهن واصطناع التعبير والعناية البالغة بالزخرف والنقوش البيانية دون أن نحس نبض الشعور ، ويقظة الحس وصدق الرؤية ، وغناء اللغة بمبتكرات الأساليب وروائع التصوير ، وذلك كله بسبب ماجرى عليه الشعر من قديم من الوقوف على أبواب الخلفاء والكبراء ، وتلمس الارزاق بكل سبيل فغزر المدح على ماسبق بيانه وقل القول فى الأغراض الأخرى ومنها الوصف بالقياس اليه لبروز الاهتمام به إلى جانب شيوع الاتجاه الدينى فى الإسكندرية — وهو الاتجاه الغالب على الثقافة فى ذلك الوقت حتى ضعف الاتجاه إلى الفن وتشجيعه ونقده ففقد عناصر تكوينه وتقويمه . وصار أمره على تلك الحال .

٤ — الغزل والخمر

سيظل الشعر — على طول المدى — هو التعبير الراقى عن النفس فى عواطفها وأميالها المختلفة مصوراً لأشواقها ، ونزعاتها ونزغاتها مرددا صدى ما يعتمل فيها بانغامه الحلوة الشجية ، وموسيقاه العذبة ليكون غذاء للنفوس والعقول ، ومتعة روحية تفوق سائر ما عرف الإنسان من ألوان المتاع ، ومظهراً للإحساس بالجمال ، وأداة للتعبير عنه فى حرية وانطلاق ، لهذا كان الشعر أسبق الفنون الأدبية إلى الوجود وسيظل كذلك سابقاً إلى التعبير عن طاقات النفس البشرية ووسيلتها فى الإبانة عما تجيش به من شتى العواطف والنوازع والانفعالات .

ومنذ كان هذا الفن (الغزل) وهو يؤدى وظيفته فى هذا المجال مصوراً لأشواق النفس ، وحاجات القلب تارة ، ومعبراً عن منازع الطاقة البشرية الجسدية التواقة إلى الانطلاق والنشاط تارة أخرى . وقد سجل الشعراء هذه الأحوال كلها فى تعبير فنى مطرز بموسيقى جميلة ، هو أحب الفنون الأدبية إلى النفس ، وأقربها لصوقاً بالقلب واعذبها فى الآذان ، وأصلحها للالحان .

وفى مرابع الجمال ، ومسرح الغيد الحسان ، جرى الشعر لا هثاً منشداً : متغنياً ما يجده من سرور ولذة ، وشعور قوى بالمتعة ، أعان عليه ما صادفه من مجالس الشراب ، وقد غنيت بما يمتع ويثير ، ويضخم الشعور ، ويفيض القول دون رقيب أو حسيب ، فأغرم الشاعر بالخمر وتغنى بها كما تغنى بمفاتن الجسد ، وعواطف الحب والشوق والصد والهجران .

وتهافت الشعراء الغزلون باحثين أو متعرضين للنساء مترددين أو معجبين ، وفاض الغزل تعبيراً مستقلا عن غيره من الفنون ، وكذلك فعلوا بمجالس

الخمر ، وما كان يدور بها من أحوال ، وما يأتون فيها من كل محرجة يأباها التصون والعفاف منذ جلست المرأة « القينة » تصاحب الشرب وتسقى وترقص وتغنى على عزف القصبة أو الطنبور ، ومنذ فتنوا بالساقى الأمرد ذى الخد الأسيل والقدّ المياس .

وعاش الغزل والخمر حياة نشيطة فى العصور الأولى إلى أن أصبحا وسيلة كتقدمة موسيقية لغيرها من الفنون ، وأصبحا صناعتين ينشدهما كل شاعر وأن لم يعان ما يعانيه أهل الصبوة والفتون .

وجرى كل منها على حالين متنافرين من الصدق والإدعاء ، وفى منزعين مختلفين من الإسراف والقصد حتى العصر النواسى الذى رفع العقيرة بالمجون فانحلت عقد الحياء ، وانحرف الشعراء السبيل فتغزلوا بالمذكر ، وعكفوا على الخمر وقدسوها وبالغوا فى تمجيدها حتى عدها ابو نواس روحاً شفافة وسبح بحمدها وأثنى عليها بآلائها وسماها بأحسن أسمائها استهزاء منه وسخرية بالدين ...

وبلغت خمرياته مدى لم تصل إليه من قبل، ولم يدركه فى وصفها والتنويه بقدرها مدرك عاصره أو جاء بعده على طول الزمان إلى الآن .

وعندما ملأ الفاطميون الحياة لهوا ومتاعاً وأباحوا الحرية للناس أن يقولوا ويفعلوا ما يشاءون لم يخش الشعراء فى ذلك وقاراً ، وقد أتيح لهم هذا الحظ من الحرية والنعيم فذهبوا مذاهب شتى فى هذا السبيل ، وعظم حظهم من المرح والمجون والانطلاق بالتعبير عن ذلك كله فى خفة وعذوبة روح ، وفكاهة وحبور وكان شعر مصر الفاطمية — بعامة — أصدق مرآة لهذه الحياة الصاخبة ، فوصفوا مجالس اللهو ، وتغزلوا بالمؤنث والمذكر ، وتداعوا إلى مجالات

الاستماع ، وخرجوا إلى الأديرة ينتهبون الملذات معلنين مجاهرين فى حرية وأمان .

وعظم حظ شعراء الإسكندرية فى هذا المجال ، معبرين عن أشواقهم ، ونوازع نفوسهم لم يحجبهم عن القول تزمت ، أو دعوة تقى متحرج ، حتى أن الحافظ المحدث الورع السلفى لم تمنعه رواية الحديث أن يروى فى معجمه ما أنشده أبو طاهر إسماعيل بن مكنسة من قصيدة مطلعها ...

ان كنت تزعم أن بينك فى غد   حق فمن لك أن أعيش إلى غد
فاهجر وصد فان عندى ذلة   وتجلدا للحب ما لم يعهد
وزعمت أنى لست من أهل الهوى   صبا ، فقل ما تشتهى وتقلد
أرأيت صبرى عنك غير مشرد   أرأيت طرفى عنك غير مسهد
والله ما أبصرت يوما أبيضا   منذ ابتليت بلحظ جفن أسود
قل يا عذولى ان قلبى فى الهوى   عما ينص ذوو النهى قلب صدى
ما باله يجفو وقد زعم الورى   أن الندى يختص بالوجه الندى
لا يغررنك وجنة محمرة   رقت فللياقوت طبع الجلمد(١)

ولم يمنعه مانع أن يروى ما أنشده عبد الكريم على بن الطفال القضاعى بالثغر لنفسه ابتداء قصيدة :

ليس الوقوف على الأطلال من شغلى   أنّى ، وشغلى ذوات الأعين النجل
عين أعن على قلبى فقلبه   داعى الصبا فصبا للهو والغزل
من كل فاترة الألحاظ فاتنة الـ   ألفاظ تسحب ثوب الدل والكسل
قيد القلوب عقال العقل صورتها   مراد كل فؤاد ، فتنة المقل(٢)

(١) معجم السلفى ورقة ٢٧٩

(٢) المعجم ورقة ٢٤٣ ، وانباه الرواه على انباه النحاه للقفطى جـ ٢ ص ١٩١ .

وقال عن القضاعى هذا (وعبد الكريم كان له حلقة فى الجامع للنحو ، وكان مائلا إلى الخير وشعره فى غاية الجودة ، وعندى منه مقطعات أنشد منها ، وكان كفيف البصر ، ثم تزوج ورزق أولاداً فصار يمدح ويستميح ضرورة ، وتغيرت عليه الأحوال) .

وكذلك فعل السلفى عندما روى ما أنشده أبو الطاهر إسماعيل بن مكنسة وهو ما رواه أبو الصلت أمية فى « الرسالة المصرية »[1] ونقله عنه العماد فى خريدته[2] قال ابن مكنسة :

وعسكرى أبداً حيثما   تلقاه يلقاك بكل السلاح
حاجبه قوس ، وأجفانه   نبل ، وعطفاه تثنى الرماح
لا غرو وانظر كيف ألحاظه   غير صحاح قاتلات الصحاح[3]

وزيد عليها هذا البيت :

راح وفعل الراح فيه كما   يفعل بالغصن نسيم الرياح

وروى أنه كان لأبى الحسن على بن يوسف المطرز بالإسكندرية قصائد جمة فى مدحه ومنها من مقدمة قصيدة قوله :

فى الحب عذل عواذلى مصروف   عنى ، ومنكر لوعتى معروف
ليس الشجى من الخلى بقابل   نصحا ، وليس كعادة تكليف
يا هل لوجد جد بى من سلوة   لوجودها ثقل الغرام خفيف
أم هل مواصلة الوصال ينالها   منى فؤاد للصدود حليف
أم هل يسر بفك أسر فى الهوى   قلب يقلبه الأسى ملهوف[4]

(١) الرسالة المصرية ص ٤٧   (٢) الخريدة ج ٢ ص ٢٠٧
(٣) معجم السلفى ورقة ٢٩٠   (٤) المصدر السابق ورقة ١٠١

واكتفى الحافظ السلفى بذكر ذلك من شعره فقط .

وقد أثر عن الطرطوشى رأس فقهاء الإسكندرية شعر فى الغزل — وإن يكن من شعر العلماء — بحيث لا ينبىء عن تجربة حقيقية — فقد حكى أنه لما سمع منشداً ينشد للوأواء الدمشقى :

قمر أتى من غير وعد   فى ليلة طرقت بسعد
بات الصباح إلى الصبا   ح مُعانِقِى خدا بخد
يمتار فى وناظرى   ما شئت من خمر وشهد

فقال : أو يظن هذا الدمشقى أن أحداً لا يحسن نظم الكذب . . ؟ لو شئنا لكذبنا مثل هذا ، ثم أنشد لنفسه يعارضه :

قمر أتى من غير وعد   حفت شمائله بسعد
قبلته ورشفت ما   فى فيه من خمر وشهد
فمزجت مزن السلسبيـ   ـل بزنجبيل مستعد
ولثمت فاه من الغرو   ب إلى الصباح المستجد
وسكرت من رشف العقيـ   ـق على أقاح تحت رند
فنزعت عن فمه فمى   ووضعت خدا فوق خد
وشممت عرف نسيمه الـ   ـجارى على مسك وند
وصحوت من ريا القرنـ   ـفل بين ريحان وورد
وألذ من وصلى به   شكواه وجدا مثل وجدى[1]

ومع ذلك نحس فارقاً فى الأسلوب والروح ، ويظهر تكلفه فيما كذب فيه.

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٠

واختلفت منازع الشعراء بين معبر تعبيراً حسياً وآخر وجدانياً ، وأحياناً يتردد الشاعر بين هذين المنزعين ، فهذا على بن الحسين بن معبد القرشى الإسكندرى يقول فى مقدمة إحدى قصائده :

ومهفهف طالت ذوائب فرعه ... كالليل فاض على الصباح المسفر
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به ... لى مهجة عن حبه لم تقصر
وسنان كل السحر حشو جفونه ... ففتورها عن مهجتى لم يفتر
ملك القلوب بدر شمطى لؤلؤ ... عذب اللمى فى غنج طرف أحور
وبوجنة رقم الجمال رياضها ... ببنفسج من فوق ورد أحمر
كتب العذار على صحيفة خده ... هذا بداية حيرة المتحير
وهبت محاسنه الكمال فأصبحت ... فتن العقول وروض عين المبصر [1]

ويقول فى مقدمة قصيدة أخرى :

وهبت سلوى لدين الصبا ... فصيرت مذهبة مركبا
وصرت إذا ما الهوى مربى ... يقول له خاطرى مرحبا
وإنى لأهوى رشأ ساحراً ... أعار فتور العيون الظبا
إذا ما تثنى فغصن نقا ... وبدر جلا شعره غيهبا
وبى أسمر ناسبته القنا ... يروقك خداً حلا مذهبا
سقى روض خديه ماء الشبا ... ب ففتح زهراً به معجبا
وخيلانه خيلت عنبرا ... على صفحة التبر قد حببا
تقلد من لحظة صارما ... أسال النفوس وما ذنبا

(1) الخريدة جـ ٢ ص ٢٣٣

وملك من حسنه دولة ... لطاعتها كل قلب صبا [1]

إذ نرى الشاعر يتناول بعض أجزاء الجسم ، ويصور أثرها فى النفس ، فيقرن بين هذه الصورة بأثرها فى قلبه وعقله فقد ملك جماله القلوب وحير العقول ، وأسال النفوس لحظه الصارم وصبت القلوب – طائعة – دولة حسنه .

ومن هذا السبيل قول ابن مكنسة من قصيدة .

أعاذل ما هبت رياح ملامة ... بنار هوى إلا وزادت تضرما
فكلنى إلى عين إذا جف ماؤها ... رأت من حقوق الحب أن تذرف الدما
فكم عبرة أعطت غرامى زمامها ... عشية أعملن المطى المزمما
وعين حماها أن يلم بها الكرى ... أحاديث أيام تقضين بالحمى
ولله قلب قارعته همومه ... فلم يبق حد منه إلا تثلما [2]

وهى صورة جميلة لقلب قارعته الهموم ، وأنزلت به الآلام رحلة الأحباب ، وانقادت الدموع لغرامه المشبوب حتى إذا ما جفت العين منها ، سالت بدلها الدماء ، ولن ينفع اللوم أن يصرف القلب عن هواه ، فإنه ما يزداد به إلا تعلقا .

ومما يستجاد لظافر الحداد – وقد شاقه وشغل باله من حل بالفسطاط ممن علقه الفؤاد – قوله :

بمنازل الفسطاط حل فؤادى ... فارجع على عرصاتهن وناد
يامصر هل عرضت لغصن فوقه ... قمر بربعك إربة لمعادى

(1) المصدر السابق ص ٢٣٤ (2) الرسالة المصرية ص ٤٦

ترف يميله الصبا ميل الصبا … بقوام خوط البانة المياد
أترى أنال النيل بعض رضابه … فعذبن منه مياه ذاك الوادى
فأفاد منه الطعم لكن شرب ذا … يروى ، وذاك يزيد كرب الصادى
واهاً على تلك الديار فإنها … أوطان أحبابى وأهل ودادى
ولقد أحن لها ولسن منازلى … وأودها شغفاً ، ولسن بلادى
دِمَنٌ لبست بها الشباب ولمتى … سوداء ترفل فى ثياب حداد
والعيش أخضر والديار قريبة … وأبيت من أملى على ميعاد
والقلب حيث القلب رهن والظبا … حدق الظباء الغيد قيد الغادى
شتت شمل الدمع لما شتتوا … شملى ، وصحت به بداد بداد
فالآن تخترق الجفون عبابه … ما بين مثنى توءم وأحاد
قانى المسيل كأن فيض غروبه … فوق الخدود عصارة الفرصاد[2]

وقوله — وقد كان غزله أرق ألوان شعره لعاطفة قوية فيه :

لو كان بالصبر الجميل ملاذه … ما سح وابل دمعه ورذاذه[1]
مازال جيش الحب يغزو قلبه … حتى وهى وتقطعت أفلاذه
لم يبق فيه مع الغرام بقية … إلا رسيس يحتويه جذاذه
من كان يرغب فى السلامة فليكن … أبداً من الحدق المراض عياذه
لا تخدعنك بالفتور فانه … نظر يضر بقلبك استلذاذه
يأيها الرشأ الذى من طرفه … سهم إلى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك ، من نظَّامه … خمريُّه قد جال ، من نباذه ؟

(١) الخريدة ج ٢ ص ٢

وقناة ذاك القد كيف تقومت … وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه
رفقاً بجسمك لايذوب فإننى … أخشى بأن يجفو عليه لاذه[1]
هاروت يعجز عن مواقع سحره … وهو الإمام فمن ترى أستاذه
تالله ماعلقت محاسنك امرأ … إلا وعز على الورى استنقاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت … طوعاً ، وقد أودى بها استحواذه
ما لى أتيت الحظ من أبوابه … جهدى ، فدام نفوره ولواذه
إياك من طمع المنى فعزيزه … كذليله ، وغنيه شحاذه[2]

وروى له العماد زائيته المشهورة ومنها :

حكم العيون على القلوب يجوز … ودواؤها من دائهن عزيز
كم نظرة نالت بطرف ذابل … ما لاينال الذابل المهزوز
فحذار من تلك اللواحظ غرة … فالسحر بين جفونها مكنوز
ياليت شعرى ، والأمانى ضلة … والدهر يدرك صرفه ويجيز
هل لى إلى زمن تصرم عهده … سبب ، فيرجع ما مضى فأفوز
وأزور من ألف البعاد وحبه … بين الجوانح والحشا مركوز
ظبى يناسب فى الملاحة شخصه … فالوصف حين يطول فيه وجيز
والبدر والشمس المنيرة دونه … فالحسن منه يروق والتمييز[3]

ولموسى بن على السخاوى الشاعر الإسكندرانى قصيدة يمدح بها القاضى الفاضل بدأها بمقدمة غزلية سار فيها على النهج القديم تصويراً وأسلوباً ، وإحساساً لا ينبىء عن صدق ، وإنما هو غزل مصنوع إذ يقول :

أغضى وأذعن حين عن الربرب … حتى تصيده الغزال الأشنب

(١) لاذه : ثوبه
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٩
(٣) الخريدة ج ٢ ص ١٢ و ١٣ ؛

فطوى حشاه على جوى جمر الغضا   مما جنى من جمرة تتلهب
وصبا فأشراه الغرام وذاده   عن ورده ، وهو الهزبر الأغلب
وصبت إليه من الصبابة لوعة   تغرى بكل محرب لايغلب
وهى التى ما زال يجنى حلوها   من مرها ، فعذابها مستعذب
ويمدها من كل أحوى أحور   ما منه يرتاع الكمى المحرب
إنى – على أنى الأبى فؤاده –   فالرعب مما ليس منه يقرب
آدنو وأشجع إذ دنت أسد الشرى   وتعن لى العين الحسان فأرهب
وأميل من خجل إلى وجل به   أضنى ، فذا يكسو وهذا يسلب[1]

فلا نسمع إلا جلبة الألفاظ ، وقوة الأسلوب ، فى مقام تطيب فيه رقته وسلاسته ، وفيضه بشعور صادق ، دليلا على حب لاعج ، وهو ما نحسه فيه .

ومن شعره – والتكلف باد عليه قوله :

إننى بدالى   فى الهوى بدالى
مذ جفت وصالى   طلعة الهلال

* * *

أسأرت بقلب [2]   فيه حل قلبى
صاح بدر حى   فى وصال حبى
قد سلبت لبى   فأنا ألبى
ربة الحجال   لم تدع هجى لى

* * *

---

(1) الخريدة ج ١ ص ١٧١

(2) أسأرت بقلب أى لبست سوارا من فضة كقلب النخلة وهو بجمارها فى البياض .

أسرت جنانى   ربة الحنان
خدها دهانى   فهو كالدهان
عاذلى[1] دعانى   جيدها دعانى
فأباد حالى   عاطلا وحالى

* * *

لم يحط بعاد   ما جنى بعادى
ها أنا أنادى   نحو كل نادى
من مجير صاد   مؤمن بصاد
سل بالنصال   للهوان صال[2]

والشاعر يلتزم اتفاق قافيتى البيت فى كل مقطوعة أو ما يسمى بالقافلة ، والقصيدة على الرغم من قصر الوزن الملائم كان من الممكن أن يحملها الشاعر عواطفه الصادقة لتكون أوقع فى النفس وأحلى نغما دون أن يكلف نفسه هذا العناء اللفظى الذى أرغمه عليه تكلفه المحسنات وحشدها حشداً أشاع فيها الفتور ، وتبدو ثقافته الدينية فيها واضحة فى مثل قوله :

من مجير صاد   مؤمن بصاد

وهو يريد سورة (ص) من سور القرآن الكريم .

والجناس : هو المحسن البديعى الغالب فى القصيدة فى مثل لبى : ألبى ، الحجال : حجى لى ، جنانى : حنانى ، دهانى : الدهان ، دعانى : دعانى ، حالى : حالى ، بعاد : بعادى ، أنادى : نادى ، صاد : صاد ، النصال : صال . وهو مما لا يقع فى شعر مطبوع ، يتغنى به قلب صديع .

---

(1) يريد يا عاذلى بياء مشددة .

(2) الخريدة ج ٢ ص ١١٣

ويتغزل ابن قلاقس بامرأة فلا تحس عاطفة، وإنما هي صور مما وعته الذاكرة أو استجلبته القريحة فيقول :

لها ناظر فى ذرا ناضر ... كما ركب السن فوق القناة
لوت حين ولت لنا جيدها ... فأى حياة بدت من وفاة
كما ذعر الظبي من قانص ... فر وكر فى الالتفات

وصنع فيها أيضاً :

ولطيفة الألفاظ لكن قلبها ... لم أشك منه لوعة إلاعنتا
كملت محاسنها فود البدر أن ... يحظى ببعض صفاتها أو ينعتا
قد قلت لما أعرضت وتعرضت ... يا مؤيساً يا مطمعا قل لى متى
قالت أنا الظبي الغرير وإنما ... ولى وأوجس نبوة فتلفتا [1]

وقال على بن ظافر : أخبرنى الفقيه أبو الحسن على بن الطوسى المعروف بابن السيورى الأسكندرى النحوى بما هذا معناه ، قال : كنت مع الأعز بن قلاقس فى جماعة ، فمر بنا أبو الفضائل بن فتوح المعروف بالمصرى، وهو راجع من المكتب ومعه دواته ، وهو فى تلك الأيام قرة العين ظرفاً وجمالا ، وراحة القلب قرباً ووصالا ، كل عين إلى وجهه محدقة ، ومشهد خديه بخلوق الخجل مخلقة ، فاقترحنا عليه أن يتغزل فيه فصنع بديها :

علقته متعلقا ... بالخط معتكفاً عليه
حمل الدواة ولا دوا ... ء لعاشق يرجى لديه
فدماء حبات القلوب ... تلوح صبغاً فى يديه

(١) بدائع البدائه لعلى بن ظافر .

لم أدر ما أشكو إليـ ... ـه أهجره أم مقلتيه
والحب يخرسنى على ... أنى أُلَكِّع سيبويه
مالى إذ أبصرته ... شغل سوى نظرى إليه [1]

وهو غزل بالمذكر قلد فيه السابقين فى عهد بنى العباس وإن لم يبلغ ما بلغوا من الخفة والرقة واللهجة المحبوبة المعبرة عن شفافية وصدق إحساس .

وقد ينزل غزل ظافر إلى هذا المستوى الهابط وقد فقد الصدق والعاطفة فيقول :

قلت إذ عقرب الدلا ... ل على خده الشعر
هذه آية بها ... ظهر الحسن وانتشر
ما رئى قبل صدغه ... عقرب حلت القمر [2]

إذ لانتمثل صورة ، ولا نحس عاطفة فيه وإنما هو التكلف وتصيد الشبيه ...

وأحس الشعراء ألم الفراق ، ولواذع النوى ، ولواعج الهجران ، وارتحال الظاعنين عن الديار ، فاشتكوا وبكوا ، وسألوا ما خلفوا من آثار ، وتمنوا الأمانى أن يتذكر الأحباب العهود وأن يرحموا القلوب الوالهة ، والعيون السافحة الدموع ...

فهذا أبو الربيع سليمان بن فياض الإسكندرانى يقول :

باتت على من الأراك تنوح ... تخفى الصبابة مرة وتبوح
قمرية تغدو تحاضر بثها ... وتريح عازبة أوان تروح

(١) بدائع البدائه لعلى بن ظافر .
(٢) الرسالة المصرية ص ٤٩

عجماء ما كادت تبين لسامع … ولها حديث فى الفؤاد صحيح
عجباً لها تبكى الخلى وجفنه … — وهى السخية بالدموع — شحيح
أمريضة الأحشاء، من فرق الندى … مهلا بشملك إنه لصحيح
أوَ ما رأيت تجلدى، وأنا الذى … شملى على سنن الفراق طريح
تتقاذف الأيام بى فكأننى … لجسوم أصحاب التناسخ روح[1]

والشاعر فيها يبدى تجلده ، ويكتم لواعجه ليكون أسوة ، فيضمد جراحها وهى التى تهيج القلوب وتثير — على المألوف — الأشجان ، والبيت الأخير أعجب به النقاد ، وقد قال فيه العماد : « وما أظنه سبق إلى معناه » .

ولكن الشاعر أسير هوى من يحب — فى حالة أخرى — شاك باك مما ألم به ، وقد طوحت به الآفاق ، فأضحى غريب الدار ، منقطع الصلة بمن يهواه قلبه ، مردداً قصة حبه فى مراتع صباه ولهوه إذ يقول :

توجعت أن رأتنى ذاوى الغصن … وكم أمالت صبا عهد الصبا فننى
ماذا يريبك من نضو جنيب نوى … لسنة البين مطروح على سنن
رمى به الغرب عن موشى النوى عرضا … بالشرق : أعنى على المهرية الهجن
أرض سحبت وأترابى تمائمنا … طفلا ، وجررت فيها ناشئاً رسنى
إنى التفت فكم روض على نهر … أو استمعت فكم داع على غصن
كم لى بظاهر ذاك الربع من مرح … ولى بباطن ذاك القاع من حزن
ولى بآلاف هاتيك المنازل من … إلف وسكان تلك الدار من سكن
ما اخترت قط - على عهدى بقربهم - … حظا ولا بعت يوماً منه بالزمن[2]

(١) ، (٢) الخريدة جـ ٢ ص ٢٠١

ولم يعب هذا الشعر إلا ما صادفنا من قوله شارحاً : أعنى على المهرية الهجن : مما لا مكان له فى هذا المجال ، ولا تجرى به لغة الشعر التى لا تشرح .

وجاد قول ظافر :

سائل الدار — إن سألت خبيراً — … واستجر بالدموع تدع مجيرا
وتعوذ بالذكر من سنة الغد … ر ولا غرو أن تكون ذكورا
أفهمتنى على قحول رباها .. … فكأنى قرأت منها سطورا
دم عينى بالسفح حل لدار … لا يرى أهلها دماً محظورا
هى دار العيش العزيز بما ضمـ … ـت قضيباً لدنا وظبيا غريرا
ما تخيلت أنها جنة الخلـ … ـد إلى أن رأيت فيها الحورا
يا لواة الديون هل فى قضاء الـ … ـحسن أن يمطل الغنى الفقيرا
إحفظوا فى الأسار قلباً تمنى … شغفا — أن يموت فيكم أسيرا
وقتيلا لكم ولا يشتكيكم … هل رأيتم قبلى قتيلا شكورا
نصل الحول بعدكم وأرانى … بعد من سكرة النوى مخمورا
إرجعوا لى أيام رامة إن كا … ن لما كان وانقضى أن يحورا
وشباباً ما كنت من قبل نشر الشـ … ـيب أخشى غرابه أن يطيرا
إن تكن أعين المها أنكرتنى … فلعمرى لقد أصبن نكيرا[1]

وهو قريب النسب فى رقة شعره الغزلى من ابن مكنسة ، ويحمل طيفاً منه لولا وعورة فى بعض ألفاظه كقوله فى البيت الثالث (قحول رباها) وما يصطنعه من تكلف فى بعض الأحيان كقوله (وتعوذ بالذكر من سنة

(١) الخريدة جـ ٢ ص ١٦

الغدر) ونلمح تعبيراً يكاد يكون مصرياً هو فى قوله (وقتيلا لكم ولا يشتكيكم) .

وشعر ظافر الغزلى كثير روى العماد منه قدراً صالحاً ومنه يستبكى ويشكو الفراق فيقول :

هذا الفراق وهـذه الأظعان   هل غير وقتك للدموع أوان
ان لم تفضها كالعقيق فكل ما   تدعوه من سنن الهوى بهتان
هذا الغرام على ضميرك شاهد   عدل فماذا ينفع الكتمان
ان كنت تدخر الدموع لبينهم   فالآن قد وقع الفراق وبانوا
عذر المتيم أن يكون بقلبه   سفر وبين جفونه طوفان(1)

وهو شعر يعبر عن عاطفة قوية تطرد أنفاسه ، وتعذب أنغامه — لولا ما فيه من مبالغة تخرجه عن القصد وتحيله إلى سبيل من التكلف .

ويشكو فراق حبيبه مرة أخرى — فى حالة تختلف عن هذه الحالة — عندما غادر البلاد صديقه العزيز الذى آثره بحبه ووده أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فقال فى استدارة جميلة :

وما طائر قص الزمان جناحه   وأعدمه وكرا وأفقده إلفا
تذكر رعيا بين أفنان بانة   حوانى الخوافى ما يطرن به ضعفا
إذا التحف الظلماء ناجى همومه   بترجيع نوح كاد من دقة يخفى
بأشوق منى مذ أطاعت بك النوى   هوائية مائية تسبق الطرفا
تولت وفيها منك ما لو أميه   بباقى الورى ما كان فى وصفه أوفى(3)

(1) المصدر السابق ص ١١   (2) الخريدة جـ ٢ ص ٤

وقال :

رحلوا ولولا أننى   أرجو الإياب قضيت نحبى
والله ما فارقتهم   لكننى فارقت قلبى(1)

وقد كان من شعره ما تغنوا به مثل قوله :

عتبت ولكننى لم أع   وأين ملامك من مسمعى
وما قدر عتبك حتى يزيل   غراما تمكن من أضلعى
ومادام لومك إلا وأنـ   ـت تقدر أن جنانى معى
مضى كى يودع سكانه   غداة الفراق فلم يرجع
فؤادى فى غير ما أنت فيه   فخذ فى ملامته أودع

ومما يستحق أن يغنى قول ابن مكنسة يتشوق ويشكو البين :

قل لأيامنا التى قد تقضت   بالغضا هل لنا إليك سبيل
اترى البان فى رياضك ميا   داً إذا مسه النسيم العليل
ام ترى الشادن العزيز له بيـ   ـن كثيبك مسرح ومقيل
سل بوعسائها الخمائل تجلى   أشمال تمسها أم شمول
إن يكن عنك عز صبر فصبرا   ان عمر البكاء فيك طويل
وإذا بان عنك من كنت تهوا   ه فغير الجميل صبر جميل

وقوله فى الطيف :

بنفسى خيال زار وهو قريب   أحقا عليه فى المنام رقيب
سرى وغدير الليل طام جمامه   وللشهب فيه طفوة ورسوب

(1) الخريدة جـ ٢ ص ٤

وقد أعجلته للصبـــاح التفاتة   فلم تك إلا خفقـــة وهبـــوب
ولولاكم لم أرض أن تستقربى   زخارف حلم صدقهن كذوب
وكم أنة أيقظتم نفسى بهـــا   لها بين أحناء الضلوع ندوب
تجاور فيها بين هـــام وجاحم   لعينى وقلبى جـــدول ولهيب

ومنها :

أمستكم ريح الصبا ان نشرها   إذا هب من تلقـــائكم ليطيب
ويشفى غليلى أن تمر مريضـــة   وبرد غليل بالعليل عجيب[1]

وهى أبيات نحس فيها أنفاس عشق حارة زخرت بمثلها كتب الأغانى والأمالى مما يقدم شاهداً على تأثره بثقافة عربية عباسية كانت غذاء لوجدانه[2] فاستوحاها معبراً عن أشواقه ورؤاه .

وحفظت لنا كتب التاريخ وضم معجم السلفى اسم شاعرة كانت تسكن الإسكندرية هى تقيق الصورية بنت أبى الفرج غيث الكاتبة الفاضلة — الشاعرة ، وقد روى عنها العماد قولها فى الحنين إلى الأوطان — فقد كانت من صور بلبنان :

هاجت وساوس شوقى نحو أوطانى   وبان عنى اصطبارى بعد سلوانى
وبت أرعى السهـــا والليل معتكر   والدمع منسجم من سحب أجفانى
وعاتبت مقلتى طيفـــا ألم بهـــا   أهكذا فعـــل خلان بخـــلان
تأيت عنكم وفى الأحشاء جمر لظى   وسقم جسمى لمـــا أهواه عنوانى
إذا تذكرت أيامـــا لنـــا سلفت   أعان دمعى على تفريق نسيانى[3]

---

(1) الخريدة جـ ٢ صـ ٢٠٨
(2) انظر الأمالى جـ ١ صـ ٢٠٧ أبياتا للشاعر ابن الدمينة .
(3) الخريدة جـ ٢ صـ ٢٢٣

والحق أنها أبيات رقيقة الأسلوب ، قوية العاطفة ، وفى البيت الأخير صورة جميلة ، ولم تبالغ مبالغة غيرها فى مثل هذا المقام . .

وفى طيف الخيال قال ابن قتادة المصرى بالإسكندرية .

أفـــدى خيالا من حبيب زارنى   فى جنح ليل كالقطيعة مظـــلم
فطفقت مسرورا به وسألتـــه   أنَّى اهتدى والليل لم يتصرم
فأجابنى : انى هتكت سدولـــه   حتى اهتديت اليـــكم بتبسمى[1]

وفى النحول والغزل قال عبد الحميد بن حميد الإسكندرانى :

هواك كسا جسمى ثيابا من الضنى   فأصبحت فيه كالخيال لمبصرى
فلولا كلامى ما تبين موضعى   لضعف برانى يرى نبع مكسر
فصل أوفقاطع لست أجفوك عندها   ولو مت من شوق وفرط تذكر
فأعذب ما ألقى الهـــوى وألـــذه   إذ جار محبوبى وقل تصبرى[2]

مع تأثره ببيت المتنبى المضروب به المثل فى الادعاء والمبالغة المسرفة :

كفى بجسمى نحولا أننى رجـــل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

تلك المبالغة التى تخرج الشعر عن الإصالة والصدق ...

وابن معبد الشاعر الإسكندرى يناجى حادى الركب أن يرفق بحبيبه الذى طعن وتركه مخلفاً فى عذاب البعاد ، وذل الهجران ، فيقول :

يا حادى الركب رفقا بالحبيب فقد   طار الفؤاد وقل الصبر والجلد

---

(1) المصدر السابق ص ٢٢٨
(2) المصدر السابق ص ١١٦

لعـل حبي يرى ذلى فيرحمنى   بنظرة علها تشفى الذى أجـد
يا ويح من ظعنت أحبـابه وغـدا   مخلفا بعـدهم أكباده تقـد[٢]

ويقول :

تنـام وعنـدى غلـة وأليـل   وتلهو ولبسى لوعـة ونحـول
وأرضى بحمل الذل فيك وليس لى   لديك إلى نيل الوصـال وصـول
فـوا سفا ان لم تجـد لى بـزورة   يقابلنى منهـا رضـا وقبـول

وشعره يمتاز بقوة الشعور ، وصدق التعبير ، وتماسك الأسلوب دون تكلف مقصود

ونختم القول فى الغزل بذكر ماكتبه على بن ظافر فى بدائع البدائه :
قال (كتب إلى القاضى الأغربن المؤيد من الإسكندرية ،ولفظ الخبر له ، قال ، تسايرت أنا والقاضى المخلص أبو العباس أحمد بن يحيي بن عوف بشاطىء خليج الإسكندرية ، من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة السوارى، وقد رقصت أشجاره على غناء أطياره ، وملأ لها ساقى الغمام كؤوس جلناره، فبينما نحن نتناشد من نفيس رقيق الأشعار ، ونتعاطى من كؤوس رحيق الأخبار ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلت من البدور ، ومن نجوم تلك الأزهار مع طلوع شمس النهار كيف لا تغور ؟ إذا بجوار هناك جوار، وبدور من قبل السوارى سوار . فقلت :

لـلـه أى بـدور   من السـوار سواى

فقال المخلص :

من كل هيفاءجرسى ال[٢]   وشـاح خرسى السـوار

(١) المصدر السابق ص ٢٣٤

(٢) جرسى الوشاح : لوشاحها صوت .

فقلت :

لاحت فحـلت وحلت   قلبى وعقـد اصطبارى

فقـال :

تنـوب فرعـا ووجها   عن الدجى والنهـار

فقلت :

فناظـراهـا وقـلبى   ما بين راض وضـار

فقـال :

وخـدها وفـؤادى   من جلنـار ونـار

فقلت :

تحكى الغـزال فى بهـ   جة وحسن نفـار

فقـال :

والظبى فى حسن جيـد   ومقـلة ونفـار[١]

وهى مقارضة تدل على خفة روح ، ومرح ، وانطلاقة شباب ، وفيها ملامح مذهبهم الفنى من العناية بالزخرف اللفظى ، الذى كاد أن يغرق مواهبهم فى بحره اللجى :

هذا فى الغزل ، ومجاله منفسح خصب ، أما فى الخمر فإنها لم تحظ من الشعراء بمثل هذا القدر ولا هذا الاهتمام ، لأن أولئك الشعراء الغزلين الذين عرضنا لبعض شعرهم كانوا يعبرون تعبيراً طبيعياً عن عاطفة إنسانية

(١) انظر بدائع البدائه ص ١٩١

عامة ، أما الشعراء الغزلون الذين جمعوا بين الغزل والخمر ، فقليل ما هم بل أننا لم نصادف منهم فى ميداننا الأدبى فى الإسكندرية غير ابن قلاقس الذى لم يحسن الغزل وإنما أجاد فى خمرياته إجادة تدنيه من مرتبة الفحول ، ويبدو أنه كان لها معاقراً وبها مدمناً ، حتى بدت عليه النزعة النواسية فى شعره ، وفى مجالس سكره ، وانطلاقه فى التعبير عن ذاته وحريته فى الإشادة بها وان اعترف بأنها أم الخبائث دون أن يقدسها كما قدسها أبو نواس. وعلى الرغم من اعترافه فإنه كان يقترفها ، ولا يخشى فيها لوم اللائمين ، لأنه ثم كريم يهب الاقتراف للاعتراف.

أيها العاذل المفند فيها ⁂ لات حين الملام ويحك لاتا

فنستمع إليه يقول :

قم هات جامك شمسا عند مصطبح ⁂ وخل كاسك نجما عند مغتبق
واقسم لكل زمان ما يليق به ⁂ فان للزند حليا ليس للعنق
هب النسيم هب الريم فاشتركا ⁂ فى نكهة من نسيم الروضة العبق
واسترقصتنى كاسترقاص حاملها ⁂ مخضرة الورق فى مخضرة الورق
وبت بالكأس أغنى الناس كلهم ⁂ فالخمر من عسجد والماء من ورق
كم وردت وجنات الصرف فى قدح ⁂ فتحت بالمزج ما تعلوه من حدق
يسعى بها رشأ عيناه مذ رمقت ⁂ لم يبق فى ولافيها سوى الرمق
حبابها وأحاديثى ومبسمه ⁂ ثلاثة كلها من لؤلؤ نسق
حتى إذا أخذت منى بسورتها ⁂ ما يأخذ النوم من أجفان ذى أرق
ركبت فيه بحارا من عجائبها ⁂ انى سلمت ولم أشعر من الغرق
ولم أزل فى ارتشافى منه ريق فم ⁂ أطفأت فى برده مشبوبة الحرق

يا ساكن القلب عما قد رميت به ⁂ من ساكنى الجزع مع ما فيه من قلق
لا تعجبن لكل الجسم كيف مضى ⁂ وانما اعجب لبعض الجسم كيف بقى
لم أسترق بمنامى وصل طيفهم ⁂ فما له صار مقطوعاً على السرق

وهو هنا يمزج بين الطبيعة والخمر والتشوق ، ونحس شعوره القوى بها ، فهو يريدها مصطبحا ومغتبقاً ، وأنها ذات تأثير لطيف عليه ، فهى تسترقصه كما ترقص حاملها وأنه يبيت عنها وقد وقع فى وهمه أنه أغنى الناس ، مادامت الخمر صورة من الذهب والماء الذى تقتل به فى بياض الفضة ، وأن متعاته الثلاث فى حبابها وأحاديثه ، ومبسم الساقى الذى يسعى بها . ذلك الرشأ الجميل حين يغدو ويروح عليه بها ، حتى إذا نام رأى فى أحلامه ما رأى من ركوب أهوال البحار ، ونجاته من الغرق دون أن يشعر ، فهى مستولية عليه ، وموهمته بما لا يكون وما لم يكن . وأنه يبيت يرتشف ريق فم ذلك الساقى ليطفىء حر ناره فى برد رضابه .

وهو منزع قصصى فى صورة ما ، نمى به فنه ، وأجاد إلى حد كبير دون أن يلتفت التفاتا واضحاً إلى الزخرف الذى أغرم به .

ويتملى الشاعر الخمير الطبيعة ويسترفدها صوره الخلابة فى الصباح وفى المساء ، عند شروق الشمس وعند الغروب ، وهبوب النسيم على الغدران رقيقاً عذباً صافياً ، وهو ضيق الصدر بالأطلال والرسوم والنوى والأثافى ، مستهام بالروضة الأنف يعقد فيها مجلس لهوه وشربه ، وتجتمع اللذة وتحلو فى عينه الحياة ، ولنستمع إليه يقول مستجيباً لدعوة أبى نواس فى ثورته على البكاء على الأطلال وفراق ليلى وهند وسلمى :

عاف سمعى ذكر المحل العافى ⁂ واصطفاه البكاء بالمصطاف
ووقوفا بنون نوى تلاه ⁂ فى رباء إعجام ثاء أثافى

آنف ان أروض بالدار قلبا … مستهاما بروضة مئتاف
فسلام على المنازل والأطـ … ـلال والعيس والسرى والفيافى
سكرة قد صحوت منها وبدلـ … ـت بسكرى سوالف وسلاف
فاسقنيها قبل اتفاق ذوى العـ … ـلم فانى رأيتهم فى اختلاف
قهوة ما وصفت بعض حلاها … لك إلا سكرت بالأوصاف
ما ترى الصبح كيف جهز جيشا … أذن الليل عنه بالانصراف
وعقود النجوم قد نثرتها … راحة النوء من طلى الأسداف
فاقترف واعترف فثم كريم … يهب الاقتراف للاعتراف

وهو لا يأبه من لام ، ولا سخط المجتمع الدينى الذى نشأ فيه — فقد كان مجتمعاً متحرجاً حد من سطوة الشهوات — ولعل هذا ما يفسر قلة شعرهم فى الخمر ، وإذا أتيح لابن قلاقس أن يلهو ويلعب ويشرب ويطرب بسبب ما أغرم به من حب الأسفار وانقطاعه عن بيئته فترات طويلة فانه لم يتح هذا لغيره من الشعراء ، وكان ابن قلاقس من أجل ذلك مقترفاً ومعترفاً ، وعاصياً لنهى العلماء ونصح ذوى النهى والأتقياء .

قد عصينا النهى فكيف النهاتا … وأطعنا الصبا فكيف الصباتا
وخشينا فوات لذة عيش … قل ما ساعد الخليع فواتا
هات بنت الكروم واستعمل اللحـ … ـن لمعنى عندى وقل لى هاتا
قهوة تملأ الزجاج فما تحـ … ـسب إلا المصباح والمشكاتا
ما ركبنا منها الكميت فثرنا … من نواحى الهموم إلا كماتا
أيها العاذل المفند فيها … لات حين الملام — ويحك — لاتا
جعلتنا المدام نصبح أحيا … ء ونمسى فى حكمها أمواتا
فاذا ما سألت عنى فاسأل … كيف أضحى ولا تسل كيف ماتا

ولعله لم يبلغ ما بلغه أحد من السابقين ممن وصفوها هى فأجادوا الوصف ووصفوا آثارها وسقاتها ومجالسها ، وآنيتها والبلاد التى أنتجتها ، والأديرة والعبث بمن فيها ، وحسبه أنه تأثر بهم ، أو أخذ عنهم ، ثم وصف حاله هو وصفاً يدل عليه فى مجتمعه المتدين .

فقام إلى أم الخبائث أنها … بها أبداً تصفو النفوس الخبائث
وأحيا بروح الراح جسم زجاجة … على يده منها قديم وحادث
وكم قال للصهباء انى حالف … فقالت له الصهباء إنك حانث
وما العيش إلا للذى هو ماكث … على غيه أو للذى هو ناكث

ونتتبع شعراءها فلا نجد إلا شذرات من شعراء لم يبلغوا مبلغ ابن قلاقس فى الاهتمام بها والانصراف إليها وتصوير حاله معها فهذا على بن سعيد المعروف بابن كاتب أسلم يقول :

وكم ليل جلوت الكأس فيه … وقد نظم الحباب له عقودا
ونادمنا به صوراً إذا ما أحـ … ـتساها شارب وقعت سجودا
يلبسها المدير لها برودا … فيسلب شربها تلك العقودا

فلا يصور حاله ، ولا يعبر عن غرام بها . ولعله لم يقل غيرها فهو ليس من شعرائها فى شىء . وهذا هلى بن الحسين الدباغ السكندرى يقول فى مقدمة قصيدة مدح :

مستفاض من معجزات الشمول … أنها تظهر الضحى فى الأصيل
فأرونى كيف المساء أسير … والأسى فى سلاسل السلسبيل
أى معنى هدى ولفظ ضلال … أن تريك الأفول غير أفول

ما نواسى أبا نـواس عليها　　بانتقال أحـلى من التقبيـل

ومحـلى ريـق وغصن وريـق　　عاطـل من مشابـه وعـدول

فى فـؤادى حبـه نـار فرعو　　ن ، وفى وجنتيه نار الخليـل

ولعله ساخط على فعلها ، وأثير لديه تقبيل الثغور من جميل أهيف مياس كالغصن الوريق ، ووصف الطبيعة أجمل وأرق من وصفها ، وهى دون الرياض فى عينه وعقله وهواه .

وليس من شعر الخمر فى شىء قول ابن مطير :

محكمـة كاساتنا هـذه　　ولهـونا أسبـابه محكمـة

فَمَـهْ ـ لحـاك الله من لائم　　وكن كمن سـد بصمت فمه

ثم لا نجد غير هؤلاء فى طائفة شعراء الإسكندرية — على كثرة عددهم وتنوع مشاربهم — يهتمون بها ويجارون القدماء فيها — بسبب ضيق المجتمع الدينى بهم — لو فعلوا — فإنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة المجاهرون . . . — فمن عربد منهم اعتذر كما فعل ابن مكنسة وقال :

ركبت كميت الراح وهى جماحها　　شديد ومالى بالتفرس من خـبـ

وألقيت ما بـين الندامى عنانهـا　　فجالت وألقتنى على وعر السكر

وأن بساط السكر يطوى كما جرى　　به الرسم فيما قيل بالسكر فى العذ

ولعل شعرهم فى الخمر قد فقد أو أبيد فيما أبيد .

وبعد . فدارس شعرهم فى الغزل والخمر يمكنه أن يحكم عليه حكما صحيحاً أو قريباً من الصحة بعد الوقوف على معظم مأثورهم فيهما ، وقد بدت شخوصهم فى ظلال شخوص القدماء فى المنهج والأسلوب والصور والمعانى

فجروا على منهجهم فى الوزن واختاروا منه القصير فى بعض الأحيان لملاءمته لهذا الفن واتساقه مع انسياب العاطفة والألحان فيحسن وقعه فى الآذان ، ويبلغ أثره فى القلوب .

على أن بعض هذه الأشعار قد ارتفع إلى مستوى عال فى هذين المجالين مما يشهد لهم بالبراعة والامتياز ، وجودة الصناعة فى خفة روح ، وميل إلى الفكاهة ، مما يدل على أن العصر لم يكن كله عصر تزمت ، ولم تكن البيئة كلها متحرجة من لغو القول ، وهجر الكلام . . فقد وسع حياة خصبة حافلة بألوان المتع ومظاهر الجمال ، وصور الحياة فيه تصويراً يدل عليه ، ويبرز ملامحه فى قوة ووضوح .

هذا ما حدث قبل أن يدهم البلاد عدوهم المغتصب ، ويسلبهم أرضهم وأموالهم ومقدساتهم فهبوا يتداعون لسحقه وطرده واسترداد الأرض السليب وقام الشعر بوظيفته فى ميدان المعركة خير قيام ، فى التحميس لرد كيد المعتدى ، وتمجيد الأبطال ، وامتداح الاستشهاد فى سبيل الله ، وبلغ من ذلك كله ما أراد ، ووقفت قيثارته على هذا النشيد ، عازفاً عليها فى قوة وصخب وحماسة ، وقد نبذ وراءه ظهرياً ما عداه من فنون القول ولو إلى حين تنجلى الغمة ، ويعود السلام إلى هذه الأمة ، ولذلك لحظنا الشعراء وقد لبسوا لباس الجد ، وتدرعوا دروع الجند ، فى شجاعة واندفاع وأيد ،وانصرفوا عن اللهو واللعب ، والغزل والخمر ، إلا الأقلون الذين عزلوا أنفسهم عن تيار الأحداث ، أو اتخذوا ذلك من أساليب الصناعة فى مقدمات القصيد وهى — بعامة — تكاد تخلو من قوة الشعور ، وصدق اللهجة ، وأصالة التعبير .

٥ — الهجاء

كان حظ الشعر منه قليلا لدى شعرائنا السكندريين ، ولكن ما أثر عنهم يدل على روح مرحة فكهة ، تسخر من الناس والأشياء ، وتثير الضحك بما يقوم عليه هذا الفن من إثارة المفارقات ، وإبراز المعايب ، والتركيز على ما يكون نشوزا فى الخلقة ، وشذوذا فى الطباع ، بقصد السخرية أو التهكم أو الإضحاك على سبيل ما فعل زعيما هذا الفن فى الشعر العربى : ابن الرومى المتنبى ، وقد يلجأ بعضهم إلى اتخاذ نفسه أضحوكة يتندر عليها ، ويسخر من معايبها ، ونواحى الضعف فيها فيصورها فى صورة مضحكة ، فهذا اسماعيل بن مكنسة يقول من قصيدة على طريقة أبى الشمقمق الشاعر الهازل المعاصر لبشار وأبى نواس :

أنا الذى حدثكم ... عنه أبو الشمقمق[1]
وقال عنى إننى ... كنت نديم المتقى
وكنت كنت كنت كنـ ... ـت من رماة البندق
حتى متى ألقى كذا ... تيساً طويل العنق
بلحية سابلة ... وشارب محلق[2]

ويقول فى أخرى :

عشت خمسين بل تزيـ ... ـد رقيقا كما ترى

(١) أبو الشمقمق مروان بن محمد من شعراء الشام كان معاصرا لبشار وطبقته وهو شاعر هزلى يميل إلى الفكاهة والتندير .
(٢) ٢ الرسالة المصرية ص ٥١

أحسب المقل بندقا ... وكذا الملح سكرا
وأظن الطويل من كا ... ـل شىء مدورا
قد كبر بربر بر ... ت وعقلى إلى ورا
عجبا كيف كل شى ... ء أراه تغيرا
لا أرى البيض صاريو ... كل إلا مقشرا
وإذا دق بالحجا ... ر زجاج تكسرا
وإذا مات ميت ... لا يشمن عنبرا

والتهكم ظاهر ، والسخرية بعيب نطقه فى تكرار مقطع من الكلمة أو الكلمة كلها مضحكة حقاً . . ويصور محمود بن ناصر الإسكندرية كاتب القاضى ابن حديد طبيبا أعلم مشوه الخلق فى صورة هزلية فيقول :

صديقنا المستطب نادرة ... قد أخذت منه أعين الناس
أنياب غول ومشفرا جمل ... ورأس بغل وذقن نسناس

ويهزأ أبو عبد الله بن الدر الإسكندرانى من أهل الريف فيقول :

تربة الريف لا يصح بأن ... ينتج فيها سلالة وطعام
هى للبذر وحده لا المعالى ... وبها البر وحده لا الأنام

ويعبث ابن الخزار ببعض أهل الإسكندرية قائلا :

لا يستطيع أن يرى رغيـ ... ـفاً عنده فى البيت يكسر
فلو أنه صلى — وحا ... شاه — لقال الخبز أكبر

(١) ثمر كالدوم .

وله محـل فى البغـا ء به تقـدم من تأخر

سل عنه مسعودا ويـا قوتا وريحـانا وعنبر

كم ليلة قد بات وهـ ـو يمد بينهم ويقصر[1]

والفحش فى هذا القول ظاهر . . .

ولابن قلاقس فى ذم زامر :

ينـافر إيقـاعه صوته فهذا يزيد وذا ينقص

ويتبعـه زامر مثـله تَبيعٌ له نَفَسٌ أوْقَصُ[2]

فان قام ما بيننا راقصا فكل إلى بيته يرقص[3]

ولمحمد بن الحمشى الإسكندرى قوله فى إنسان ينعت بعين الملك :

إلا أن ملكاً أنت تدعى بعينه جدير بأن يمسى ويصبح أعورا

فان كنت عين الملك حقاً أدعـوا فأنت له العين التى دمعها جرى[4]

ولعبد المحسن الإسكندرى الهجاء قوله فيمن يدعى ابن عبد القوى :

قل لابن عبد القـوى يا خرف علام ذا التيـه منك والصلف

لا يغرنك الثيـاب أبيضها فإنمـا منك تحتها جيف

فالدر مستودع حشـا صـدف وأنت در فى جوفه صـدف[5]

وهو هجاء أشبه بالسباب ،

(1) المغرب ج ١ ص ٢٩٦

(2) أوقص : قصير .

(3) الخريدة ج ١ ص ١٦٢

(4) فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٠٤ ، الخريدة ج ٢ ص ٥٨

(5) المصدر السابق ص ٢٢٤

وله فى ذم أعور :

وأعـور العين ، قبح منظره أثر فى عين دهرنـا عـورا

ماكنت أدرى قبيل أنظـره أن المسيخ الدجال قد ظهرا

من قال : إن الإله خالقـه فانه بالإله قد كفـرا[1]

وألطف ما أثر عنه قوله :

« يذم اليهود وقد ألحقهم بصنوف من الحيوانات » :

يا يهود الزمـان أنتم حمـير وتيـوس بكم تقاس التيوس

حين أضحى شمويل فيكم رئيسا وبقدر المرءوس يأتى الرئيس

هو ثور وربه كان عجـلا من قـديم وصهره جاموس[2]

والبيت الأخير إشارة إلى العجل الذى عبدوه مما ورد ذكره فى القرآن (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار)[3].

وابن عبد الودود يهدد بنى حديد قضاة الإسكندرية ويشكو منهم مطلا فيقول :

بنى حديد أتم الله نعمتـكم إن العتاب لعرض المرء تهديد

سقيتمونى بكأس المطل مترعة حتى تمايلت والسكران عربيد

وأبلغ الهجاء ما رسم صورة مضحكة ، وعبر باللفظ عن حركة مثيرة ملفتة ، وسخر من مفارقات وهزئ بشذوذ فى الخلقة أو الخلق دون إسفاف بالشتم وفاحش القول :

(1) ، (2) المصدر السابق ص ٢٢٤

(3) سورة الأعراف .

ولعلنا افتقدنا فى هذه النماذج ما يمكن أن يكون على المستوى الذى بلغه الكبار فى هذا المجال . إلا قليلا فيما أثر عن ابن مكنسة فى تصويره الضاحك لنفسه وقد علته كبرة واعتراه هزال .

وفى هجاء عبد المحسن لليهود ، ومحمود بن ناصر للطبيب .

وعلى الجملة هو فن يحتاج إلى خفة روح ، ولقطة عين ، وقدرة ظاهرة على اللعب بالأساليب ، وبراعة فى التصوير ، وذكاء ينبىء عن نفس طروب مرهفة الإحساس ، ميالة إلى الفكاهة والمرح .

٦ — آغراض أخرى

هى الرثاء ، والفخر ، والحكمة والتهذيب الخلقى

واستجاب شعراؤنا للدواعى النفسية التى تبعث على القول وهى عديدة ، ما دامت النفس البشرية تستجيب لوقائع الحياة ، وألوان الصراع ، ومنازع الفكر ، وتهويمات الأرواح . وعبروا عن ذلك تعبيراً يختلف باختلاف قوة هذه الدواعى والاستجابات وضعفها ، وكانوا صادقين عندما يرثون ، وعندما تجرى فى دمائهم نزعة اعتبار الذات ، والدفاع عن النفس ، فيفتخرون وعندما تجرى الحكمة على ألسنتهم — وقد محصتهم التجربة ، ودقت ملاحظتهم وعصروا الأحداث ، وقطروا ذلك كله فى موجز القول يبغون به رشداً ، ويهدون إلى السبيل القاصد ، والغاية المثلى ، وكانوا معبرين عن أشواق أرواحهم ، وأصداء وجداناتهم ، ومثلهم العليا فى حياة العقل والروح ابتغاء الوصول إلى الله ، ومحبته ، والقرب منه والفناء فيه .

أما (مقام الرثاء) فهذا ابن مكنسة وقد أوى إلى ركن آبى مليح العامل النصرانى ، وقد سد خلته ، ودفع عوزه ، وقضى حاجته ، يرثيه عند وفاته فيقول :

طويت سماء المكربا — ت وكورت شمس المديح
ما كان بالنكس الدنـ — ى من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعدما — عقدوا به دين المسيح[1]

---

(١) الرسالة المصريه ص ٤٦

ولم يؤثر عن ابن مكنسة غير هذه الثلاثة الأبيات ولعله خشى أن يفعل بعد أن تنكر له الأفضل وهجره لكونه رثى نصرانياً ، والرواة على أنها أبيات من قصيدة ضاعت ، وربما كانت فى مجموعها أصدق دلالة على مدى ما وصل إليه ابن مكنسة فى إجادة هذا الفن . وهو الشاعر الرقيق الحافظ للجميل ولو كان صاحبه يعتنق ديناً آخر .

وكان ظافر الحداد صادق اللهجة فى مراثيه ، وقد بقى لنا من قصيدته التى عزى فيها الأفضل بأخيه المظفر قوله :

إذا كان عقبى ما يسوء التصبر　　فتقديمه عند الرزية أجدر

وليس الشجاع الندب من يضرب الطلا[1]　　دراكا ، ونار الحرب تذكى وتسعر

ولكنه من يؤلم الشكل قلبه　　وتعروه أحداث الزمان فيصبر

لئن عظم الخطب الشديد محله　　فحلمك أعلى منه قدراً وأكبر

وبعض الذى يحويه صدرك همة　　تضيق بها الدنيا جميعاً وتصغر

لقد زعزعت شم الجبال رزية　　ألمت ، ولكن طود حلمك أوقر

بعلمك تستهدى نفوس ذوى النهى　　وانت بها — قال المعزون — أخبر

وحكم التعازى سنة نبوية　　وإلا فمنك الحزم يبدو ويصدر

لقد سلبت كف الردى منك مهجة　　تكنفها للحزم والعزم عسكر

فويح المنايا كيف غالته وهى فى　　صنائصكم فيما يخاف ويحذر

وتصريفها بين الصوارم والقنا　　بأيديكم والخيل بالهام تعثر

وأنت لها — نعم الذريعة فى الوغى　　إذا ضاق نفس القرن — درع ومغفر

وما قيمة الدنيا فيأسر لفظها　　جلالك ، كلا فهى أدنى وأحقر[2]

---

(1) جمع طلية وهى أصل العنق .

(2) الخريدة ج ٢ ص ٨ ، ٩

وهو شعر يمتاز بالقوة وإن كان قد مزج من التعازى فيه بالمدح مما أضعف قوة الشعور بالخطب ، ولا يعيبه كثيراً ما فى بعض الأبيات من حشو ، ومبالغة كانت داء العصر .

وليس غريباً أن يرثى أبو الفتوح بن قلاقس لأنه مداح العظماء ، فإذا نزل بساحتهم خطب أو فجعتهم مصيبة فزع إليهم راثيا ، نادباً حظه وحظ العفاة فيقول يرثى محمد بن رجا :

سقى الزمان عليه جيب سواده　　وأفاض طرف المجد ماء مزاده

وتيقنت رتب المفاخر أنها ،　　خفضت وقد رفعوه فى أعواده

وانهل دمع الغيث بعد صباحه　　أسفاً عليه ، وكان من حساده

بدر تغشاه الكسوف ، وطالما　　ضاءت سيادته بأفق سواده

ومهند ماكنت أحسب قبلها　　أن التراب يكون من أغماده

صالت عليه يد الزمان ولم تزل　　بنواله تحنو على أولاده . .

وتحكمت فيه المنـ ن وطالما　　حكمت ببعض ظباه فى أضداده

هيهات أن يثنى المنية مانع　　بصعوده أو دافع بصعاده

... ما أحسن الذكر الجميل فإنه　　روح ، نفوس الخلق من أجساده

يا من يعلمنا العزاة بعلمه　　خذ بالعزا والعطف من ترداده

ونحس أنه مفتعل شجوه هذا ، ومصطنع قصيدة على نماذج سابقة ، وإن جادت بعض معانيه كقوله :

صالت عليه يد الزمان ولم تزل　　بنواله تحنو على أولاده

---

(1) مختارات الديوان ص ٣٥ ، ٣٦

وكقوله :

ما أحسن الذكر الجميل فانه روح ، نفوس الخلق من أجساده

ولعله — وهو الرجل المبتهج بالحياة — لم يطل النظر ، ويحقق الفكر فى الوجود والفناء ، فجاء قوله لذلك ولضعف عاطفته — فى الرثاء قليلا ضئيل الشأن . .

وقل حظ الشعر من هذا الفن فى الإسكندرية ولعله قد ضاع بعضه ، وأهمل بعضه الآخر فلم تع مراجعنا إلا هذا القدر اليسير منه .

وأما (مقام الفخر) فقد وجدنا بعض شعرائنا يفتخرون بالترفع والإباء والحلم فى ساعة الجهل ، واحتقار الحاسدين والحاقدين عندما نقرأ لمحمود بن ناصر قوله :

كم من حسود رام شأوى فما ... شق عباب البحر إذ ساحا

أعرضت عنه حين عاينته ... وكان إعراضى إصلاحا

ورحت ملآن احتقارا له ... وراح بالحسرة مجتاحا[1]

وأورد العماد للقاضى الرشيد صاحب النظر بالثغر قوله :

جلت لدى الرزايا بل جلت هممى ... وهل يضر جلاء الصارم الذكر

غيرى يغيره عن حسن شيمته ... صرف الزمان وما يأتى من الغير

لو كانت النار للياقوت محرقة ... لكان يشتبه الياقوت بالحجر

لا تغرنن بأطمارى وقيمتها ... فانما هى أصداف على درر

ولا تظن خفاء النجم من صغر ... فالذنب فى ذاك محمول على البصر[2]

(١) معجم السلفى ورقة ٣٦٥

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٥ نقلا عن العماد فى كتابة السيل والذيل ذيل به على الخريدة .

ولعل الرشيد معذور فى هذا لما أصابه من محن وخطوب ، وابتلى به من شدة أيام شاور وانتصاره لصلاح الدين حتى قتل ظلما وعدوانا ، (قال المنذرى عنه « كانت فى نفسه عظمة ، دخل مع الناصر الإسكندرية وكتب فى أمور فأخذه شاور وعذبه عذاباً شديداً ، فبلغه أنه قال : الهوان والعذاب من الملوك فى طلب الملك ليس بعار « فأمر به فضربت عنقه » وقال السلفى : كان يقول لى : قد هان على ما أنا فيه من المكوس بما آخذه عنك من الحديث « وصنف كتاب الجنان ورياض الأذهان » ذيل به على اليتيمة)[1] .

وروى السلفى فى معجمه ما أنشده إياه أبو الحسن على بن عياد بن صدقه المعروف بابن القيم لنفسه بالثغر :

إذا تقدم بى فى رتبة كبر ... فما يؤخرنى عن غاية صغر

ليس الذقون وإن طالت بنافعة ... الشعر يرفع من قدرى أم الشعر

أعاف عون المعانى وهى شاردة ... عنهم وأطرق أبكارا فأبتكر

لى خاطر ناثر بالعلم ما نظموا ... وناظم من عقود المدح ما نثروا

وكم أبى البحر أن يندى لوارده ... ماء ، وجاديه فى المهمة الحجر[2]

وافتخر الطرطوشى بسدادرأيه وعلو همته فقال :

كأن لسانى والمشكلات ... سنى الصبح ينحر ليلا بهيما

وغيرى إن رام مارمته ... خصى يحاول فرجا عقيما[3]

(١) الطالع السعيد للادفوى ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) المعجم ورقة ٣٠٠

(٣) نفع الطيب ج ٢ ص ٢٩٠

ولا أدرى كيف استساغ الشيخ الوقور أن يصم غيره بما وصمه به فى البيت الثانى ، لعلها اندفاعة غضب غلبت وقاره . .

وافتخر ابن قلاقس بشعره من قصيدة يمدح بها ياسر بن بلال فقال :

أين أمثال ما أقول ولفظى … بات يقتاد سائر الأمثال
صحبة الدهر وهو مشتهر النقـ … ـص دعتنى إلى سَنِىّ الكمال
شرف جاوز الغنى ومن العار … ض ما انحط عن رءوس الجبال
أن يرينى على التلاين أدنى … من حضيض الصبا إلى الإكمال
فلقد كنت فى الشموخ زماناً … كنت فى عصره من الأطفال
لا تغرنك اللحى من أناس … درجوا كالحمير تحت المخالى
ولئن خف عارضاى فانى … لا أبالى بكل وافى السبال(1)

هذا ، ولتقية الصورية هذا البيت من جملة أبيات :

أرونى فتاة فى زمانى تفوقنى … وتعلو على علمى وتهجو وتمدح(2)

والفخر – غالباً – يهدف إلى غرض تربوى – دون قصد من الشاعر هادف – حيث يعرض النموذج الصالح والأسوة الحسنة ، كما أنه يعلى شأن الفضائل ويحث عليها بطريقة غير مباشرة ، إلى جانب أنه تعبير عن عزة النفس ، وإعطائها حقها من الإكرام والتقدير ، وهنا تبدو قيمته الخلقية والتهذيبية ، وإذن فهو ليس دائما غاية خاصة خالصة ، وتحدياً ثائراً ، وثورة عارمة فى موقف دفاع عن الكرامة ، واعتبار الذات .

(1) مختارات الديوان ص ٨٢
(2) الخريدة ج ٢ ص ٢٢٣

وأما (مقام الحكمة) وما هو بسبيلها من « التهذيب الخلقى » فقد روى عن القاضى الرشيد قوله :

إذا ما نبت بالحر دار يودها … ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم
وهبه بها صبا ألم يدر أنها … سيزعجه منها الحمام على رغم(1)

وروى عن ابن مكنسة قوله :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها … نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهى حبائل … واقتد بها الجوزاء فهى عنان(2)

وكان فقر ظافر الحداد سبباً فى نظرته المتشائمة فقد رأى الدنيا جيفة نتنة ، وأهلها كلاب يتهارشون ويتدافعون عليها فى قوله وهو بالشكوى أقرب :

هى الدنيا فلا يحزنك منها … ولا من أهلها سفه وعاب
أتطلب جيفة لتنال منها … وتنكر أن تهارك الكلاب(3)

ويحذر من متاع الغرور فى الدنيا فآفتها كامنة فيها فيقول :

كن من الدنيا على وجل … وتوقع سرعة الأجل
آفة الألباب كامنة … فى الهوى والكسب والأمل
تخدع الإنسان لذتها … فهى مثل السم فى العسل

(1) الخريدة ج ١ ص ٢٠٠
(2) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٣٥
(3) الخريدة ج ٢ ص ٨
(4) الخريدة ج ٢ ص ٨

ويقول مصوراً حاله ، وقد جرت النجوم بنحسه وتولته الأرزاء بينما تقوم بين جنبيه نفس طموح :

ولى همة تبغى النجوم وحالة   تصحف ما تبغيه فهى لنا ضد
إذا رفعتنى تلك تخفض هذه   فكل تناه فى إرادته الحد
فما حال شخص بين هاد وصاعد   وليس له عن واحد منهما بد
ولتنى الأرزاء حتى كأنما   فؤادى لكفى كل لاطمة خد[1]

وله فى الزهد والحكمة :

أوصيك بالبعد عن الناس   فالعز فى الوحدة والياس
ووحدة الصمصام فى غمده   خصته بالعزة فى الباس[2]

وقوله :

نقطع الأوقات بالكلف   وقصارانا إلى التلف
أمل ترجى مطامعه   لا إلى حد ولا طرف
تعجب الإنسان مكنته   وهو باب الهم والأسف
وهو دين للزمان فلا   يفرح المغرور بالسلف
أترى الجزار عن كرم   جوده للشاة بالعلف[3]

وقوله :

أرى الشر طبع نفوس الأنام   يصرفها بن عارو ذام . . .
فإن كان لا بد من قربهم   فزرهم على حذر واتهام

(١) الخريدة ج ٢ ص ٣
(٢) المصدر السابق ص ٧
(٣) الخريدة ج ٢ ص ٨

وما ذاك إلا كأكل المريـ   ـض شهوته من أضر الطعام
وقد ينتهى شر من لا تخاف   إلى غاية فى الأذى لا ترام
كما يقتل النمل – وهو الضعيـ   ـف شبل الهزبر البعيد المرام
وما للرماح على طولها   مع البعد – فعل قصار السهام[1]

وهو فى بعض هذه الأبيات يجيد التنظير والتعليل ، وهذا طبيعى ما دام يدافع عن قضية ويثبت أركانها لتتقرر فى الأذهان .

ويروى السلفى لمحمود بن ناصر قوله :

ما غبطة المرء بما قد حوى   أليس عقباه زوال سريع
لو فكر الإنسان فى أمره   ما انفك طول الدهر يذرى الدموع
وصال دنياه له فرقة   ليس لها بالرغم منه رجوع
وكل عيش كان يزهى به   لا بد يضحى وهو منه خليع[2]

كما يروى لعبد الوهاب بن حسان المخزومى قوله :

يا من يظن بأن الثوب يرفعه   هيهات هيهات هذا غير محقوق
ما زينة المرء إلا أن يكون له   علم يميزه عن كل مخلوق
أو أن يكون له بين الورى كرم   باد يغطى عليه كل مخروق[3]

ولابن مكنسة قوله :

إذا ضاق ذنب العبد عن سعة العذر   فبالسيف عاقب فهو أيسر من هجر
فإن جراح السيف يبرا على المدى   وإن جراح الهوى يبقى مع الدهر[4]

(١) المصدر السابق ص ١٠
(٢) المعجم ورقة ٢٤١
(٣) المعجم ورقة ٢٣٩
(٤) المصدر السابق ورقة ٢٠٨

وروى المقرى فى ترجمة الطرطوشى قوله :

إذا كنت فى حاجة مرسلا   وأنت بإنجازها مغرم
فارسل باكمه جلابة   به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى   رسول يقال له الدرهم[1]

وروى السلفى قول البلوى بالثغر :

مالى سمحت بنفسى وهى غالية   لمن غدا فى سبيل الرخص أخاذا
أضل عن طريق الرشد فى نظرى   فلم أجد لودادى المحض إلا ذا
لقد شمتُّ بقلبى حين غادره   مقطعاً بسيوف الغدر أفلاذا
وكم أفدت فؤادى من مناصحة   فلم يزل عن سبيل النصح لواذا
فذق مرارة ما قد كنت تحسبه   حلوا، وسرعن لذيذ العيش إغذاذا[2]

وتبدو على هذا النتاج الأدبى فى الحكمة والتهذيب النفسى ظلال من الثقافة الدينية التى كانت شائعة فى الأسكندرية لهذا العهد ، وظلال أخرى من المحن والخطوب التى انتابتهم ، والفقر الذى أشاع اليأس فى النفوس فطمعوا فى ثواب الله ونعيمه ، إلى جانب ما كان لهم من بصيرة ورأى فى معترك الحياة والصراع بين الخير والشر والحق والباطل — كل أولئك دوافع لقول الحكمة ، واختصار التجارب فى قول يخلد على الزمن ليكون دلالة على عصره وبيئته ، وعظة وعبرة للناس فى كل جيل ...

أما (مقام التصوف) فإنه — على ما روى المؤرخون — قد عرفته مصر فى العهد الفاطمى ، بل قد عرفته قبله أى فى أواخر القرن الثانى منذ ظهر بها

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٠   (٢) معجم السلفى ورقة ١٨٧ و ١٨٨

أحد أقطابه المشهورين : هو ذو النون المصرى المولود بأخميم ، وكان ذلك العهد أول ما عرفت مصر عن التصوف والصوفية حتى اشتهر أمره على الرغم من معارضة الفقهاء لهذا المنزع وما لقيه ذو النون من أذى . قال الكندى « كانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[1] فى نزعة عملية تؤدى وظيفتها فى المجتمع ، ثم سرعان ماعكفت على نفسها ودارت فى دائرة ضيقة هى إصلاح نفوس أصحابها ، وكان ذو النون من أوائل من استعمل كلمة الحب وتوسع فى معناه الإلهى فاستجاب له خلق كثيرة فإذا ما كان العصر الفاطمى وجدنا تيار هذه النزعة مستمرا ، وأصبحت ذات أثر بارز فى الحياة السياسية للعهدين الفاطمى والأيوبى معاً ، فعرفت مصر الفاطمية فرقة « الكيزانية » نسبة إلى الفقيه الشافعى الواعظ الشاعر المتصوف أبى عبد الله بن ثابت الأنصارى المعروف « بابن الكيزانى » . وعرفت مصر الأيوبية كثيراً منهم من أمثال القناء وابن الفارض وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى ، وكان أثرهم بارزاً فى توجيه مجتمع آمن بهم وانقاد لهم .

أما الأسكندرية فقد رحل إليها من المتصوفة فى العصر الأيوبى من المغرب أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى ، وقد حفظ لنا تاريخهما أنهما وصلا إلى الأسكندرية عام ٦٤٢ هـ واتخذا الأسكندرية نزلا لهما ولمريديهما حيث تديرا داراً بإزاء قلعة الديماس المعروفة الآن « بكوم الدكة » وأخذ أبو الحسن فى إلقاء دروسه بجامع العطارين الذى عمره أو شيده بدر الجمالى ، وكان يحضر عليه الأجلاء والفضلاء ، وفى هذا الجامع خلفه تلميذه أبو العباس أحمد ابن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى ، وقد رحل الأول كثيراً ، وحج إلى بيت الله الحرام كل عام ، ومات بصحراء عيذاب فى صعيد مصر

(١) الولاة والقضاة ص ٤٤

عند عودته من الحج . وتردد الثانى بين الأسكندرية والقاهرة إلا أن فترات وجوده بالقاهرة كانت قليلة بحيث كانت زيارات يلقى فيها بعض الدروس فى جامع الحاكم وطاب له المقام فى الاسكندرية حتى مات سنة ٦٨٦ ه بعد أن ترك لنا آثاراً بعضها أدبى ذو نزعة صوفية حفظتها لنا كتب طبقات الأولياء ، منها ما هو شعر على طريقة المتصوفة ومنهجهم فى التفكير والتصوير ، وأسلوبهم فى الرمز والإشارة . ومنها ما هو نثر ، فقد عرف أنه كان يجيد كتابة الرسائل الإخوانية كرسالته التى بعثها إلى بعض إخوانه بتونس عقب وصوله الأسكندرية وسنذكرها فى مقامها من النثر عند الحديث عنه

ومن الشعر المنسوب إلى الشيخ أبى العباس المرسى قوله :

أعندك من ليلى حديث محـــرر   بإيراده يحيا الـــرميم وينشر
فعهدى بها العهد القـــديم وإننى   على كل حال فى هواها مقصر
وقد كان عنها الطيف قدماً يزورنى   ولما يزر ما باله يتعــــذر
فهل بخلت حتى يطيف خيالها   أم اعتل حتى لايصح التصور
ومن وجه ليلى طلعة الشمس تستضى   وفى الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلا برفع حجابها   ومن عجبٍ أن الظهور تستر[١]

فى رواية ابن عطاء الله السكندرى فى « لطائف المنن » .

ونسبت إليه قصيدة أخرى عند ما سئل النفس والروح مطلعها :

إن كنت سائلنا عن خالص المنن   وعن تألف ذات النفس بالبدن

وينتهى منها بقوله :

ففطرة النفس سر لايحيط به   عقل تقيد بالأوهام والدرن
لكنها برزت بالحكم قائمـــة   حتى تألفها السكان بالسكن[٢]

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله ص ٣٣
(٢) لطائف المنن ص ١٨٢

وثالثة قال فيها :

ذاب رسمى وصح صدق فنائى   وتجلت للســـر شمس سمائى
وتنزلت فى العـــوالم أبدى   من انطوى فى الصفات بعد صفائى
فصفاتى كالشمس تبـــدى سناها   ووجودى كالليل يخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلا وفصلا   من رآنى فساجد لبهـــائى
أنا نور لأهله مستبــــين   اشهدونى فقد كشفت غطائى[١]

ويبدو تأثره بنظرية (وحدة الوجود) فى هذه الأبيات ، وسلوكه سبيل الشعراء المتصوفين فى التعبير الرمزى متخذين لغة الشعر الغزلى وأسلوبه وصوره فى حديثهم عن الحب الإلهى ، وكان شعرهم تصويرا لمواجدهم ، وتعبيرا عن أشواق أرواحهم ابتغاء الوسيلة فى الوصول والفناء فى المحبوب الأقدس مستغلين كل ما زخرت به اللغة من عناصر بيانية ، وزخارف لتهيئة جو موسيقى يناسب مقاماتهم وأشواقهم وهيامهم الصاعد

ونتوقف عن هذا الاستطراد فإن أبا العباس قد بلغ الأسكندرية مع شيخه سنة ٦٤٢ وقد انتهت الدولة الأوربية سنة ٦٤٨ فيكون الشيخ قد أمضى بها فى عهد هذه الدولة ست سنين ، وحيث لم يتحدد تاريخ هذه الأشعار — إذا صحت نسبتها إليه — فانه يتجه الذهن إلى احتمال أن تكون من أدب العصر وألا تكون دون ترجيح وعندئذ يأبى المنهج أن تنسب إلى هذا العهد ، والشيخ قد أدركته الوفاة ســـنة ٦٨٥ على أرجح الأقوال فى تاريخ الوفاة ، ومن الجائز — فى مجال البحث — أن يكون قد قالها فى عهد دولة المماليك وهو العهد الذى حفل بكثير من الشعراء المتصوفين فى مصر والإسكندرية .

(١) لطائف المنن ص ١٨١

وبعد : فقد جلنا جولتنا فى أسفار الأدب والتاريخ حتى وقفنا على هذه الآثار الأدبية فى الشعر مما أنتجه شعراء الأسكندرية فى فنون القول المختلفة ، وقد ألقينا عليها نظرات نقدية سريعة فى سياق عرضها وأبدينا فيها بعض الآراء ، وموعدى بالقارىء أن ألخص له هذه النظرات والآراء فى عرض سريع عند التعقيب على هذا النتاج الأدبى شعره ونثره فى خاتمة المطاف ، بعد أن نقف على آثارهم الأدبية فى النثر بفنونه المختلفة .

النثر

ازدهر فن الكتابة فى العصرين الفاطمى والأيوبى ازدهارا كان نتيجة لتطور الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية ، وعالج الكتاب من فنونها أنواعا مختلفة ، وبرعوا فيها براعة تدل على تمكنهم منها ووقوفهم على أسرار الجمال فيها مما يضمن لها أن تكون آثارا خالدة ، وشواهد دالة على متابعتهم لتطورها وأهدافها باذلين مجهودهم الفنى لابرازها فى معارض من الزينة اللفظية والمعنوية كالنقوش الجميلة يتحراها الفنان ، ويعمل لها خاطره وثقافته وشعوره ، ويشق على نفسه فى إخضاع معانيه وإدخالها هذه القوالب التى ارتضاها لتكون وسيلته إلى التعبير عن مشاعره وأفكاره .

وعرفت الإسكندرية من هذه الأنواع :

١ ــ الرسائل الرسمية

هى التى تصدر عن الوالى أو القاضى أو الناظر أو صاحب الأسطول إلى الخليفة أو السلطان ، وهى تتعلق بالأمور العامة والشئون التى تتصل بتدبير الأمور وأساليب الحكم ، ولم يثبت لدينا نص من هذه الرسائل – على الرغم من كثرتها – تصح نسبته إلى كاتب اسكندرى أو موظف بها لدى الوالى أو القاضى ، وقد عرفنا أن من الكتاب الذى عملوا بالأسكندرية ردحا من الزمن القاضى الفاضل الذى اتخذه ابن حديد قاضى الإسكندرية كاتبا له مدة ثمانى سنوات حتى تولى الوزاره فى القاهرة العادل رزيك بن طلائع حيث كانت الرسائل ترد من الإسكندرية بقلم القاضى الفاضل فأثارت اهتمام العادل ، فبعث إلى والى الإسكندرية أن يرسل القاضى الفاضل إلى القاهرة حيث جعله رئيسا لديوان الجيش وفى ذلك قال عمارة اليمنى فى كتاب « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » فى ترجمة الملك العادل « ومن محاسن أيامه ، ومايؤرخ عنها ، بل هى الحسنة التى لاتوازى بل هى اليد البيضاء التى لاتجازى . خروج أمره إلى والى الإسكندرية ، بتسيير القاضى الفاضل واستخدامه بحضرته ، وبين يديه فى ديوان الانشاء » وقد صار فيما بعد زعيم مدرسة تصطنع التأنق ، والإمعان فى الزخرف ، مع المحافظة جهد الطاقة على المعانى داخل هذه القوالب ، والتزام السجع ، ونشر القرآن الكريم ، وتجسيم المعانى ، وتشخيص الجماد ، والاقتباس . والإمعان فى التورية والجناس وغير ذلك من وجوه المحسنات متأثرا فى ذلك كله أو بعضه بما فعل السابقون فى بغداد والشام وبلاد بنى بويه والاندلس كابن العميد والبديع ، والحريرى الذين كانوا مثلا تحتذى فى الشرق والغرب ، بل إن الفاضل أربى عليهم وعقد

فى فنه وركب زخارفه واطال جمله لتحتمل كل أولئك حتى نسب إليه أنه فعل فى الكتابة مافعله أبو تمام فى الشعر[1] على أن كتابته وكافة رسائله لم تكن تلتزم هذه القيود أو هذه الزخارف المركبة فى كل شأن من الشئون تدعو الحاجة إلى الإبانه عنه أو تسجيله ، ومن أجل ذلك يبدو أن المراسلات الرسمية التى كانت تصدر عن الديوان لم تطبع بهذا الطابع المتكلف الذى يجهد الكاتب فيه نفسه أو يرهق فنه بهذه الاثقال حتى يمعن فى النقش والتزويق ، لأن هذه الرسائل – بطبيعتها – كانت تدعو إلى الإسماح وسرعة الافصاح ، وهذا يستلزم القصد فى استخدام هذه القيود والتزام مالا يلتزم فيها .

وعلى الرغم من طول تلك المدة التى قضاها القاضى بالإسكندرية – نسبيا – كاتبا عند ابن حديد فإن مراجعه لم تدون له أثرا ادبيا مؤرخا أو تصح نسبته اليه فى هذه الفترة ، بل أن مجموعات رسائلة ومنها – « الفاضل فى انشاء القاضى الفاضل » وهو مختار جمعه الشيخ ابن نباته المصرى ولايزال مخطوطا بمكتبه الازهر ، « والرسائل الأدبيه » له وهى مخطوطة أيضا بالمكتبة المذكورة . نقول إن هذه المجموعات لم تؤرخ رسائلها بحيث يمكن الوقوف على رسائل ديوانية كتبها وهو بالإسكندرية بل أن بعض الدارسين قد نشر مجموعة رسائله التى تسمى (الدر النظيم فى ترسل عبـد الرحيم (جمع محيى الدين عبد الظاهر ، ولم يعن بتحقيقها تحقيقا تاريخيا ، ولم يخرج بها عن إطار محدود الشكل[2] يضبطها وشرح مفرداتها دون الوقوف على جهة صدورها وزمنه ، ولعله معذور فى ذلك لصمت المراجع التاريخيـة والأدبية عن هذه الفترة من حياته الأدبية بل عن كثير من فنون الكتابة التى صدرت عن أدباء الإسكندرية

(١) الكت العصرية ص ٥٣ مع ملاحظة أن المقريزى فى الفاظ الحنفا ذكر أنه اســتخدم فى ديوان الجيش لا الانشاء .

(٢) ادب الحروب الصايبية للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٢٠١ و ٢٦٤

وكثير منهم كان يجيد النثر وله فيه رسائل إلا أنها — مع الاسف — لم تسجل فى كتاب ولم يعن بها مؤرخ . . ومن أجل هذا فقدنا آثارا أدبية نثرية لزعيم أدبى دان له الكتاب فى هذه الفترة وجاره غيره — كالعماد — دون أن يبلغوا شأوه فى فنه الذى أسلفنا فيه القول ولم يبق لنا من نثره فيما يتعلق بالإسكندرية غير عدة «سجلات» تنسب إليه مما دعاه كتاب صبح الأعشى [1] فى الجزء العاشر منه ، وكتاب « مجموعة الوثائق الفاطمية [2] » كنسخة سجل بولاية قاصد بثغر الإسكندرية ونسخة أخرى لسجل بولاية ثغر الأسكندرية كتب به لابن مصال [3] ونسخة ثالثة مما كان يكتب عن (الوزير) فى الدولة الفاطمية لأصحاب السيوف [4] ، ونسخة رابعة لسجل بتدريس فى الإسكندرية مما صدر عن الديوان العام فى القاهرة ولا بأس أن نورد نص سجل التدريس هذا ليدل على لون من ألوان فنه وفيه يقول .

« ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الأسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور فإنه خليق بعناية تامة لاتزال تتجدد عنده وثغور ، لانه من أوفى الحصون والمعاقل ، والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل ، وهو يشتمل على الثراء والفقراء ، والمرابطين والصلحاء ، وأن طالبى العلم من أهله ، ومن الواردين إليه ، والطارئين عليه متشتتو الشمل ، متفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ، ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منا عليهم وإنعاما ، ومستقرا لهم ومقاما ، ومثوى لجميعهم ووطنا ، ومحلا لكافتهم وسكنا . . . . إلى أن يقول — واستقرت

(١) صبح الاعشى جـ ١٠ ص ٣٥٢
(٢) جمع الدكتور الشيال .
(٣) صبح الاعشى جـ ١٠ ص ٣٧٤
(٤) المصدر السابق ص ٤٤٦

التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر ، لنفاذك واطلاعك ، وقوتك فى الفقه واستضلاعك [1] .

فهذا نموذج ترى فيه السجع ملتزما ، كما ترى اهتماما واضحا بغيره من المحسنات ولاسيما الجناس والطباق وهذه سمات غلبت على النثر فى العصرين الفاطمى والايوبى بمصر وغيرها ، وهو فى هذا النص مقتصد على خلاف الحال التى تكون عليها بعض رسائله الاخوانيه حيث تتميز خصائص فنه : وتبدو زعامته الحقيقية لمذهبه مما اعجز عن مجاراته وأن شق العماد على نفسه حين حاول أن يجرى فى مضماره فلم يلحق به ، ولم يبلغ مبلغه من التعقيد والتركيب وإذابة ثقافته العربية والاسلامية فيما كتب من رسائل على النحو الذى جرى عليه القاضى الفاضل .

ويحسبنا هذا القول إشارة دالة على مذهبه ، وقد فقدنا آثاره الأدبية التى أنشأها بالاسكندرية وهو فقد لعزيز فى التاريخ الأدبى لمدينة الإسكندرية .

(١) صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٨

٢ — الرسائل الاخوانية

وهى تلك التى يتبادلها الإخوان والأصدقاء تعبيرا عن أشواقهم وتوادهم ورغبة فى استطلاع أحوالهم ، لبذل المعونة ان الم مكروه ، واستشارة فى مهم إذا احتاج الأمر للمناصحة والمشاورة ، أو الرغبة فى الوقوف على حقيقة مسألة من مسائل العـــلم . وقد تكون عتابا ، أو استعطافا ، أو دفاعا عن النفس إذا أثيرت التهم أو الشكوك إلى غير ذلك من الأحوال التى تجرى بين الناس فى علاقاتهم الاجتماعية ، وكتاب الرسائل — على هذا النحو — ظاهرة ضرورية أو طبيعية مادامت هذه الحقيقة قائمة . . الإنسان حيوان اجتماعى أو « مدنى بطبعه » .

وعلى الرغم من مجتمع الإسكندرية الكبير وما كان يجرى بين أفراده من أحوال ، وما يقـــوم بينهم من علاقات تتنوع وتأتلف أو تختلف وهم قد يسر الله لهم الرزق الوفير ، والعمران المتسع ، والحضارة الباذخة الذرى فى الصناعة والبحارة والتعليم ، وقام فيهم من العلماء والأدباء والزهاد رجال لهم صيت وذكر مسموع حتى حفلت الأسكندرية باهلهـــا والوافدين إليها من الشرق والغرب ، وحتى سارع الحكام والسلاطين إلى علمائها يأخذون عنهم ، ويرحلون فى طلب الحديث والفقه — مجتمع هذا أمره ، وهذه أحواله كان جديرا أن تنهض فيه الكتابة بأنواعها وبخاصة مايجرى بين الناس من تراسل يكون عـــونا لهم فى شئون حياتهم الخاصة والعامة ولكننا جهدنا فى الوقوف على نماذج من رسائلهم دون جدوى ، لنحدد نشاطهم الأدبى فى هذا النوع ،

ونرسم خطوط منهجهم فيه ، ولكننا لم نحل منه بطائل إلا ماكان ضئيلا لايغنى من أمرها فتيلا ، ومع ذلك فقد وقفنا على جزء من رسالة لسليمان بن فياض الإسكندرانى إلى بعض الفلاسفة بالهند يستأذنه فى المصير اليه .

(ماذا عسى أن يصف من شوقه مشتاق ، يقدم قدما ويؤخر أخرى بين امر أمير الشوق ونهى نهى الهيئة ، فإن رأيت أن تبله من غلله وتبله من علله بالإذن له فما أولاك به ، وأحوجه إليك ، والله المسئول فى بلوغ المأمول بك ولك[1] .

وهو فيها ينهج كتاب العصر العباسى الأول قبل أن تمتد يد ابن العميد برسم معالم النهج الجديد ، ومن النثر الصوفى مما ثبت نسبه الشيخ أبى العباس المرسى لما حضر إلى الإسكندرية مع شيخة أبى الحسن الشاذلى — رسالة كتبها إلى بعض إخوانه بتونس قال فيها :

« وقد صحبت رأسا من رؤوس الصديقين ، وأخذت منـــه سرا لا يكون إلا لواحد بعد واحد ، الشرح يطول ، وبه افتخر ، وإليه انتسب ، وهو « أبو الحسن الشاذلى » وكان لا يصحبه احد إلا فتح الله عليه فى يومين أو ثلاثة ، فإن لم يجد شيئا بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقا ولكنه أخطأ الطريق ، ودليله من كتاب الله عز وجل «قال رب اجعل لى آية ، قال آتيك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » وسمعته يقول — إذا عرضت لك حاجة إلى الله فاسم عليه به ، فكنت والله لا أذكره فى شدة إلا انفرجت ولا أمر صعب إلا هان ، وأنت يا أخى إذا كنت فى شدة ، فأقسم على الله به ، وقد نصحتك ، والله يعلم ذلك والسلام[2] .

(١) الخريدة حـ ٢ ص ٢٠٢

(٢) أبو العباس المرسى ومسجده الجامع للسندوبى ص ٨٥

وهى جارية على الطريق المرسل دون التزام أو اهتمام بمحسن بديعى أو أى لون بلاغى وإنما سبيلها الوضوح وعدم التكلف ، وتضمينها معانى الجماعة ، وطرائقهم فى السلوك ؛ وهى بحق — ليست عملا فنيا يقوم فى مقام ما أثر من كتابة فنية تهيأ لها صاحبها بالإعداد والاختيار والصنعة .

هذا ما وقفنا عليه من آثار أدبية سكندرية فى ميدان الرسائل الإخوانية ومن العجيب أن نقف على هذا القدر الضئيل من مأثورهم فيها — وهم الأدباء الناثرون — والرسائل الأخوانية مظهر من مظاهر علاقاتهم الإجتماعية التى تربط الصديق بالصديق والتلميذ بالأستاذ ولكنه الأمر الذى يثير العجب ويضنى الباحث جريا وراءها فيعيادون أن يقع ما يحقق طلبته . ومع ذلك فإن طرائقهم فى الأنواع الأخرى تجرى على النهج العام للكتابة الفنية السائد فى هذا العصر مما أبرزنا معالمه فيما سبق ، وهذا مما يستأنس به فى تصوير نهجهم الفنى فى كتابة الرسائل الأخوانية . .

٣ — النثر الوصفى

وقد كان حظها منه قليلا إذا وقع فى الإعتباران المجال فى الوصف للشعر أوسع وأكثر ملاءمة ، وعلى الرغم من ذلك فقد وجدنا من وصف الطبيعة ، ومظاهر الحضارة ، وإن كان ذلك يأتى عرضا فى سياق آخر ، فهذا ابن قلاقس يصف كتابه (الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم بقوله) .

(هذا كتاب نظمت فريدة فى عقد الكرم ، وجلوت فرنده فى عضب الهمم ، واستخلصت بنار الطبع تبره وشحذت من لسن الذهن نبره ، وأنبت فى روض الشرف ازاهره ، وأثبت فى سعاد العز زواهره ووسمت عوائق المجد بحمائله ، ورقمت ، مائث الحمد بخمائله ، ناصرة مشرقة اللألاء ، بل مشرفة الآلاء ، وهذا السيد الايد — وإن عظم سوره ، وكبر صوره ، وشرف نسبه ، وظرف نصبه ، واجتلى من مجالس الفضل ومفارس النبل — منتدى صدور إيوانها ومبتدأ سطور ديوانها ، فان مثلى واياه كراعى سنين عجاف وداعى مسبتين لإيجاف طواه إدقاع ، وأجراه صفصف قاع ، فاحتل بوهد رهين جهد ، ماله بالسحاب من عهد ، قد لفته النكباء فى شملتها ، وأتلفته بتفاصيلها وجملتها ، فلما يبست مراتعه ، ويئست مطالعه ، اتت أكيلة ليث فسامها ، وعنت مخيلة غيث فشامها ، واصاخ ليستمع اين موقعه ، وينتج ماينفعه ، وإذا هو نبت ، فى رمل خبت ، قد أرضعته بدرها الأمطار ، ورصعته بدر الأزهار واندفقت انهاره وسجعت اطياره بمـــا خرق له « مخارق

جيب الإبداع ، وانحط به ابن جامع « عن درجة الإجماع ، فوقع اختياره بما أداه إليه اختباره ، على شجرة أصلها فى الماء وفرعها فى السماء .

يصيف إلى مرتقى منتقى   ويشتى إلى مبتلى مجتنى
وتأتى على حالتى سومها   لذا بالمنون وذا بالمنى

وهو — أيده الله — تلك النخلة ذات الظل المديد والثمر الجديد، من الطلع النضيد، وانا ذلك الراعى الذى هجر ملأه، ووجد كلأه ، وسائر الكرام وان كانوا كنيقة[1] ، فى تلك الحديقة الانيقة ففى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار[2] .
ومنه : والعصر ، إن فى العصر ملكاً استملك رق المدح ، واستهلك المحن بالمنح ، نقل الدهر إلى نقش ، خاتمة ، وجعل موطن كعبه همة « كعبة » وباهى بنهضة من عمره نهضات عمره وكم نقى مثار عثيره ممن يصول كعنتره وكم استبد فى باسه ، ممن يضحك (بإياسه » فما زال مرتع آمالى فى ذراه خصبياً ، وسهم مطلبى فى ثغر النجاح مصيباً وامانى لا تجد ، (لابن ليلى) دونه فى بيت « نصيباً » نصيب ، وانما لقيت من وعثاء السفر ، ولقاء الحو وابتغاء الظفر ، قبل حلولى بهذه الحضرة النضرة ، حضرة القائد أبى القاسم الأجل[3]

وهو فى هذا النص يستغل عناصر وصفه من الطبيعة ويتمثلها فى الإشادة بالكتاب وبأبى القاسم فيربط بين هذه كلها برباط المشابهة ، ويقوم النثر فيه أيضاً مقام الشعر فى المدح ويذكرنا بما كان قد لجأ إليه الجاحظ من الاستعداد من التاريخ حوادثه ورجاله وبما فعله فيما بعـــد ابن زيدون فى رسالتيه الهزلية والجدية

---

(١) نيقة : نخله .

٢) المرخ والعفار نوعان من الشجر يتخذ منهما الزند وهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعضه الآخر .

(٣) الخريدة جـ ١ ص ١٤٧ وما بعدها .

ومتأثراً بمقامات الحريرى احياناً وبمنهج القاضى الفاضل احياناً أخرى وقد غلب عليه نهج الأول .

ووصف البحر فقال :

« إنى لما تسنمت الأمواج فى ذات الألواح وتنسمت الإزعاج من ذات الأرواح ، قلت : السلامة أما ميلاد ومعاد ، أو يوم معاد وعجبت من حالى فى حلى وترحالى ، فتشوقت إلى الوطن والوطر ، وكلفت الخاطر وصف ذلك الخطر « .. إلى أن يقول — بعد أن وصفه شعراء — فى وصف المركب والراكبين (ثم إن البحر تخبطه شيطان الموج من مس الريح ، فلو رأيته ، — وقد شاب فى عنفوان شبابه ، وشابه فروع الأطواد بأصول هضابه ، والحنية تدوى بأهلها كالحلية بنحلها ، ونحن نصلى لمؤنس يؤنسنى ، وعلى لوح نوح لأسترشد رأى من آثر الجهل فى العصمة ، وما لحقت بأبيه — لولا وحى الله عز وجل — ولقلت الصخر — يقى أنى حضر ، هل غنى لمجنوبته عليه الا المنية ؟ ولم يزل يدنو كالمجنون ، ونداريه من الجنون ، حتى كسته الرخاء ثوب وقارها ، وامسكت الزعزع عنه كأس عقارها ، فصح وصحا بعد جنونه وسكره ، ونطق منا بلسان المجاز ، بالحقيقة بعد المجاز ، فوصلنا طرف الجزيرة بعين غرة[1] شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة[2]

(ومن نثره يصف حاله وقد انقضى رمضان واطلقت لشاطين المجون الاعنة قوله .

(لما أذن لشوال فى أن تشال الكئوس ، ويوضع[3] فى طاعة الخمر بالرءوس خلعنا عن سوالف الخلاعة عذار العذل ، وركبنا خيل الفتك والمجون على

---

(١) المجنوبة — الغنية .   (٢) الخريدة جـ ١ ص ١٥٢
(٣) يسرع .

أرض الجذل، وقلبنا لبطن العفة ظهر المجن، وسرنا نبعج تحت عجاج النذور[1] وداج الدن[2])..

وهو فى هذا النثر يلتزم السجع ، ويحتفل بألوان البديع الاخرى كالجناس والطباق والمزاوجة ويكاد يتخذ من الاستعارة عنصراً أصيلا فى كل جملة ، مرهقاً نثره بألوان الحلى أرهاقاً يذهب ببعض صور الجمال فيها بحيث يغيب القصر منها إلابعد معاناة وجهد ، ونثره مع ذلك أخف وقعاً والطف موضعاً من بعض شعره فى الوصف وبخاصة تلك الفقرة التى نقلناها عنه وقد ولى عنه رمضان ... حيث تبدو صورته ، وقد لعبت الخمر برأسه ، أو مسه شيطان المرح ، فاستشاط نشاطاً كأنه فارس حلبة ، أو فاتك بالرءوس فى ميدان ثار فيه النقع ، وتتابعت الحركة ، ونزفت الدماء ، وصال هو وجال فى اندفاع وبضاع ذات اليمين و ذات الشمال ... كل أولئك قد كان لأن رمضان ولى وأطلق لمجونه العنان .

وفى مجال الوصف نلتقى على بن ظافر وهو « يفرش لبـــدائع البدائه » مما اختار فى كتابه من فنـــون القول بوصف يتصل بالموضوع الذى يسوق له الشعر فاذا كان الموضوع وصف قصر بنى خليف بالإسكندرية وابتداع ابن قلاقس فى وصفه شعرا . قال ابن ظافر ناثرا : قصر رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، قد ارتدى جلابيب السحائب ، ولاث عمائم الغمائم ، وابتسمت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن حناياغرفاته ، واشرف على سائر نواحى الدنيا وأقطارها ، حبته الرياض بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع

(١) النذور يقصد بها الوعد . (٢) الوداج — عرق فى أصل العنق .

(٣) الخريدة ج ١ ص ٢٦٠

(٤) بدائع البدائه ص ١٦٥ ، والنفح ج ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥

أمطارها ، والرمل بفنائه قد نثر تبره فى زبرجد كرومه ، والجو قد بعث بذخائر الطيب لطيمة نسيمة ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونشرت غدائرها ، والطل ينثر لؤلؤه فى مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يرعد غيظاً من عبث الرياح به.

هذا عن النثر الوصفى وهو فى الواقع قليل ولعله قد ضاع كثيره ، وإن كان مابقى شاهدا على ما قلناه فى خصائصه وآثار السابقين فيه ..

٤ — الأدب التاريخى

فقد عمد بعض الأدباء المؤرخين إلى كاتبه التاريخ بأسلوب يلتزم فيه السجع غالباً — وتكثر فيه المحسنات الأخرى ، كالجناس والطبقات والمزاوجة حتى ليحسب القارئ أنه يقرأ قطعاً أدبية لا فصولا تاريخية ، ويخدعه الكاتب عن التاريخ بما الترمه من لغة فنية تغطى وجه الأحداث التاريخية ، أو تكاد قاصدا نقل الوقائع مصورة بعواطفه حتى ليظن برأية الظنون ، وبقوله تستثار الشكوك ، كما فعل العماد فى كتابيه « البرق الشامى » "والفيح القسى ، فى الفتح القدسى". وقد نقل عنه صاحب الروضتين وصف اسطول صقلية عندما حاول غزو الأسكندرية « قال العماد » : ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافى الأمر (يريد الصلح بين المتنازعين على الملك فى الشام بعد موت نور الدين) فاعترضه أمران : أحدهما : وصول[1] أسطول صقلية إلى الأسكندرية وادراكه ، والثانى نوبة الكنز (ثائر بالصعيد) ونفاقه وهلاكه ، أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين (بعد الخمسمائه) وانهزم فى أول المحرم سنة سبعين ، ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين الى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال ، وحاصله ؛ أن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد المؤمن فى البلاد المغربية ، وهدد به فى الجزائر

(١) وهذه الجملة آثار المؤامرة التى اتهم فيها عمارة اليمنى فى الاستنجاد (بالفرنج) عندما كاتبوهم فى ذلك ولم يكن يعلم ملك صقلية بما حاق بالمتامرين فى القاهرة فبعث مراكبه الى الاسكندرية حسب الاتفاق المبيت معهم (حاشية السلوك لمعرفة دول الملوك) جـ٦

الرومية صاحب قسطنطينية ، فشوهد فى الثغر من وفور عدته ، وكثرة عدته ، وعظيم الهمة به ، وفرط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر ، واشتد به الأمر ، فحمى أهل الثغر عليهم البر ، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور ، فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلهم من المراكب فكانت الخيل ألفاً وخمسمائه رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شينى[1] ، فى كل شينى مائة وخمسون راجلا ، وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الازواد والرجال أربعين مركباً ، وفيها من الراجل المتفرق ، وغلمان الخيالة ، وصناع المراكب ، وأبراج الزحف ودباباته[2] ، والمنجنيقية[3] ما يتم خمسين ألف رجل ، ولما تكاملوا نازلين على البر ، خارجين من البحر ، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور وفقد من أهل الثغر فى وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس ، واستشهد محمود ابن البصار ، وبه سهم جرح ، وحذفت مراكب الفرنج داخلة إلى المينا وكان به مراكب مقاتلة ، ومراكب مسافرة ، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما احترق منها واتصل القتال إلى المساء ، فضربوا خيامهم بالبر ، وكان عدتهم ثلاثمائة خيمة ، فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها[4] ، وثلاثة مجانيق

(١) الشينى نوع من المراكب الحربية الكبيرة ويقابلها فى الفرنسية : "galere"

(٢) الدبابة : آلة للحرب شبه برج متحرك له أحيانا ٤ أدوار وتتحرك على عجلات لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار .

(٣) المنجنيق : إدارة ترمى بها الحجارة أو الحديد أو مدور النفط أو الوسائل الملتهبة أو غيرها على الأعداء .

(٤) الكبش : آلة متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرتان تدفعها الجنود نحو الأسوار .

كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود ، استصحبوها من صقلية ، وتعجب
أصحابنا من شدة أثرها ، وعظيم حجرها ، واما الدبابات فانها تشبه الابراج فى
جفاء أخشابها وارتفاعها ، وكثرة مقاتلتها واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن
قاربت السور ، ولجوا فى القتال عامة النهار المذكور ، وورد الخبر إلى منزلة
العساكر ، بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر ،
فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين : اسكندرية ، ودمياط ، احترازا عليها ،
واحتياطا فى أمرها ، وخوفاً من مخالفة العدو إليها ، واستمر القتال ، وقدمت
الدبابات وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور ، إلى أن صارت منه بمقدار
أماج البحر وأهاج الدور ، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبوابا قبالتها من
السور ويتركوها معلقة بالقشور ، ثم فتحوا الأبواب ، وتكاثر صالح أهل
الثغر من كل الجهات ،فاحرقوا الدبابات المنصوبة ،وصرفوا عندهامن قتال ،
وأنزل الله على المسلمين النصر ، على الكفار الخذلان والقهر ، واتصل القتال
إلى العصر من يوم الأربعاء ، وقد ظهر الفرنج ورعبهم ، وقصرت عزائمهم
وفتر حربهم . وأحرقت آلات قتالهم ، واستحر القتل والجراح فى رجالهم
ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة ، وأخذ مابه قيام الحياة ،
وهمم على نية المباكرة ، والعدو على نية الهرب والمبادرة ، ثم كر المسلمون
عليهم بغته ، وقد كاد يختلط الظلام ، فهاجموهم فى الخيام ، فتسلموها
بما فيها ،وفتكوا فى الرجالة اعظم فتك وتسلموا الخيالة ،ولم يسلم منها الامن نزع
لبسه ورمى فى البحر ، وتقحم أصحابنا فى البحر على بعض المراكب فخسفوها
واتلفوها ، فولت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها ا حكام الله البالغة وبقى العدو

بين قتل وغرق،واسر وفرق ، واحتمى ثلاثمائه فارس منهم فى رأس تل ؛
فأخذت خيولهم ثم قتلوا واسروا ، واخذوا المتاع والآلات والأسلحة[١]
ما لايملك مثله ، واقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس .

وهذا الأسلوب أثر آثار الاتجاهات الفنية الغالبة على كتاب العصر فى كل
قطر ومصر ، وأسرفوا فى هذا الإتجاه إسرافاً بالقصد ، فكل فن وما خلق له
وليس يجدى نفعا ما قدم به العماد كتابه « الفيح القسى » إذ يقول مبينا منهجه
« هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين
المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر
القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع ، والأديب أن يقول ،
فإن فيه من الألفاظ ماصار معدنا من معادن الجواهر التى نولدها ،
ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التى نوردها)..

فهذا قول لانطمئن إليه فى عصرنا — وإن اطمأن هو إليه ، فإننا
لانرى وجه الحق فيه ، حيث إن قارئ التاريخ « يتوه » ويضطرب فكره
وسط هذه الدوامات « التى تتلاطم فيها أمواج الأحداث فى تيارات عنيفة
من الصحب اللفظى الذى لايهدى طالب الحق إلى طلبته إلا بعد أجهاد الفكر
والاستنهاض بالقواميس ليحيل هذه كلها إلى حقائق يستخلصها من بين فكى
اللفظ المجانس أو المطابق أو المزاوج أو المترادف أو الغريب وخاصة فى عصر
التخصص الذى تقوم فيه — للأسف — حواجز — بين الثقافات التى تدخل
فى أطار عام كالذى يحدث بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والتشريع
وكلامنا ينصب على هذا النص وعلى سواه مما أنتج العماد فى هذا الباب ،
ومن يشأ دليلا أوضح وأقوى فليقرأ فى «الفيح القسى» وصفه حال نساء الفرنج

(١) الروضتين ح ١ ص ٢٣٥

عندما استرد المسلمون بيت المقدس ، وسيرى مثل هذه الألفاظ و العبارات فى قوله : « وترافدن على الإرفاق والإرفاد ، وتلهين على السفاح والسفاد من كل زانية نازية ، وزاهية هازية ، عاطية متعاطية ، حاظية خاطية الخ.. مما هو بالأدب الخالص أولى .. ويكون العماد قد ركب متن الشطط ، وكلف نفسه جهدا لا يحسب له بل عليه فى مقام لم يراع فيه ما يناسبه من المقال ولا ما يقتضيه الحال .

٥ — أدب التراجم

ليس يقصد به معناه الحديث ولكن معناه ماوعته كتب تاريخ الأشخاص مما يحدد نسبهم وعملهم وآثارهم فى فروع الثقافة المختلفة ، وقد شاركت — الإسكندرية فى هذا الأدب مشاركة تعد واحدة عندما ألف الحافظ السلفى معجمه — بل معاجمه — وهو نسخة مصورة بدار الكتب فى مصر مرقومة برقم ٣٩٣٢ ، عرض فيه صاحبه أخبار وأنساب من لقيهم من أدباء وشعراء الإسكندرية ، ومن اجتمع بهم من وافدى الأندلس والمغرب من رجال الأدب والفقه والحديث والنحو ، وذكر طرفا من نوادرهم وأشعارهم فيما يتصل بالأغراض الشعرية ، وقد نقلنا عنه قدرا منها ، وهو إلى جانب ذلك يستطرد إلى ذكر حديث نبوى مما يتفق وثقافته ، إذ كان حافظا محدثا ثبتا ، ولم ينس معجمه أن يترجم للشاعرة السكندرية المقام تقية الصورية إذ قال عنها : " أنه لم ترعينه شاعرة قط سواها فى الشعر ، ثم يقول انشدتنى تقية بنتفيت المدعوة ست النعم بالثغر ، أخبرتنا ترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى بالثغر أخبرنا أى أبوالعباس أخبرنا أبو عبد الله محمد بن جعفر بن محمد المارستانى بمصر ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن شجاع المصرى ، حدثنا أحمد بن على المروزى ، حدثنا القواريرى حدثنا عبد الوارث بن سعيد عن خالد الحدا عن عكرمة عن ابن عباس : قال ضمنى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : اللهم علمه الحكمه ، وترفه هذه من بيت العلم ، وهى نفسها كانت دينة كثيرة المعروف ، وتسمى أيضا عائشة وطريقته

(١) معجم السلفى ورقة ١٧

فى التراجم ورواية الأشعار تعتمد على طريقة المحدثين فى السماع أو الرواية الشفوية أو عن راو روى عن المترجم له ، على أنه لم يذكر شيئا من شعر تقيه وقد قرأت ترجمة لها فى كتاب "الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور" لزينب فواز ملخصها : أن الحافظ السلفى ذكرها فى تعليقة وأثنى عليها وأخذت عنه العلم بثغر الإسكندرية وفاقت الرجال فيها ولها زيادة على ذلك الباع الطويل فى الشعر والأدب ، ولطائفها الأدبية مع الحافظ المذكور كثيرة منها : أنه كان مارا بمنزله فعثر فجرح باطن قدمه ، فقطعت جارية من الدار قطعة من خمارها ، وعصبت بها قدمه فأنشأت تقية تقول :

لو وجدت السبيل جدت بخدى ... عوضا عن خمار تلك الوليدة

كيف لى أن اقبل اليوم رجلا ... سلكت دهرها الطريق الحميدة

ومن غرائبها فى الأدب أنها مدحت الملك المظافر بن أخى السلطان صلاح الدين بقصيدة خمرية ، فقال ممازحا : أتعرف الشيخة هذه الأحوال فى صباها؟ فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى وصفت فيها الحرب أحسن وصف وبعثت بها اليه وقالت : علمى بهذا كعلمى بذاك[1] .

وترجم الحافظ لظافر الحداد بقوله فى الورقه ٩٨ :

أنشدنى أبو المنصور ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف بن عبد الغنى الجذامى الحداد بالإسكندرية بمصر لنفسه ابتداء قصيدة :

بدا شيبه قبل ابتداء شبابه ... وولى الصبا عنه عقيب اقترابه

وما حان وقت الشيب منه وإنما ... له علة من وجده واكتئابه

فدام طبيعى السواد بشعره ... دوام مشيب تحت زور خضابه

(1) الدر المنثور ص ١٠٩

ومن خامرت خمر الهوى كاس لبه ... فان نجوم الشيب بعض حبابه

ولما طما بحر الغرام بقلبه ... طفا زبد فى فرقة من عبابه

وظافر هذا كان من مفلقى شعراء ديار مصر ، وقد كتب لى من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً بخطى بمصر ، وقبل ذلك بالإسكندرية مقطعات وقصائد ، وكاتبته وأجاب عنه بشعر هو عندى لا يحسن ذكره ههنا وتوفى سنة ٥٢٨ فى ذى الحجة ، وقد قال لى الفقيد أبو الطاهر بن عوف : ظافر الحداد ما عزفنا له قط خربة[1] كمثل الشعراء[2] .

ويترجم لغير ظافر كابن مكنسة ، وابن عياد ، وابن قيصر ، ومحمود بن ناصر ، وابن الطفال ، والدمراوى ، وابن الدر وغيرهم ، روايا طرفاً من أشعارهم فى أغراض شتى متجنباً هجر القول مما ينأى به طبعه وخلقه وعلمه وفضله أن يروى منه شيئاً ، وهو فى سائر التراجم يجرى — كما قلنا — على سنن علماء الحديث ، ويقتصر على رواية ما لا يخدش الحياء ، أو يجرح الفضيلة تمسكاً منه بأدب القرآن والحديث .

(1) خربة : فساد فى الدين .

(2) المعجم الورقة ٩٨ الأولى .

٦ — الأدب التهذيبي

الأدب التهذيبي شاركت فيه الإسكندرية بكتاب (سراج الملوك) للطرطوشى الفقيه الشهير أبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المعروف بابن رندقة ، ذكره ابن بشكوال فى الصلة ، وتوفى بالإسكندرية وكان من تلاميذه الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى — غير ابن عربى الصوفى — ، ومن نظم الطرطوشى قوله فى رسالة :

أقلب طرفى فى السماء ترددا … لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر

وأستعرض الركبان من كل وجهة … لعلى بمن قد شم عرفك أظفر

وأستقبل الأرواح عند هبوبها … لعل نسيم الريح عنك يخبر

وأمشى ومالى فى الطريق مآرب … عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

وألمح من ألقاه من غير حاجة … عسى لمحة من نور وجهك تسفر

دون أن يذكر مؤرخوه تلك الرسالة .. ومن نظمه أيضاً قوله :

يقولون ثكلى ومن لم يذق … فراق الأحبة لم يثكل[1]

لقد جرعتنى ليالى الفراق … كؤوساً أمر من الحنظل

وكان (رحمه الله) زاهداً عابداً متورعا ، وينتسب إلى طرطوشة بلدة من بلاد الأندلس وقد رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ فى عهد الأفضل بن بدر

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦٢ طبعة المطبعة الأزهرية الطبعة الأولى .

(٢) منح الطيب جـ ١ ص ٣٦٣

الجمالى ، ومقامه بالإسكندرية معروف . وقد ذكر فى سبب تأليفه (سراج الملوك) للمأمون البطائحى وزير الآمر الفاطمى : أنه ابتلى بالأفضل بن بدر الجمالى الذى حجبه عن الناس ظ وضيق عليه حتى ضجر ، ولما قتل الأفضل ، وتولى الأمر من بعده البطائحى المذكور ، أكرم الشيخ فصنف له هذا الكتاب الذى قال صاحب كشف الظنون « سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ جمعه من سير الأنبياء ، وآثار الأولياء ، ومواعظ العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، ورتبه ترتيباً أنيقاً ، ما سمع به ملك إلا استكتبه ، ولا وزير إلا استصحبه ، يستغنى الحكيم بمدارسته عن مباحثة الحكماء ، والملك عن مشاورة الوزراء ، وذكر فيه الأمير أبا عبد الله الأموى (البطائحى) وأبوابه أربعة وستون بابا » وهو فى المقدمة يبدو من طائفة المتكلمين إذ يقول عن الله سبحانه « لايلزمه لم ، ولا يجاوره أين ، ولايلاصقه حيث ، ولا يحده ما ، ولايعده كم ، ولايحصره متى ، ولايحيط به كيف ، ولا يناله أى ، ولايظله فوق ، ولايقله تحت ، ولايقابله حد ، ولايزاحمه عند .. ان قلت : لم كان ؟ فقد سبق العلل ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة .. فان قلت : أين هو ؟ فقد سبق المكان وجوده ، فمن أين الأين ، لم يفتقر وجوده إلى أين هو بعد خلق المكان ، غنى بنفسه كما كان قبل خلق المكان .. الخ .

ثم يقول فيها : أما بعد « فإنى نظرت فى سير الأمم الماضية ، والملوك الخالية ، وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول ، والتزموه ، من القوانين فى حفظ النحل ، فوجدت ذلك نوعين : أحكاما ، وسياسات .. إلى أن يقول « فنظمت ما ألقيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة ، والكلمة اللطيفة ، والظريفة المألوفة ، والتوقيع الجميل ، والأثر النبيل ، ويراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى

عليه القرآن العزيز ، الذى هو بحر العلوم ، وينبوع الحكم ، ومعدن السياسات ، ومغاص الجواهر المكنونات ، إن اختصر فلمحة دالة ، وإشارة خفية ، وإن طال فألفاظ بارعة ، وآيات معجزة(١) .

ثم يأخذ بعد ذلك فى بيان سبب تأليفه الكتاب وهو لا يخرج عما ذكره عنه صاحب كشف الظنون فيما نقلناه عنه ، ثم عرض لأبوابه بابا فبابا ، مبتدئاً بمواعظ الملوك ، جامعا فى الاستشهاد بين محاكم الآيات ، وشريف الأحاديث ، ومختار الأشعار ، وأقوال الأنبياء والخلفاء والصالحين ، وغرائب الإسرائيليات ، وكان مما استحسنه من الأشعار قول القائل فى الحنين :

رب ورقاء هتوف بالضحى	ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ودهرا صالحاً	فبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها ...	وبكاها ربما أرقنى
فاذا تسعدنى أسعدها	وإذا أسعدها تسعدنى
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها	وهى أيضاً بالجوى تعرفنى(٢)

ومن النثر ماوراه : أن أعرابيا قام بين يدى هشام بن عبد الملك فقال : أيها الأمير ، أتت على الناس سنون ثلاث : أما الأولى ، فاكلت اللحم ، وأما الثانية ، فاذا أبت الشحم ، وأما الثالثة فهاضت العظم ، وعندك فضول أموال ، فأن كانت لله ، فأقسمها بين عباده ، وأن كانت لهم فلم تحصرها عليهم ، وأن كانت لكم فتصدقوا ، فإن الله يجزى المتصدقين ، فأمر هشام

(١) سراج الملوك ص ٤٢٣

(٢) سراج الملوك ص ٢١

بمال فقسم بين الناس ، وأمر للاعرابى بمال ، فقال : ألكل المسلمين منك مثل هذا ؟ قال : لا ، يقوم بذلك بيت المال ، قال : لاحاجة لى فيما يبعث لأئمة الناس على أمير المؤمنين(١) .

ويستفتح الباب السادس فى الكلام عن أن السلطان مع رعيته مغبون « بقوله إعلموا – أرشدكم الله – أن السلطان خطره عظيم ، وبليته عامة ، وقد يطرقه من الآفات ، ويحتوشه من الأمور المهلكات ، وما يجب على كل ذى لب أن يستعيذ بالله مما حمله ، ويشكره على ماعصمه لاتهدأ فكره ، ولا تسكن خواطره ولا يصفو قلبه ، ولا يستقر لبه ، والخلق فى شغل عنه ، وهو مشغول بهم ، والرجل يخاف عدوا واحدا ، وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته ، وإزالة ضيعته ، وتقدير معيشته ، وهو مدفوع لسياسة جميع أهل مملكته ، وكلما رتق فتقا من حواشى مملكته انفتق الآخر ، وكلما رم منها شعثا رث آخر ، وكلما قمح عدوا أرصد له اعداء ، إلى سائر مايعانيه من أخلاق الناس ، ويقاسيه من خصوماته . . وعلى هذا النمط فى جميع أحواله ، يحمل أثقالهم ، ويريح أسرارهم ، ويجاهد عدوهم ، ويسد ثغورهم ، ويدفع مناوئهم ومناصبهم ، ويعصى ربه فيهم ، ويخالف أمره ، ويركب نهيه من أجلهم ، ويقتحم جرائم جهنم على بصيرة فيهم ، ثم تجدهم له قالين ، وعنه غير راضين(٢) .

ثم يأخذ فى عرض الشواهد والأدلة من الروايات والأخبار .

وهو يبدو أديبا محكم العبارة ، دقيق الألفاظ ، بصيرا بجوانب موضوعه ، محققا لغرضه فى الموعظه الحسنة ، والهداية إلى التى هى أقوم سبيلا فى العلاقة

(١) المصدر السابق ص ٢٨

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ و ٤١

بين السلطات والرعية ، وهو لايتكلف المحسنات الا ماجاء عفوا ، ولذلك صيغت عبارته قوية مترابطة واضحة المعانى والمقاصد . . وهو فى شواهده ومروياته صادق الحس، دقيق الملاحظة، بارع الاختيار من الحكمة، والمثل والشعر والخبر ، إلى عظم خطه من حسن الفهم والبصر الدقيق بآى القرآن ومضمون السنة ، وأن كانت تغلب مروياته على ماينبغى أن يكون له من وضوح الشخصية فى المنهج والاسلوب والعرض .

والكتاب بعد ذو صبغة دينيه على الرغم من الموضوع الذى يعالجه ، وهو — أخيرا — يعبر تعبيرا عاما غير مباشر ، بخلاف مانتهجه الغزالى فى كتابه التبر المسبوك فى نصائح الملوك ، المؤلف بالفارسية والمترجم عنها إلى العربية على هامش سراج الملوك حيث نجده يخاطب السلطان خطابا مباشرا بندائه قائلا أعلم ياسلطان العالم ، وملك المشرق والمغرب . . وأعلم أيها الملك أن لهذه الشجرة عشرة أصول . . . وأعلم أيها السلطان ، أنك مخلوق ، ولك خالق ، وهو خالق العالم ، وجميع مافى العالم فالغزالى عندما يأخذ فى بيان الاصول العشرة التى حددها لشجرة الايمان تظهر شخصية الموجهة بأسلوب الآمر الناهى ، الواعظ المذكر ، ثم يأخذ فى سرد الأمثال والحكايات ، والحكم ، بعد أن يشرح فكرته ويفصل فيها القول ، وهو بهذا أسلم منهجا ، وأوضح شخصية ، وأدق تبويبا وترتيبا ، وثمة فارق آخر هو : أن مرويات الغزالى من الشعر فى شواهده قليلة ، ولذلك كان سراج الملوك — وهو حافل بالآثار الأدبية والحكمية نثرا وشعرا — أقرب وأدخل فى الأدب بمعناه العام .

وعلى الجملة ، فعلم الطرطوشى فى الكتاب أظهر من أدبه ، وثقافته الدينيه أوضح من ثقافته الأدبية ، وذوقه فى الحالين ذوق أديب يحسن الاختيار

ويعرف مواقع الحكم ، وجوامع الكلم ، وموضع سياق الخبر فى اطراد — تستريح له النفس ، واستطراد ينشط به الفكر ، وهو فى ذلك كله بالغ هدفه من التذكرة ، والموعظة الحسنة . وقد نشط — بتأليفه هذا الكتاب — ليؤدى الأدب رسالته الأخلاقيه فى تهذيب النفوس وتقويم السلوك ، والأخذ بالقيم المثالية ، ونشدان الخير والحق والجمال فى كل نشاط إنسانى هادف ، وليس الأدب — على هذا الاعتبار — محصورا فى دائرة ضيقة يدور فيها مادامت غايته الإمتاع ، والتأثير ، وزيادة إحساس بالجمال ، ولكنهم منذ تلك العهود الخالية ، كانوا يرون رسالة الأدب تتسع فتشمل نواحى السلوك الإنسانى ، وتقف مصورة له ، وموجهة إلى الحق والخير والفضيلة دون أن ننسى فنية التعبير عن كل أحساس صادق بالجمال . .

وقضية الأدب والأخلاق تقبل المناقشة ، والحق الذى يبدو من خلالها : أن المدار الحقيقى لكل أدب قيم هو أن يكون صادقا أصيلا ، قوى الشعور ، يحفه إطار فنى جميل فيه تكمن حقيقة الأدب ، وتتحدد أهدافه فى خدمة الحياة ، ومساندة التطور ، والتنبوء بالمستقبل ، وإعلاء الغرائز ، وتهذيب الوجدان على نحو يحقق اللذيذة والمتعة واثارة الخيال — وهكذا يبدو لنا النثر الأدبى فى الإسكندرية ناشطا فى اتجاهات عدة ، وفى مجالات مختلفة يفيض فيها القول ، وإذا قصر فى ناحية منها فمصدر ذلك — كما قلت — ان الأدب إنما يرقى ويتنوع ويكون صدى للحوادث ، ويغزر عندما تقوى بواعثه ، وتتردد اصداء استجاباته فى نفس منشئيه ، وقد قويت هذه البواعث — فى العصرين الفاطمى والأيوبى — بسبب مالقيه الأدباء من تشجيع الخلفاء والسلاطين ومن ولاهم وجاراهم ، فوقف الأدب نفسه فى خدمتهم حيث يدر على صاحبه المغنم والجاه ، وهو مالم يتحقق فى الأسكندرية بعد أن أصبحت القاهرة مقر الخلافة ، وكعبة القصاد والعفاة وطالبى الشهرة والمجد . .

وهو على الجملة نثر مطبوع بطابع العصر ، وقليله الموجود يدل على كثيره المفقود ، ولم يحفل به الرواة لأنه فاطمى ، وكان الشأن على الإعراض عما أثر عنهم ولذلك – وغيره – لم يصل إلينا منه إلا هذا النزر اليسير وإلا فإنه يكون عجيبا وغريبا فى التصور والتقدير أن تحيا الأسكندرية فى العصر الفاطمى نحو قرنين من الزمان دون أن ينتج أدباؤها نثرا كثيرا كان ينبغى تسجيله والقيامة عليه ، واوضح دليل على إهماله أو إبادته عدم العثور على نصوص الرسائل الرسمية التى كانت تتردد بين القاهرة والأسكندرية بين الولاه والخلفاء والقضاة والحكام .

فإذا ماكان العصر الأيوبى وجدنا النثر فى خدمة أهداف الحروب التى دارت رحاها بين المسلمين وعبدة الصليب ممن يتمسحون بالمسيح ، وقام بوظيفته فى تسجيل الاحداث والوقائع ووصف المعارك وتقرير الحقائق بحيث تكمن فى العقول والقلوب عن عقيدة ويقين .

أما الخطابة وغيرها من فنون النثر مما لم تشارك فيه الإسكندرية بنشاط مشهود فإن حظها منه مفقود أوغير مدون،وأن كانت الخطابة لهذا العهد دينيه إلا أنها استغلت لاستثارة الشعور الدينى ضد الصليبيين،وغير معقول أن تكون الإسكندرية بمنأى عن نشاطها هذا وهى ثغر الثغور، ومناسبات القول وظروفه وبواعثه متوافرة أبان تلك المحنة القاسية . ونحن إزاء هذا الضياع وهذا الإهمال ومالقيه الأدب فى الأسكندرية من سوء تقديرحتى إذا نبغ فيها نابغ ضموه إلى الحاشية فى القاهرة ، وحرمت هى منه إلى الأبد – أرانا فى ضيق بهذا الامر وأن بى مايكفى لتمثل الحال ، وتصور الأمر على وجه قريب من الصحة بعد أن أسعفتنا مراجع تاريخية وأدبية غير متعصبة لولاها لظلت الإسكندرية فى تلك الحقبة مجهلا ، ومرتادا غامضا لمن يريد أن يتبين مسالكها ، ويتعرف على وجهها الحقيقى ونشاطها الفكرى والوجدانى فى العلوم والفنون والآداب .

تعقيب

والآن، وبعد أن طوفت بك فى هذه الآفاق التى لا تدور حول الأسكندرية وحدها ، وانما دارت وانطلقت متصلة بآفاق أخرى ممتدة بين الشرق والغرب الشرق : حيث كانت الخلافة العباسية لم تزل قائمة ، وأن اعتراها الوهن والتحلل والفساد،ولكنها بقيت تبسط ظلها الروحى، وتحتفظ بمظاهر الإجلال والإكبار،ويلتف حولهادعاة يؤكدون حقها فى السلطان والتوجيه والقيادة ... والغرب : حين خرج الفاطميون جاهرين بالدعوة ، شاهرين السيوف فى وجه المناوئين ، باسطين سلطانهم على المغرب ، باذلين–ما وسعهم الجهد– كل محاولة لفتح مصر باعتبارها مفتاح الشرق ، وقد بثوا دعاتهم بكل سبل لتمهيد الطرق وتشييع الناس والتبشير بنصره دعوة بنى عبيد ، حتى وجدنا العالم العربى من المحيط إلى الخليج منقسما إلى معسكرين كبيرين ، أو مذهبين دينيين لكل منهما أنصاره ودعاته ومؤيدوه ..

وكان انقسامهم الدينى مظهراً أو وسيلة إلى بسط السلطان والتمكين لكل فريق فى الأرض . ولما قيض الله للفاطميين النصر فملكوا ، وامتد سلطانهم من أقصى المغرب إلى حيث كانت أملاك العباسيين فى الشرق تمتد فتشمل الشام والحجاز واليمن وبلادا من فارس ،وإلى حيث كان للقرامطة سلطان وأرض استولوا عليها وبسطوا ظلهم على أهلها دون أن يكفوا عن نشر دعوتهم ، ومناصبة الفاطميين العداء– كما فعل السلاجقة والأتابكة – بحيث يكيد بعضهم لبعض ، ويحاول كل منهم القضاء على الآخر حتى ضعفت شوكتهم ،وذهبت

رجهم ، وتفرقوا شيعاً وجماعات يضرب بعضهم رقاب بعض ، ويجاهد فى سبيل التمكين لنفسه فى ملك عريض وجاه عظيم وسلطان ممتد ..

ومع هذا التناحر الذى لم يكن ليهدأ ، وجدنا الفاطميين فى مصر يقيمون ملكاً ، ويشيدون حضارة ، وينشرون مذهبا ، متسلطين حينا ، وباسطين يد البذل والسخاء حينا آخر ، وظاهرين أحياناً بمظهر الحكام الديمقراطيين فمنحوا الحرية الدينية والمذهبية احياناً لمعتنقى هذه الأديان والمذاهب ، ولكنهم كانوا فى قرارة نفوسهم ، وفى مناسبات مختلفة يفرضون مذهبهم ، متخذين لذلك كل سبيل : من قهر ودعاية وإغراء ، وفى الوقت نفسه كانوا ينهجون نهج الخلفاء العباسيين فى الظهور بمظاهر الفخامة والجلالة ، فاهتموا بتشييد حضارة راسخة على أسس من الثقافة والقوة والأمن ، والمال . ومكنوا لهذه الحضاره فى مصر بما شيدوه من قصور ومتنزهات ، وما أحاطوا به أنفسهم من مظاهر البذخ والترف ، وما ابتدعوه من أعياد ومواسم ، وما قاموا من حفلات كانت كلها من عوامل ابتهاج الشعب وانصرافه عن منا وأتهم والكيد لهم والثورة عليهم ، فكانت تلكم وسائل دعاية — كما اهتموا بدور العلم والمكتبات ، وتشييد المساجد والعناية الكاملة بالنهضة العلمية ، وبخاصة ما كان منها متصلا بالفلسفة ، دعما لمذهبهم ومجاراة لبغداد فى أوج حضارتها ، ومحاولة للتفوق والامتياز ، حتى تهيأت لمصر فى عهدهم بحق — أسباب نهضة عمرانية وعلمية وفنية لم تكن لها من قبل وذلك بفضل ماكانت تتمتع به مصر من رخاء ووفرة فى الأموال مهدت السبيل إلى هذه النهضة المتكاملة وأرست عمدها على أساس مكين وبسطوا أيديهم بالعطاء ، وأغروا بالمال العلماء والشعراء والكتاب حتى وفدوا عليهم من كل قطر ، وأن لم يدينوا بمذهبهم وقد قال قائلهم عمارة اليمنى :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة ... وإن خالفونى فى اعتقاد والتشيع

وقد أصاب الشعب من هذا الرخاء ماكان يناله فى المناسبات التى حفلت بها أيامهم من بسط الأسمطة وبذل الهبات ...

وكانت النهضة الثقافية تعتمد على أصول ممتدة من الشرق والغرب من بغداد والشام والمغرب و الأندلس ، وقد كان طريق هذا المعين الآتى من الغرب يمتد إلى الاسكندرية قبل أن يصل إلى داخل البلاد ، وربما كا نسبباً فى تسميتهم الاسكندرية (باب المغرب) يضاف إلى أسباب أخرى سياسية واقتصادية ، وكذلك رأينا الاسكندرية عامرة بهؤلاء الوافدين من تلك الديار لاجئين أو حاجين أو طالبى علم أو ناشرى ثقافة ومذهب ومن هؤلاء من كان له بسطة فى العلم والأدب ممن سبقت الإشارة إليهم بفواضلهم ومآثرهم ، كما استقر غيرهم ممن وفد من الشرق من أمثال الحافظ السلفى وكذلك ظفرت الإسكندرية بحلول أبى حامد الغزالى زعيم أهل السنة ناشرا فيها جذور مذهبه وداعياً إليه ، حتى تنفست البيئه الثقافية فى جو دينى غلب عليها الأجواء الأخرى التى تنفس فيها اللغويون والشعراء والكتاب الذين افتقدنا من آثارهم الكثير وقد رأينا هؤلاء نائين عن المذهب الشيعى والثقافة الشيعية بحيث لم نر لها ظلا على هـذا الأدب كما لم نرمنهم من تأثر فى مدائحه — وأغلب شعرهم كان مدحاً — بأصول هذا المعتقد إلا ما أثر عن ظافر من أنه كان من مداح المصرى ولكن ما بقى من شعره فى ذلك لا يدل عليه ولا يقوم شاهداً على تأثره بمذهبهم ، كما تأثر به الشعراء فى غير الإسكندرية ممن تعرضوا فى مدائحهم لذكر بعض أصول هذا المذهب والإشادة به عن عقيدة أو عن رغبة فى استدرار مكارمهم واستمناحهم الهبات الوفيرة والعطاء الجزيل :

كذلك رأينا من هؤلاء الشعراء من لم تحركه الأحداث التى وقعت فى هذه المنطقة الممتدة من الاسكندرية إلى اقصى بلاد الشام فى أيام محنتهم الكبرى منذ

أن بسط الصليبيون سلطانهم على أجزاء من هذه الرقعة الفسيحة بغية الاستيلاء على بيت المقدس والقضاء على قوة المسلمين باحتلال أرضهم وإذلالهم على خلاف ما وطن الشعراء أنفسهم عليه من أثارة شعور العداء ضد المحتلين والانتصار للأبطال المجاهدين .

بل رأينا من هؤلاء الشعراء من أسرف على نفسه وفنه بالانصراف عن معترك الأحداث لاهيا ، ضارباً فى الأرض ببضاعته يعرضها للبيع فى كل مكان مبتغياً من ورائها نفعاً لا يحـد مطامعه ركوب أخطار البحار واعتساف المهامه والقفار ذلك هو ابن قلاقس صاحب المختارات التى أثرت عنه مجموعة دون غيرها من الدواوين والمجموعات وقد خلت إلا قليلا مما يرفعه إلى حيث مقام الشعراء الكبار .

وقد أصاب جامع مختاراته محمد بن نباته المصرى عندما قال : إنه وجد له حسنات تبهر العقول فضلا ، وسيئات يكاد يذكرها ابن قلاقس ويقلى ، أما أن يكون قرضها فى مبادئ عمره وما أن يكون غواة الرواة ألحقتها بنسب شعره ، فميزت من نجومه بين الصاعد والهابط — وأثبت فى هذا الكتاب من أنباء فكره المنجب ، ونفيت الساقط ، وربما أوردت البيت المضطرب متى تعلق به البيت السديد ، ووصلت رحمه طلباً لتمام شخص القصيد ».

وهو قول ذواقة أديب لم يعن من شعره إلا بما يستحق التسجيل والتقييد وهو — فى الحق — مختار ليس كله — بل ليس أغلبه — فى المستوى الرفيع حيث يشيع فيه التقليد وتغلب عليه الصنعة ، ويبدو التكلف وركوب صعب القوافى وإكراه الفكر وكد الخاطر فى القول مما يدل على أنه لم يكن لينفعل بتجربة شعورية تكون عوناً له على القريض إلا فيما قل مما نراه حديثاً عن الخمر أو وصفاً لمنظر طبيعى فى بيئة خصبة فياضة بكل ما يثير الإحساس ويدفع

إلى القول النضيد ، وهذا ما رأيناه على هذا الوجه فى مختارات العماد من شعره فى كتابه « خريدة القصر » وأكثر مختاره له بهذا السبيل جيد ، بذل فيه ابن قلاقس جهداً ، وأظهر فيه فناً ، ودل على طبع وأصالة ، وأن غلب عليه التقليد

هذا عن ابن قلاقس زعيم شعراء الاسكندرية ، أما غيره فإن أظهرهم ظافر الحداد وقد رأينا كيف سبيله إلى التصنع أحياناً كثيرة بحيث يفتقد أغلب شعره العاطفة القوية والانفعال المثير إلى جانب ما لحق شعره من بعض مظاهر الضعف بضيق فى ثقافته أحياناً وتكسبه بشعره أحياناً أخرى وإن كان يرتفع — قليلا وخاصة فى الغزل والتشوق والرثاء إلى مستوى الشعراء المطبوعين .

ثم يقوم من بعده شعراء كابن مكنسة وابن عياد وابن فياض وابن معبد وابن سلمان وغيرهم كثير ممن حفظت لنا كتب التراجم والتاريخ مقطوعات لهم وبعض قصائد ترتفع أحياناً إلى قمة التعبير عن الشعور الصادق والأصالة والابتكار فيصدر عنها القول جميلا رائعاً ، ومقبولا سائغاً ، فى خفة روح ورقة ومرح ، وسهولة وعذوبة وإن جروا غالباً على النهج القديم فى المسالك التى رسمها القدماء للشعر : أغراضه ونظامه بأوزانه وقوافيه وأساليبه وأخيلته ومعانيه إلا ما توحى به البيئة أو يكون أثراً من آثار العصر وأحداثه ، وإن غلب على ما بقى لهؤلاء معالجة موضوعات أخرى غير المديح كالوصف والغزل والهجاء والتشوق والحنين ... وإن يكن بعض الوصف يأتى عرضاً ، وبعض الغزل مقدمة بين يدى القصيد ، وهو فيها وليد صناعة ، وليس من فيض الشعور جرياً على سنة القدماء فى الابتداء واستعارة العواطف والأسماء تأثراً بما اختزنته الذاكرة من هذه الآثار مما قلّ معه التجديد والأصالة والصدق ، وعظ حظه من التقليد والتصنع وتكلف ما لا يغنى فى الفن غناء يفيد . كتلمس المحسنات ، وابتداء القول فى شتّى المناسبات ، والاعتماد على الذهن فى التصوير

حتى امحت أو كادت تمحى شخوصهم وتتوارى خلف الأسوار المنصوبة عليهم من قديم .

وفى الأوزان والقوافى لم يخرجوا عن البحور المعروفة ولم يؤثر عنهم إلا القليل من الموشحات حيث تتعدد القوافى وتتردد فى نظام يحسن فى الغناء ويعذب من أجل ذلك وقعه فى الآذان .

كما لم يؤثر عنهم غير الأدب الفصيح مما عرف من ألوان الأدب العامى وبخاصة تلك التى تنسب فى وجودها إلى مصر وهى «البليقة» التى تتعدد فيها الأوزان ويوقف على كثير من كلماتها بالسكون وكثيراً ما كان يغنى بها وقد تستعمل فى أغراض أخرى كالهجاء مثل التى أنشأها حسام المغنى الاسكندرانى فى هجاء ابن قلاقس ومطلعها :

أسألوا عنى فتوح بن قلاقس   كيف رأى ضرب الشلوح بالدرافس

ولم يعرف منها غير مطلعها المذكور كما لم يرد عنهم من هذه الألوان ما يفيد وإن تكن دلالتها على شخوصهم وبيئتهم وأحوالهم أدق وأوفى من دلالة الأدب الفصيح ...

ولعل أبرز صفات هذا الشعر — بعامة — السهولة والوضوح ، والميل إلى الرقة ، والصناعة اللفظية والمبالغة الممقوتة والإسراف فى المديح ....

وقد وفد على الاسكندرية شعراء وأدباء حفظت لنا بطون الكتب آثاراً حساناً لهم انطلقت بها ألسنتهم وفاضت عن طبعهم فأثرت الأدب فى الاسكندرية حيث كانت لهم سكنا ودار إقامة أو مزارا طال فى بعض الأحيان لأبى الصلت أمية ابن عبد العزيز والطرطوشى والقاضى الرشيد وغيرهم ممن أسهموا فى تطعيم الثقافة الأدبية والدينية بنفحات عطرت جو الاسكندر الرطيب .

أما فى النثر فقد رأينا كيف دارت دائرة السوء بآثار الكتاب فلم يبق منها إلا القليل وإن لم يخرج عن النهج المطروق والاتجاه الفنى الغالب عليه فى كل قطر من التأثر بابن العميد والحريرى مع مبالغة فى استخدام الزينة وتعقيد لها حتى بدت تلك الآثار الأدبية معارض لفظية ، تتشابك فيها النقوش وتمتلىء بها اللوحة ، ويكل النظر دون أن يمتعه المنظر ، فى أغلب الأحيان ، وقد دل الشاهد من الآثار على الغائب منها فى النهج والأسلوب .

على أن منها ما ارتفع إلى مستوى الفحول من كتاب العصر العباسى الأول ويقوم شاهداً على التأثر بالجزل الفصيح البعيد عن التكلف فى قوة وشدة أسر وعمق فى المعانى وإحتفال لها . وهو نهج جار على سبيل ما أوحت به الثقافة العربية والتمرس بأساليبها البليغة . وقد كان للثقافة الدينية — آخر الأمر — أثرها فى هذا الأدب وبخاصة ما كان للقرآن الكريم فى لغته وأسلوبه من تأثير بارز السمات فى بعض ما أثر عنهم من شعر ونثر . كما كان ضعف حظهم من الثقافة العقلية وبخاصة الفلسفة سبباً فى وضوح معانيهم وبساطتها دون تعميق أو تركيب وكان سبباً — أيضاً — فى تحديد مجالى الخيال والتضييق عليه بحدود ما أثر عن السابقين — فى معظم الأحيان — مما يسم الإنتاج العام — غالباً — بسمة التقليد والمحاكاة ، ويجعل حظهم من الأصالة والتجديد حظاً ضئيلا بحيث لا يعد شيئاً مذكوراً فى مجال الخلق الفنى الذى يبقى أثره ويعظم فى النفوس خطره ويتردد صداه على مر السنين .

وكان من الممكن أن تنطلق قوى التجديد كما انطلقت من قبل فى بغداد والأندلسى لو انصرفت العناية إلى ذلك ، وحظى الأدباء — شعراء وكتاباً — بحظ من الثقافة عظيم يكون أداة لهم وعوناً على إنتاج يتسم بالابتكار والأصالة والعمق ويجرى فى مضمار التطور الخلاق ، ولكن القوم فى الإسكندرية —

وهناك فى كل مكان من الوطن العربى الكبير – اختاروا أهون الوسائل وأيسر السبل ليقولوا شعراً ويكتبوا نثراً على غرار الأنماط القديمة ، والنماذج المحفوظة – حتى ليحس القارئ – لولا بعض الخصائص الإقليمية فى بعض النصوص ، والأحداث التاريخية والطبيعية التى حفلت بها البيئة – أنه يقرأ لشاعر ما ينتسب إلى أى قطر ويعيش فى أى عصر ، أو كان يعيش .

وعند هذا الحد نقف – وقد جلونا – جهدنا – وجه الأدب فى الاسكندرية فى تلك الحقبة التى امتد فيها سلطان الفاطميين والأيوبين ...

والحمد لله رب العالمين ..

المراجع

١ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (الخطط للمقريزى)

٢ – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، للمقريزى

٣ – الروضتين فى أخبار الدولتين ، لأبى شامه المقدسى .

٤ – حسن المحاضرة ، للسيوطى .

٥ – وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

٦ – الوافى بالوفيات ، للصفدى .

٧ – فوات الوفيات ، لابن شاكر .

٨ – النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى .

٩ – صبح الأعشى ، للقلقشندى .

١٠ – النكت المصرية ، لعمارة اليمنى .

١١ – معجم الأدباء ، لياقوت .

١٢ – رحلة ابن جبير ، لابن جبير .

١٣ – مسالك الأبصار ، للعمرى .

١٤ – الإشارات إلى معرفة الزيارات ، للهروى .

١٥ – الولاة والقضاة ، للكندى .

١٦ – نفح الطيب ، للمقرى .

١٧ ـ معجم السلفى ، مخطوط « مصور » بدار الكتب للسلفى .

١٨ ـ خريدة القصر ، للعماد .

١٩ ـ يتيمة الدهر ، للثعالبى .

٢٠ ـ الرسالة المصرية ، لأبى الصلت من سلسلة « نوادر المخطوطات » تحقيق عبد السلام هارون .

٢١ ـ المُغرب فى حلى أهل المغرب ، لابن سعيد .

٢٢ ـ مختارات من ديوان ابن قلاقس ، مخطوط بمكتبة الأزهر .

٢٣ ـ الرسائل الأدبية للقاضى الفاضل ، مخطوط بمكتبة الأزهر .

٢٤ ـ ديوان القاضى الفاضل ، مخطوط بمكتبة الأزهر .

٢٥ ـ الدر النظيم فى ترسل عبد الرحيم ، تحقيق أحمد بدوى .

٢٦ ـ ضحى الإسلام ، لأحمد أمين .

٢٧ ـ ظهره الإسلام ، لأحمد أمين .

٢٨ ـ الفاطميون فى مصر ، حسن إبراهيم .

٢٩ ـ الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، لعبد اللطيف حمزة .

٣٠ ـ أدب الحروب الصليبية ، لعبد اللطيف حمزة .

٣١ ـ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، لبدوى .

٣٢ ـ فى أدب مصر الفاطمية ، لمحمد كامل حسين .

٣٣ ـ الطالع السعيد ، للادفوى .

٣٤ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاه ، للقفطى .

٣٥ ـ بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ، لابن ظافر .

٣٦ ـ المساجد الأثرية ، لحسن عبد الوهاب .

٣٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية .

٣٨ ـ عيون الأنباء ، لأبن أبى أصيبعة .

٣٩ ـ نهاية الأرب ، للنويرى .

٤٠ ـ ديوان المؤيد فى الدين ، خطية بدار الكتب .

٤١ ـ سراج الملوك ، للطرطوشى .

٤٢ ـ على هامش التبر المسبوك للغزالى .

٤٣ ـ لطائف المنن ، لابن عطاء الله السكندرى .

٤٤ ـ أبو العباس المرسى ومسجده الجامع ، للسندوبى .

٤٥ ـ طبقات الشافعية .

٤٦ ـ الفيح القسى فى الفتح القدسى ، للعماد .

٤٧ ـ الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ، لزينب فواز .

٤٨ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزى .

المحتـــوى

تم طبع هذا الكتاب فى يوم ١٥ من رمضان سنة ١٣٨٣

(الموافق ٣٠ من يناير سنة ١٩٦٤) م

محمد الفاتح عمر

عضو مجلس الإدارة المنتدب

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٠٠٠-١٩٦٣-٧٤٨٥

الجمهورية العربيـة المتحـدة

مطبوعات

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

- ٦٢ -

مشروع الكتاب الأول (١٢)

القـاهرة

١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م